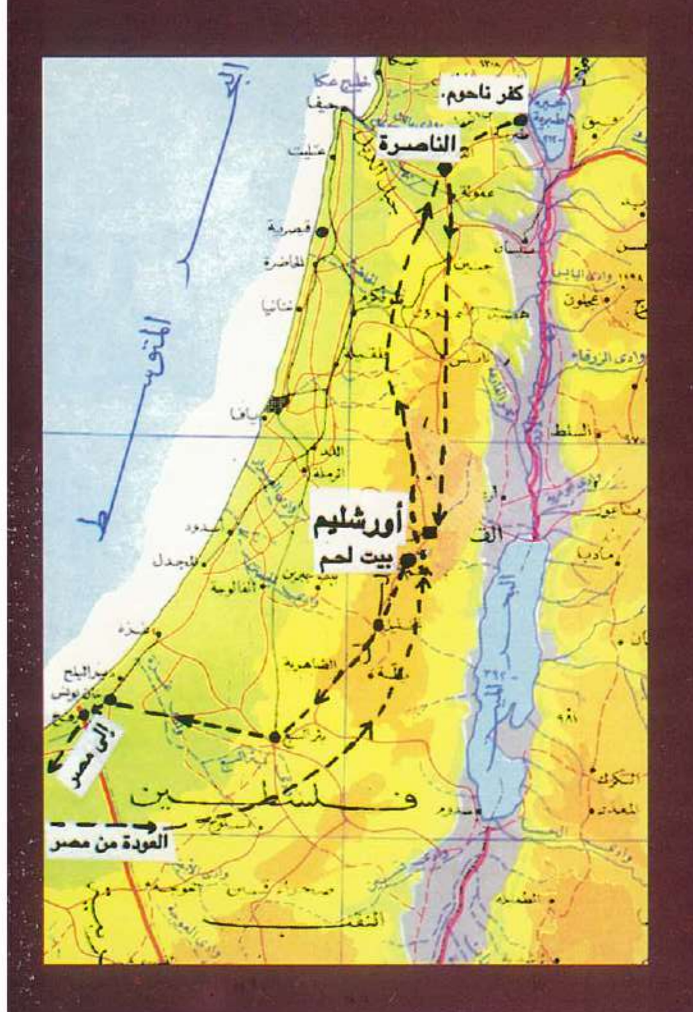
المسيح عيسى ابن مريم

وزكريا ويحيى عليهم السلام





الجزء السادس

تأليف دكتور

رشدي البدراوي

الاستاذ بجامعة القاهرة





الجزء السادس

تاليف دكتور

رشدى البدراوى

الاستاذ بجامعة القاهره


mohamed
mohamed
mohamed khatab
mohamed
mohamed
mohamed khatab
mohamed
mohamed
mohamed khatab

محتويات الجزء السادس

الفصل الأول

الرومـــان

توقفنا فى نهاية الجزء الخامس عند استيلاء الرومان بقيادة پومپى على فلسطين فأنهوا استقلال الدولة اليهودية التى أقامها المكابيون وأصبحت فلسطين ولاية رومانية. ولا بأس من نبذة قصيرة عن نشأة الرومان. ولنعد إلى العام ٣٣٦ ق.م. حينما بدأ الاسكندر الأكبر حكمه فى بلاد الإغريق. وكانت الامبراطورية الفارسية تسيطر على جميع ممالك الشرق الأدنى القديم: سوريا. فلسطين. فينيقيا. مصر. العراق. إضافة إلى الهضبة الإيرانية. فى ذلك الوقت كانت شبه جزيرة إيطاليا لاتزال فى طور المقاطعات ودويلات المدن. وكانت هناك ٣ شعوب تسكنها (شكل ١):

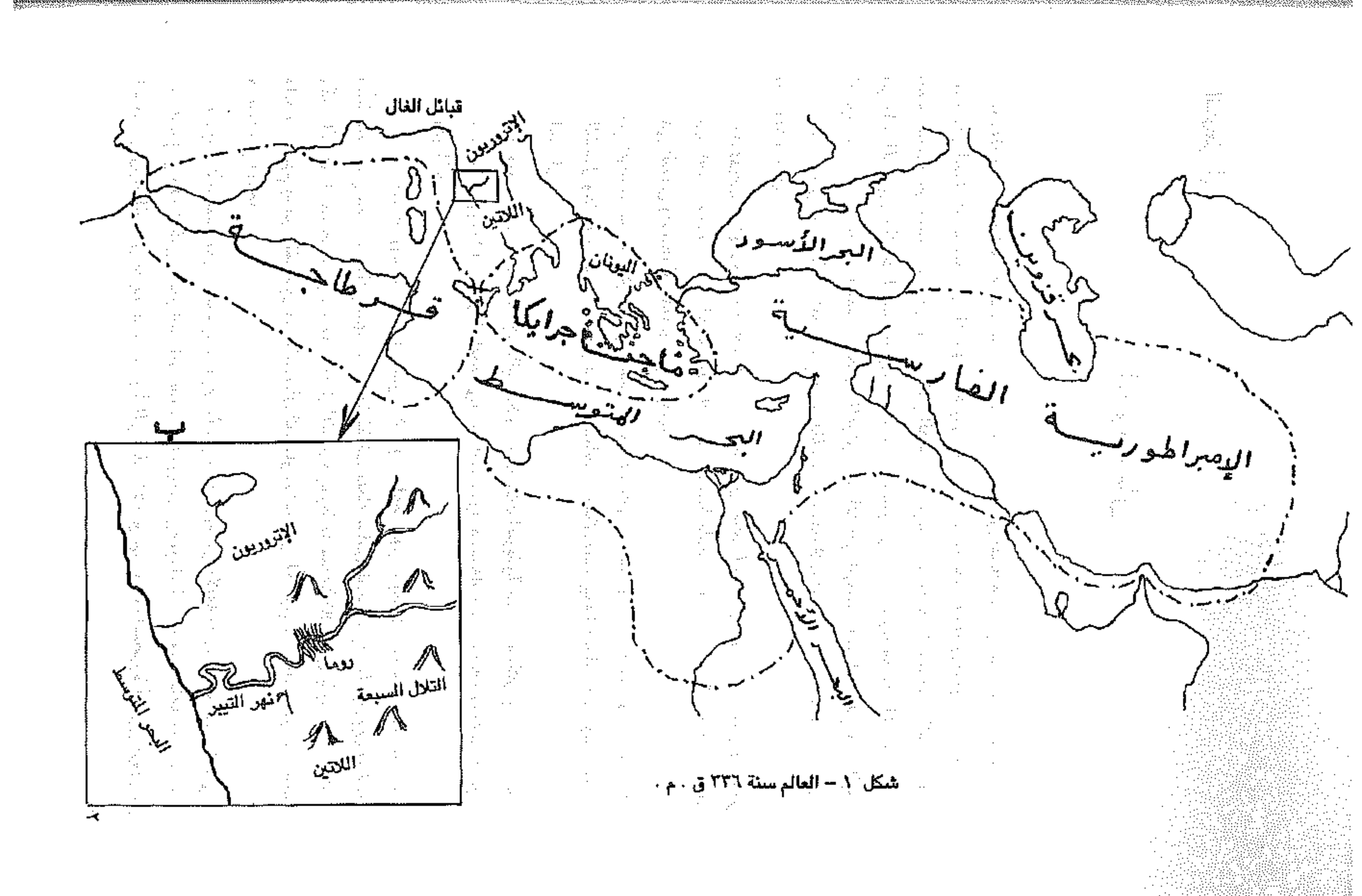
١ – **الإترورييون أو الإترسك** The Etruscans : يسكنون الثلث الشمالى من شبه الجزيرة حتى نهر التيبر مكوِّنين ١٢ مقاطعة ودويلات مدن ترتبط باتحاد فيما بينها. وكانوا هم الأسبق فى التمدُّن واستعمال المعادن فى حياتهم.

٢ – فى الوسط كان يسكن **اللاتين** الذين كانوا لايزالون شعبا زراعيا متأخرا نسبيا عن الشمال وكانوا أيضا ينتظمون فى ١٢ مقاطعة تشكل فيما بينها اتحادا مثل جيرانهم فى الشمال.

٣ – أما جنوب شبه الجزيرة الإيطالية فكان به **دويلات إغريقية** ضمن ماكان يسمى «ماجنا جرايكا» أى «بلاد الإغريق العظمى». وكانت جزيرة صقلية مقسمة بين بلاد الإغريق وقرطاجة.

نعود إلى شمال ووسط إيطاليا اللذين كان يفصلهما نهر التيبر (ب شكل ١) وكانت هناك «مخاضة» أى مياه ضحلة يسهل عبورها فكانت نقطة تبادل التجارة بين الإترورييين واللاتين. وكان السهل المنبسط الذى يتم فيه تبادل التجارة يحيط به سبعة تلال كان يقيم فيها اللاتين. وانضم إليهم بعض القادمين من الشمال للتجارة واستقر الجميع بها واندمجوا فى مدينة واحدة هى «روما».

وتربط الأساطير بين إنشاء روما وبين الأمير «إنياس» ابن الإلهة «إفروديت» الذى انتهى به المطاف إلى هذا المكان وقام ابنه (أو حفيده) «روموس» ببناء المدينة وسماها «روما» على اسمه. ويرجع البعض تاريخ تأسيسها إلى عام ٧٥٣ ق.م. وهناك أسطورة أخرى تروى عن



شكل ١ – العالم سنة ٣٣٦ ق . م .

الأخوين «روموليوس» و«ريموس» اللذين أبعدهما عمهما عن المدينة للاستئثار بالحكم دونهما وقذف بهما إلى الغابات بغية إهلاكهما ولكن ذئبة آوتهما وأرضعتهما حتى كبرا وعادا إلى المدينة وتمكن روموليوس من استعادة الحكم فسميت «روما» على اسمه وإن كان المؤرخون العصريون لا يعتقدون فى صحة هذه القصة الفولكلورية بالرغم من أن بعض الأثريين يدعون العثور على قبور كثيرة فى هذه المنطقة ويزعمون أن أحدها هو قبر روموليوس بالرغم من أن الكتابة التى عليه لم يستطع أحد حل رموزها إلى الآن.

ثم تعرض الإتروريون فى شمال إيطاليا لهجمات قبائل الغال القادمة من فرنسا وقتلت جنودهم وخربت ديارهم فانتهزتها روما فرصة ووسعت حدودها الشمالية على حساب الدويلات الإترورية وعقدت معاهدة مع المدن اللاتينية الأخرى فكانت هذه أول خطوة خطتها روما للتوسع شمالا وجنوبا. وكان لكل المدن والمقاطعات حقوق متساوية بيد أن روما كان لها الزعامة لموقعها المتميز على نهر التيبر ولما بذلته من جهد فى مقاومة قبائل الغال وقبائل الإتروريين الرافضة لهذا الاتحاد وكانوا دائمي الإغارة على روما. وكذلك أيضا حاولت بعض المدن اللاتينية التمرد على روما واستنجدت بقرطاجة ولكن روما سرعان ما استعملت دهاءها السياسى وعقدت معاهدة مع قرطاجة تعهدت فيها قرطاجة بعدم مساعدة المدن اللاتينية إذا ثارت على روما. وفى النهاية اندمج اللاتين فى دولة واحدة عاصمتها روما. ثم مدت روما نفوذها جنوبا فاستولت على المدن الإغريقية وأعطت الجميع حقوق المواطنة الرومانية. وبعد حروب عدة بين روما وقرطاجة استولت روما على جزيرة صقلية ثم ضمت إليها جزيرتى سردينيا وكورسيكا والشاطئ المقابل من أسبانيا. وكان هانيبال قائد جيوش قرطاجة قد استولى على أجزاء من إيطاليا نفسها. ولكن روما طردت القرطاجيين وحررت أراضيها بالكامل ثم مدت سلطانها إلى شبه جزيرة البلقان وثلاثة أرباع أسبانيا.

نظام الحكم :

لا بأس من أن نأخذ هنا وقفة قصيرة نذكر فيها باختصار نظام الحكم فى روما إذ أنها منذ نشأتها الأولى كانت ذات صبغة ديمقراطية بعكس ماكان سائدا فى دول الشرق الأدنى القديم: مصر وسوريا والعراق. التى كانت نظم الحكم فيها ملكية دكتاتورية. فالملك هو الحاكم الأعلى وله الكلمة العليا فى كل شئون البلاد المدنية والعسكرية. والملك وراثى إلاَّ فيما ندر حينما يحدث انقلاب (يؤيده العسكر أو رجال الدين) والشعب لا رأى له فى كثير أو قليل من أمر الحكم بل عليه أن يطيع ويدفع الضرائب المفروضة عليه.

أما فى إيطاليا فمنذ أن فرضت روما سيطرتها على كل شبه الجزيرة فقد وضعت دستورا للحكم بمقتضاه كان يتم اختيار الحاكم بقرار من الشعب وتقر الآلهة هذا الاختيار بإظهار فأل

ميمون يعرفه الكهنة. وأى خطأ فى تطبيق هاتين النقطتين يجعل اختيار الحاكم باطلا. فإذا تم اختيار الحاكم بالطريق الشرعى فله مدى الحياة السلطة العليا فى الأمور الدينية والمدنية. وفى الأمور الدينية يعاونه مجلس صغير من الكهنة ومجلس آخر من العرَّافين الخبيرين بتفسير الطوالع والتنبؤ بمشيئة الآلهة. أما فى الأمور المدنية فإن الحاكم - وإن كان له سلطة غير محدودة فى الفصل فى المنازعات وتوقيع العقوبات - ومن بينها عقوبة الموت - إلاَّ أن سلطته فى هذا المجال لم تكن استبدادية بل كان يعاونه مجلس الشيوخ Senatus وهو يتكون من ٦٠٠ من الرجال كبار السن وكانوا ممن شغلوا مناصب عامة ومن آباء الأسر والعائلات العريقة. ولم يكن باستطاعة الحاكم اتخاذ قرارات هامة دون الرجوع إلى مجلس الشيوخ. وبذلك قُيِّدت سلطة الحاكم وحيل دون أن تكون استبدادية. كذلك كان للحاكم سلطة مطلقة كقائد فى الحرب. ولكنه كان يستشير قواد الجيوش أو غيرهم من الضباط المشهور بحنكتهم وإن لم يكن ملزّما باتباع مشورة أى منهم إذ كان عليه أن يتخذ بنفسه القرار النهائى وتقع المسئولية كاملة عليه.

وفى عام ٥١٠ ق.م. بُدِئَ العمل بالنظام الجمهورى إذ لم يعد الحُكم يمنح مدى الحياة ولا لفرد واحد. وإنما أصبحت السلطة تمنح لحاكمين بدلاً من حاكم واحد ويسمى كل منهما «قنصلا» وتمنح لسنة واحدة يتخلى فى نهايتها الحاكمان عن السلطة ويعودان مواطنين عاديين وينتخب بدلهما قنصلان جديدان. وكان الشعب بأسره يشترك فى الانتخابات عن طريق جمعية تسمى الجمعية المئوية مرتبة فى طبقات حسب اختلاف الثروة. إلاَّ أن ضباط الجيش كانت لهم أصوات راجحة الكفة عند الاقتراع. وأصبحت الجمعية المئوية هى التى تصدر القوانين وتختار حكام الولايات وتعلن الحرب أو تبرم السلام. كذلك كان لكل من القنصلين حق الاعتراض على قرارات زميله. ومجلس الشيوخ «السناتو» يعاونهما بالرأى.

وكان آخر تتويج لهذا النظام الديمقراطى هو مجلس العامة. ذلك أن الأثرياء والأشراف المنتمون إلى العائلات العريقة اعتبروا أنفسهم مدافعين عن صغار الملاك والفلاحين والعمال الذين كانوا يدفعون الضرائب ويجنّدون فى الحرب. فطلبوا بأن يكون لهم حق انتخاب نواب يمثلون طبقتهم. وهكذا نشأ مجلس العامة أو مجلس العموم الذى ينتخب نوابا للدفاع عن مصالح الشعب.

السياسة الخارجية :

بعد أن أرسى الرومان أسس النظام الديمقراطى الذى يكفل حق المواطنة الحرة لجميع أفراد الشعب بدأت الأنظار تتطلع إلى توسيع رقعة البلاد فكان الصراع مع قرطاجة فى الجنوب والإغريق فى الشرق. وقد انتهت الحرب مع قرطاجة - وهى ما تُسمَّى بالحروب البونية - عام ٢٠١ ق.م. بهزيمة هانيبال قائد جيش قرطاجة وهربه إلى آسيا الصغرى ثم انتحاره

مفضّلا الموت على الوقوع أسيرا فى يد الرومان. ولم تكد روما تفرغ من سحق قرطاجة حتى بدأت غزو اليونان . وبعد ثلاثة حروب انهزم فيها فيليب الخامس ملك مقدونيا. ضُمّت مقدونيا إلى ما يمكن تسميته «الإمبراطورية الرومانية». وفى عام ١٤٦ ق.م. كانت كل بلاد الإغريق تحت السيطرة الرومانية (شكل ٢).

بعد ذلك تطلعت أنظار روما إلى آسيا الصغرى إذ هى مفتاح الشرق: العراق وسوريا ومصر. وانتهى الأمر بأن اشتبك الرومان مع أنطيوخس الثالث ملك المملكة السلوقية فى سوريا وانهزم أنطيوخس ولكن الرومان تركوه حاكما فى أملاكه. وفى عام ١٣٣ ق.م. توفى آخر الملوك السلوقيين فى آسيا الصغرى بعد أن أوصى أن تؤول مملكته إلى الرومان.

وفى عام ٧٢ ق.م. قامت ثورة فى ولايات آسيا الصغرى تمكن القائد پومپى من إخمادها ثم تقدم فى آسيا الصغرى – وكان الجزء الشمالى والوسط مكوّنا من ممالك مستقلة حلفاء لملكة سلوقيا فى حين كان الجزء الشرقى تابعا تبعية مباشرة لسلوقيا – واستطاع پومپى بأسطول من ٥٠٠ سفينة وجيش من ١٠٠,٠٠٠ مقاتل السيطرة على جميع الممالك الموالية لسلوقيا. ثم عرض پومپى على أنطيوخس الثالث الخروج سلميا من سوريا وآسيا الصغرى. إلا أن أنطيوخس الثالث رفض هذا العرض فما كان من پومپى إلا أن اشتبك معه فى معركة فاصلة دمّر فيها قوات سلوقيا تماما وبدأت روما تتقدم فى آسيا الصغرى ثم استولى الرومان على سوريا.

استيلاء الرومان على فلسطين :

ذكرنا سابقا (جـ ٥ ص ٤٧٢) كيف قام اليهود بثورتهم على الحكم السلوقى وهى المعروفة بالثورة المكابية. وأن يهوذا – ثانى قواد الثورة – استطاع أن يسيطر على مقاطعة يهوديا وضم كذلك أجزاء كبيرة من سماريا. كما ذكرنا أيضا (جـ ٥ ص ٤٩٣) النزاع بين الأخوين أرسطوبولس الثانى وهيركانوس الثانى على حكم المملكة اليهودية الوليدة فى فلسطين. وحينما وصل القائد الرومانى پومپى إلى دمشق عام ٦٣ ق.م. مثل أمامه الأخوان الخصمان وطلبا حلا للنزاع بينهما. وكان أرسطوبولس قد انحاز إلى العرب الأنباط أثناء مقاومتهم للغزو الرومانى. لذلك فإن پومپى بعد انتصاره على الأنباط عاد إلى أورشليم وحاصرها ٣ أشهر وفتح أعوان هيركانوس أبواب المدينة له فاستولى الرومان عليها وأعاد پومپى هيركانوس إلى منصب الكاهن الأعظم والذى كان يشغله قبل إزاحة أرسطوبولس له. ولكن فى الواقع لم تكن لهيركانوس أى سلطة سياسية إذ كانت فلسطين تابعة تبعية مباشرة لروما يحكمها والى سوريا ويعاونه ولاة أصغر فى المقاطات الإدارية (شكل ٣).

البحر الأسود

بونطس

إيطاليا

جلاطيا

بلاد الإغريق

كبادوكيا

الإمبراطورية الرومانية

سيليسيا

البحر المتوسط

شكل ٢ – الإمبراطورية الرومانية عام ١٤٥ ق.م.

شكل ٢ – فلسطين أثناء غزو پومپي عام ٥٥ ق.م.

الأسرة الهيرودية :

كان أنتيباتر من الأدوميين الذين تهوّدوا (جـ ٥ ص ٤٨٨) وكان سيدًا في قومه فعُيّن حاكما لمقاطعة إيدوميا أثناء حكم أواخر ملوك الأسرة المكابية: ألكساندر جاني ومن بعده سالومي ألكساندرا. وخلف أنتيباتر على حكم إيدوميا ابنه هيرودس أنتيباتر والذي تزوج من «ماري آمن» ابنة سالومي ألكساندرا وبدأ يتطلع إلى عرش اليهودية ذاتها. فبدأ يتقرب إلى الحكام الرومان الذين لمسوا ولاءه فمنحه قيصر روما الجنسية الرومانية وأعفاه من دفع الضرائب ونال مرتبة سياسية على حساب هيركانوس الذي اعتُبر رئيس الكهنة فقط (أطلس الكتاب المقدس. عدلي اسكندر - ص ٣٧٩). ولما قُتل هيركانوس عيّن الرومان هيرودس أنتيباتر حاكما على كل المناطق اليهودية: يهوديا وإيدوميا وسماريا والجليل وردّ إليه الشريط الساحلي وميناء دور وسهل يزرعيل (شكل ٤).

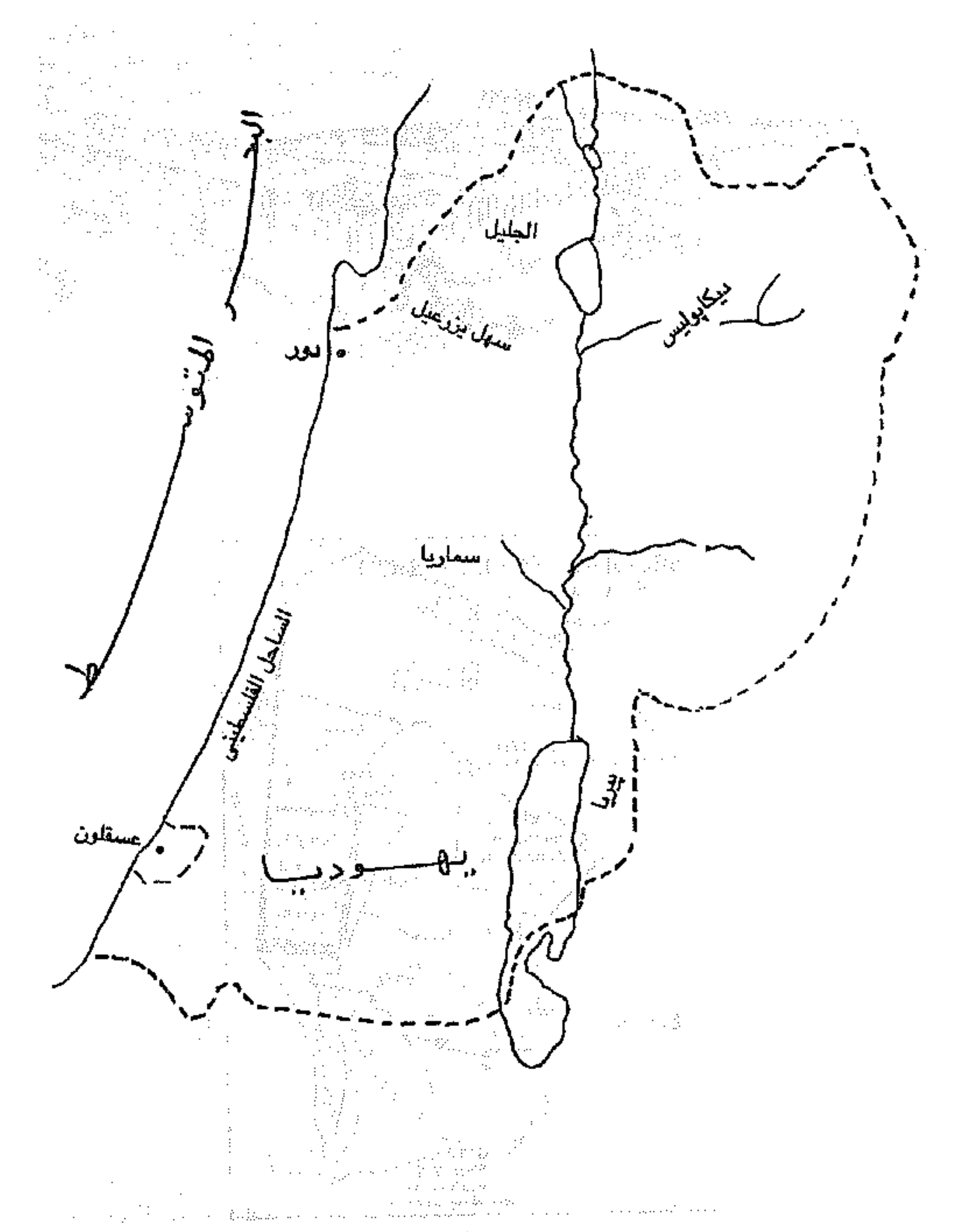
وكان هيردوس محبا للعمارة ولعًا بإقامة المباني الفخمة والتماثيل حتى ليمكن اعتباره أكثر حكام اليهود إقامة المباني. ولكنه كان قاسي القلب يكثر من تقتيل معارضيه. كما أن اليهود كانوا لا ينسون أنه ليس من بيت داود. وليس حتى يهوديا خالصا لأنه من الأدوميين المتهوّدين وأمه أدومية. ولكي يسترضي اليهود فإنه شرع في تجديد وتوسعة المعبد الذي بناه سليمان عليه السلام وظن أنه بذلك يضفي على نفسه قداسة قد تُفضي به إلى أن يكون هو نفسه المسيا أو المخلِّص الذي ينتظره اليهود.

معبد هيرودس :

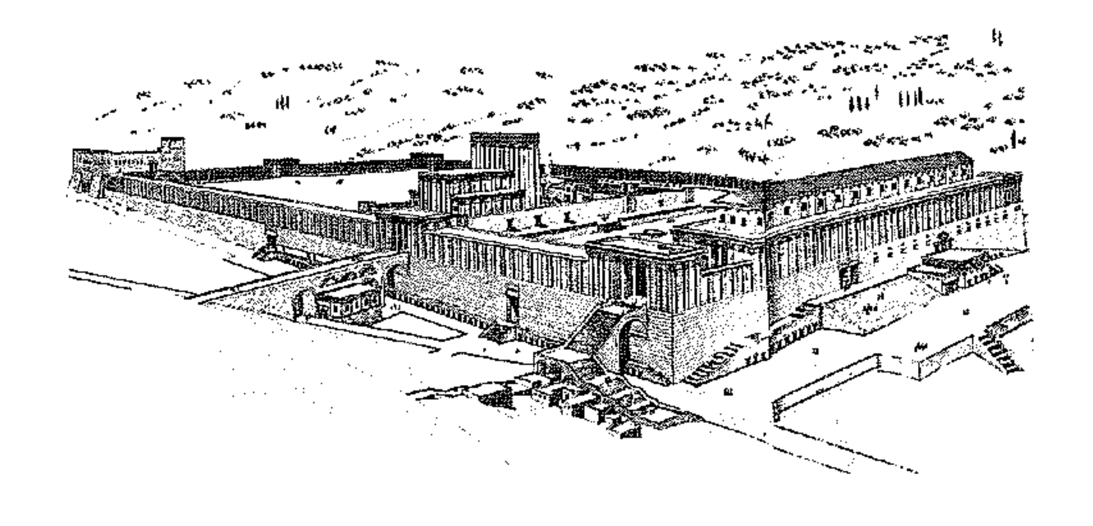
أصبح معبد سليمان في أورشليم بعد أن أعاد هيرودس بناءه يعرف باسم «معبد هيرودس» (شكل ٥) وكان طوله ١٠٠ ذراعا وارتفاعه ٢٠ ذراعا. وكان مبنيا من الحجر الأبيض. وقد تم بناؤه في عام ونصف وتم الافتتاح وسط احتفال كبير قُدِّمت فيه الأضحيات والقرابين . أما الزخارف الداخلية فقد استغرقت وقتا طويلاً جدا امتد إلى ٤٦ سنة استنادا إلى ما جاء في الإنجيل (يوحنا ٢ : ١٨): «إذ قال له اليهود. أية آية ترينا حتى تفعل هذا؟ أجاب يسوع وقال لهم: انقضوا هذا الهيكل وفي ثلاثة أيام أقيمه. فقال اليهود في ستة وأربعين سنة بُني هذا الهيكل أفأنت في ثلاثة أيام تقيمه؟ وأما هو فكان يقول عن هيكل جسده. فلما قام من الأموات تذكر تلاميذه أنه قال هكذا فآمنوا بالكتاب والكلام الذي قاله يسوع». وقد دُمِّر المعبد الذي بناه هيرودس في عام ٧٠م عندما قام تيتوس بإخماد ثورة اليهود الكبرى في فلسطين كما سيجئ ذكره فيما بعد.

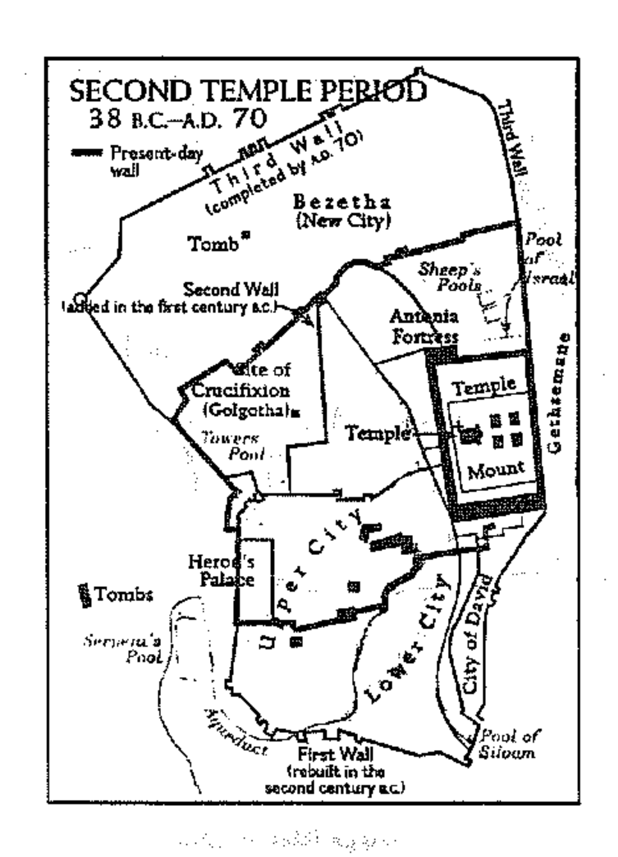
سياسة الرومان تجاه اليهود في فلسطين :

لقد نجح الرومان في صهر الكثير من الشعوب التي ضمُّوها إلى إمبراطوريتهم ولكن شعبا



شكل ٤– مملكة هيرودس .





شكل ٥ – معبد هيرودس في أورشليم

واحدا استعصى أمره على الرومان ورفض الاندماج فى العالمية الرومانية ألا وهم اليهود. فاليهود موحِّدون بالله وفى نظرهم الدولة خادم للعقيدة. أما نظرة الرومان فقد كانت بعكس ذلك تماما وهو أن الدين يعمل فى خدمة جهاز الدولة الكبير ويعمل على تثبيت دعائم الحكم. وكان يوليوس قيصر قد تمكن من إيجاد نوع من التوازن بين النظريتين عن طريق إصدار مجموعة من القرارات والتشريعات التى تعترف بوضع اليهود كقومية ذات كيان مُعيَّن بين شعوب الإمبراطورية وتعفيهم من بعض الإلتزامات التى تعارض عقيدتهم. وقد استمرت هذه السياسة فى عهد الإمبراطور أغسطس الذى اعتمد على سيطرة صديقه هيرودس على الشعب اليهودى والذى نجح فى جعل اليهود يلتزمون بالسلام الرومانى.

ولما حاول الامبراطور جايوس أن يفرض عبادته بالقوة على اليهود وأن ينصب تمثالا لعبادته داخل المعبد الكبير فى أورشليم ثار الشعب اليهودى الذى أحسَّ بالخطر يتهدد ديانته. ومما زاد الأمر سوءا هو تفجر الصراعات الطائفية بين اليهود أنفسهم: بين الحزب الموالى للرومان والحزب المعارض للسيطرة الأجنبية. كذلك تفجر الصراع بين اليهود والفلسطينيين. وفى عام ٦٦م اندلعت الثورات فى مدن فلسطين وحدثت أعمال شغب فى مدينة قيصرية مقر المندوب الرومانى. وحدث شغب فى أورشليم حينما صادر الحاكم الرومانى نقودا من خزائن المعبد الكبير مقابل متأخرات الضرائب المفروضة على اليهود . ولم يعبأ الرومان فى بادئ الأمر بأعمال الشغب التى قام بها اليود احتجاجا على هذه الإجراءات مثل رفض تقديم الأضاحى فى هيكل سليمان من أجل سلامة الإمبراطور. ثم تحول هذا الرفض إلى ثورة ضد الرومان يقودها الكهنة. وفى فبراير ٦٧م أرسل نيرون أحد كبار قادة جيشه وهو الجنرال فسباسيانوس الذى وصل إلى فلسطين وبفضل خططه الذكية بدأ فى تطهير جيوب المتمردين واحدا بعد الآخر حتى كاد أن يطهِّرها تماما. وبدأ فى حصار أورشليم. ولكن وصلته أنباء عن قيام ثورة فى روما وأن نيرون انتحر وأن نظام الحكم فى روما غير مستقر إذ تولى الحكم بعد نيرون «جاليا» لمدة ٩ أشهر ثم الإمبراطور «أوتو» لمدة ٣ أشهر ثم ڤيتلليوس لمدة ٨ أشهر. وأخيرا اختار الجيش فى الشرق الجنرال فسباسيانوس ليتولى عرش الإمبراطورية الرومانية فترك ابنه تيتوس ليستمر فى قيادة الحرب ضد الثوار اليهود وعاد هو إلى روما وتغلب على خصومه وتولى الحكم.

قلنا إن ثورة اليهود اندلعت فى عام ٦٦م. وسرعان ما عمَّت كل فلسطين وطردت الحامية الرومانية من أورشليم. وكان الفلسطينيون يساعدون الرومان . وزاد الأمر سوءا إعلان الرومان أن اليهود لا يتمتعون بحقوق المواطنة فى مدينة قيصرية عاصمة الإقليم فعمَّت الثورة. وراح الفلسطينيون يفتكون باليهود فى كل مكان. وردَّ اليهود وبدأوا فى قتل الفلسطينيين. وأرسل الرومان فرقة لإخماد الثورة كما سبق أن ذكرنا . وفى عام ٧٠م تولى تيتوس مهمة إخماد

الثورة فقام بتصفية جيوب التمرد فى أنحاء اليهودية واستمر فى حصار أورشليم الذى بدأه والده. وكان للمدينة ثلاثة أسوار كل منها له قلاعه وأبراجه. وأدى طول الحصار إلى انتشار المجاعة والمرض. وأخيرا تمكن تيتوس من تدمير الأسوار واقتحم المدينة وهجم على الهيكل ودمَّره وأحرقه ثم استولى على قلعة جبل صهيون بعد قتال عنيف. ودُمِّرت أورشليم تماما ودُمِّر المعبد وسُوِّى بالأرض. وأصبحت اليهودية ولاية رومانية . وأمر تيتوس بحل التنظيمات السياسية والدينية اليهودية. وفرض على اليهود ضريبة الرأس السنوية ومقدارها ديناران رومانيين تدفع لحساب معبد جوبيتر الكابيتولى رب الرومان إمعانا فى إذلال اليهود. وغادر كثير من اليهود أورشليم بل وغادروا فلسطين كلها. وأصبح رئيس المجمع الدينى المعروف باسم «السنهدريم» مسئولا عن الجالية اليهودية المتبقية فى فلسطين. وحرَّم الرومان على اليهود الاقتراب من أورشليم أو من أطلال المعبد. ولكن بعض اليهود كانوا يتسللون من آن لآخر للبكاء على قدس الأقداس. وبقيت أورشليم أطلالا حتى قرر هادريانوس بناء مدينة رومانية مكانها يتوسطها معبد كبير للإله جوبيتر الرومانى يدفع له اليهود الجزية السنوية. وقد أثار هذا التصرف غضب اليهود مرة ثانية فقاموا بثورة ضد الرومان ودمَّروا ماكان قد بنى من معبد جوبيتر ولكن الرومان أخمدوا الثورة بقسوة بالغة وكانت هذه هى الضربة القاضية التى وضعت نهاية مأساوية للتجمع اليهودى فى فلسطين وإن ظلوا كأقلية مبعثرة فى مدنها.

وكان من نتيجة هذه الثورات وقيام الرومان بقمعها . تدمير معبد أورشليم الذى بناه هيرودس تدميرا تاما فلم يُبْنَ إلى يومنا هذا. ويحاول يهود إسرائيل في عصرنا الحالى إعادة بناء المعبد ويسمُّونه المعبد الثالث (معبد سليمان هو الأول ومعبد هيرودس الثانى) ويحاولون تدمير المسجد الأقصى مدَّعين أنه بنى على أنقاض معبد أورشليم.

لما أحسَّ هيرودس بقرب أجله رغب فى مشاركة أبنائه الثلاثة معه فى الحكم فعيَّن (شكل ٦):

١ – هيرود فيلبس حاكما على باشان .

٢ – هيرود أنتيباس حاكما على منطقة الجليل .

٣ – هيرود أرخيلاوس حاكما على شرق الأردن وبيريا والعشر مدن .

وظل هو محتفظا بحكم اليهودية وسماريا. إلاَّ أن أرخيلاوس بعد وفاة والده – هيرودس الكبير – نصَّب نفسه ملكا على كل الأراضى اليهودية. وكان أرخيلاوس مكروها من اليهود. فأبحر ٥٠ من رجالات إسرائيل إلى روما وقدموا معارضتهم فى أن يرث أرخيلاوس ملك اليهودية واقترحوا بأن يكتفى بتعيينه كاهنا أكبر لليهود بينما تكون النواحى الإدارية والسياسية تابعة تبعية مباشرة لروما. فاستجاب القيصر ولم يعين أرخيلاوس واليا على كل

البحر المتوسط
هيرود فيلبس
هيرود أنتيباس
قيصرية
هيرود أرخيلاوس
بيريا
هيرودس الكبير
أشدود
عسقلون
غزة
بئر سبع
العرب الأنباط
1. 2. 3. 4. 5 6 7. 8 9 10

شكل ٦ – تقسيم مملكة هيرودس الكبير .

المناطق اليـهـودية لكن عـيَّنه حـاكـمـا من قِبَل رومـا على نصف الأراضى اليـهـودية: يهـوديا والسـامـرة وإيدوميـا وتحت شـرط أنه إذا رضى عنه اليـهـود عيَّنه ملكا على كل اليـهـود. ولكن أرخيلاوس بدأ يتصرَّف كأنه ملك مما أثار غضب الشعب وقامت ضده ثورات قمعها بقسوة بالغة. وفي عيد الفصح اليهودى قام بقتل ٣٠٠٠ من مـعـارضيه. وإزاء هذه الممارسات التى بعثت عدم الاستقرار فى البلاد قام القيصر بعزله ونفيه إلى بلاد الغال (فرنسا) ويقى هناك إلى أن توفى.

قلنا إن هيرود فيلبس كان حاكما على باشان ومتزوجا من هيروديا الجميلة. أما هيرود أنتيباس فكان حاكما على الجليل وبيريا فى شرق الأردن. وقد أقر القيصر حكم هذين الأخوين كل فى منطقته بينما ظلت باقى الأراضى اليهودية تابعة تبعية مباشرة للحاكم الرومانى . وقد تزوج أنتيباس من ابنة أريتاس (الحارث) ملك العرب الأنباط. ثم فى زيارة له لأخيه فيلبس شغف بزوجته هيروديا ورغب فى الزواج بها مما جرَّ عليه غضب يحيى المعمدان كما سيجئ فيما بعد.

وبعد وفاة أبناء هيرودس تحولت كل الأراضى اليهودية إلى إدارة رومانية يديرها والى رومانى جعل مقره مدينة قيصرية يعاونه الكهنة والأرستقراطيون اليهود. وقد اتبع الحكم الرومانى الدبلوماسية الحذرة مع اليهود لإدراك القياصرة حساسية الديانة اليهودية فحرصوا على أن لا يتدخَّلوا فى أمورها. فكل ماكان يهم الرومان هو الخضوع السياسى والاقتصادى دون التدخل فى العقائد الدينية الخاصة برعاياهم. وحتى عندما ظهر المسيح نظر إليه الرومان على أنه منشق على الديانة اليـهـودية ولم يلقـوا إليه بالا. إلا أنه عندمـا دخل أورشليم فى مظاهرة كبيرة من أتباعه الذين كانوا ينظرون إليه على أنه «ملك اليهود» أحسَّ الرومان ببعض القلق. وأثار التفاف الشعب حول المسيح غيرة الكهنة اليهود فحرَّضوا عليه السلطات الرومانية التى استجابت وقبضت عليه كما سيجئ فيما بعد (ص ١٠٠).

الفصل الثانى

زكريا ويحيى عليهما السلام
ومريم رضى الله عنها

تبين شجرة النسب التالية الأجداد من وقت داود وسليمان عليهما السلام. ومنها تتبين القرابة بين زكريا ويحيى والمسيح عليهم السلام. وفى حديث المعراج يقول النبى صلى الله عليه وسلَّم: «فإذا أنا بابنى الخالة يحيى وعيسى..»

داود
سليمان
رحبعام
إيان
إيشا
بهنا شافاط

يازم	شلوم
أحريهو	↓
ياوش	ناحور
أمصيا	↓
عزازيا	بالعاطة
مدثم	يرخيا
حريق	↓
حزقيا	صديقة
نبا	↓
أيوب	مسلم
باسم	↓
عمران	↓
مريم	زكريا (تزوج أخت مريم)
عيسى	يحيى

الإسم «زكريا» :

هو فى العبرانية «زخريا». والخاء فى العبرية تنقلب إلى كاف إذا وقعت بعد متحرك أو معتل فأصبح الاسم «زكريا» Zacharia. وهو مكون من مقطعين: الجذر العبرى «زكر» المكافىء فى معناه للجذر العربى «ذكر» أما «يا» فهى اختصار «يهوا» اسم الله عز وجل فى العبرية وعلى هذا يكون معنى «زكريا» هو «ذكر الله» بمعنى الذى يذكره الله أو ذاكر الله أى الذى يذكر الله (الأستاذ رؤوف أبو سعدة. من إعجاز القرآن. جـ ٢. ص ٢٢٩). وقد جاء المعنيان فى أول سورة مريم: **«كهيعص. ذكر رحمة ربك عبده زكريا. إذ نادى ربه نداء خفيا»** فهو ذكر الله رحمة ربك. الذى ذكر الله. إذ ناداه نداء خفيا.

وقد ورد اسم زكريا فى القرآن الكريم ٧ مرات.

٣ مرات فى سورة آل عمران فى الآيتين ٣٧ ، ٣٨.

وفى الآية ٨٥ من سورة الأنعام.

وفى الآية ٢ من سورة مريم وكذلك فى الآية ٧.

وفى الآية ٨٩ من سورة الأنبياء.

وكان زكريا ممن يخدمون فى الهيكل فى أورشليم وكان قد بلغ من الكبر عتيًا وامرأته عاقر لا تلد فيئس من أن يكون له ولد. وكان معاصرا لعمران. أحد شيوخ بنى إسرائيل ووالد مريم والدة المسيح عليه السلام.

عمران :

لا تذكر الأناجيل اسم أبى مريم. والمشهور أنه مات قبل مولدها. فلم يشهد ولادتها ولم يُسمِّها بل سمَّتها والدتها كما جاء فى القرآن الكريم **«وإنى سميتها مريم»**. «بالطبع هو غير عمران والد موسى وهارون إذ أن بينها ما يزيد عن ثلاثة عشر قرنا من الزمان.

وكانت امرأة عمران قد رزقت بنتا ولكنها رغبت فى ابن. فنذرت لئن رزقت ذكرا لتجعلنه فى خدمة الهيكل.

«إذ قالت امرأة عمران. رب إنى نذرت لك ما فى بطنى محرَّرا فتقبَّل منى إنك أنت السميع العليم». (٣٥ – آل عمران).

وحرَّر الولد أى أفرده لطاعة الله وخدمته (المعجم الوسيط جـ ١ ص ١٦٥) ولم يكن يحرَّر فى ذلك الزمان إلا الغلمان. فلما وضعت وجاء المولود أنثى توجَّهت إلى الله معتذرة بأن المولود جاء أنثى:

«قالت رب إني وضعتها أنثى – والله أعلم بما وضعت – وليس الذكر كالأنثى وإنى سميتها مريم وإنى أعيذها بك وذريتها من الشيطان الرجيم. فتقبلها ربها بقبول حسن وأنبتها نباتا حسنا وكفلها زكريا». (٣٧ – آل عمران).

ومريم اسم أرامى أصله مارى + أما. المقطع الأول «مارى» فى الأرامية معناه «الرب» ومختصره «مار» بمعنى سيد القوم أو السيد ومنها جاء مارجرجس ومار مرقس أى السيد جرجس والسيد مرقس. والمقطع الثانى «أما» هو «أمة» فى العربية وعليه يكون اسم «مريم» مارى + أما أى «أمة الرب» بعد أن قُدم اسم المضاف إليه على المضاف (رؤوف أبو سعدة. من إعجاز القرآن . جـ ٢. ص ٢٥١) وجاء فى الإنجيل (لوقا ١ : ٣٨) وقالت مريم. هو ذا أنا أمة الرب. ليكن لى كقولك. فمضى من عندها الملاك».

«فتقبلها ربها بقبول حسن» أى رضى بمريم فى النذر مكان الذكر ولم يُقبل قبلها أنثى لخدمة الهيكل. «وأنبتها نباتا حسنا» أى ربَّاها الرب تربية حسنة. تكثر من العبادة حتى فى صغرها. حتى بلغت السن التى يمكنها فيه الخدمة فى بيت الرب. ولما كان الواجب أن تكون الأنثى فى حماية رجل يكفلها. كانت مشيئة الله أن يكفلها زكريا. وهيأ لذلك بأن أمها حين أخذتها إلى بيت الرب اختلف القائمون على خدمة البيت كل يريد أن تكون فى رعايته. فقرروا أن يقترعوا ليتحدد من يكفلها.

«ذلك من أنباء الغيب نوحيه إليك وما كنت لديهم إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم. وماكنت لديهم إذ يختصمون». (٤٤ – آل عمران)

والأقلام جمع قلم وهو ما يكتب به. ولكنها هنا تعنى عِصىّ. يكتب كل واحد منهم اسمه على عصاه ثم يُطلب من طفل صغير أن يختار إحدى العصىّ. وخرجت القرعة على عصا زكريا ليكفلها. وهو زوج أختها لكون يحيى وعيسى عليهما السلام أبناء خالة كما جاء فى حديث المعراج من قوله صلى الله عليه وسلم: فإذا أنا بابنى الخالة عيسى ابن مريم ويحيى ابن زكريا.

وتفانت مريم فى عبادة الله. وكثيرا ما كانت تعتكف فى المحراب تصلى وتتعبَّد. وفى مرات عديدة كان زكريا إذا دخل عليها المحراب وجد عندها طعاما مع أنه لم يكن يراها تخرج من المحراب لإحضاره فتعجب.

«كلما دخل عليها زكريا المحراب وجد عندها رزقا. قال يا مريم أنى لك هذا؟ قالت هو من عند الله إن الله يرزق من يشاء بغير حساب». (٣٧ – آل عمران).

ولما لمس زكريا كرم الله مع مريم طمع فى أن يناله هو أيضا مثل هذا الكرم ولكن بأن يكون له ولد.

«هنالك دعا زكريا ربه. رب هب لى من لدنك ذرية طيبة. إنك سميع الدعاء. فنادته الملائكة وهو قائم يصلى في المحراب أن الله يبشرك بيحيى مُصدِّقا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين». (٣٨ – ٣٩ آل عمران).

وقالوا إن الله اختار له اسم «يحيى» إذ علم أنه سيموت شهيدا. والشهداء أحياء عند ربهم يرزقون. واسمه عند أهل الكتاب «يوحنا المعمدان» لأنه كان يعمِّد الناس. «مصدِّقا بكلمة من الله» والمراد بكلمة الله عيسى عليه السلام. والحصور الذى لا يأتى النساء. ولكن يحيى كان حصورا ليس عن عجز بل حصراً لنفسه أى منعا لها من الشهوات. وهذا مكروه في شريعة الإسلام. قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: لعن الله تعالى والملائكة رجلا تحصَّر بعد يحيى بن زكريا.

«قال رب أنى يكون لى غلام وقد بلغنى الكبر وامرأتى عاقر. قال كذلك الله يفعل ما يشاء» (٤٠ – آل عمران).

فى هذه الاية ذكر زكريا كبر نفسه أولا ثم عقم امرأته كسببين يحولان بينه وبين أن يكون له ولد. وإن كان كبر السن سببا غير مؤكد. فالرجال قادرون على الإنجاب مهما تقدمت بهم السن. وكم من مُعمَّر أنجب وهو فوق المائة بعشرات السنين. وقد ذكر نفس المعنى فى سورة مريم ولكن بتقديم العقبة المؤكدة التى تحول دون أن يرزق بالولد وهو عقم الزوجة وأضيف سبب آخر وهو كبر السن حتى لا يُلقى اللوم كله على الزوجة: **«قال رب أنى يكون لى غلام وكانت امرأتى عاقرا وقد بلغت من الكبر عتيًّا».** (٨ – مريم).

وما قبل هذه الايات يوضح سبب طلبه الولد:

«ذكر رحمة ربك عبده زكريا. إذ نادى ربه نداء خفيا. قال رب إنى وهن العظم منى واشتعل الرأس شيبا ولم أكن بدعائك رب شقيا. وإنى خفت الموالى من ورائى وكانت امرأتى عاقرا فهب لى من لدنك وليا. يرثنى ويرث من آل يعقوب واجعله رب رضيا. يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سميًّا». (٢ – ٧ مريما).

«إذ نادى ربه نداء خفيا» أى دعاء مستورا عن الناس وغالبا ما يكون ذلك فى جوف الليل وفيه كناية عن الإخلاص فى الدعاء. «قال رب إنى وهن العظم منى». والعظم عماد البدن ودعام الجسد فإذا أصابه الضعف والوهن كان ما عداه أضعف. «واشتعل الرأس شيبا» هنا شُبِّه ابيضاضُ الشعر الذى يصاحب كبر السن بنار اشتعلت فى الرأس. «ولم أكن بدعائك رب شقيا».أى لم يكن خائبا فى دعائه فى سابق الأوقات وأنه كلما دعا الله استجاب له. فهو يتوسل بسابق الاستجابة ليستجاب هذا الدعاء أيضا وخاصة لما قدمه من تمهيد يستدعى الرحمة: كبر السن وضعف الحال.

«وإني خفت الموالي من ورائي» والمراد من يرثه من حواشيه لأنه لا ولد له. فخاف عليه السلام أن لايُحسنوا خلافته في أمّته وأن لا يكونوا على نهجه في السير في الطريق الصحيح. فسأل الله أن يهب له ولداً هو أقدر على تربيته بحيث يشب مثله ويرث التقوى والصلاح ويرث النبوة التي آلت إليه من ذرية يعقوب عليه السلام فيكون مرضيًا عنه من الله سبحانه وتعالى ومرضيا عنه من العباد «واجعله رب رضياً».

واستجاب الله لدعاء زكريا **«فنادته الملائكة وهو قائم يصلي في المحراب أن الله يُبشرك بيحيى مُصدقًا بكلمة من الله وسيدا وحصورا ونبيا من الصالحين»** (٣٩ – آل عمران). ولزيادة التاكيد على هذه البشارة ذُكرت في سورة مريم منسوبة إلى الله سبحانه وتعالى: **«يا زكريا إنا نبشرك بغلام اسمه يحيى لم نجعل له من قبل سمياً. قال رب أنى يكون لي غلام وكانت امرأتي عاقرا وقد بلغت من الكبر عتياً»** (٧ – ٨ مريم).

تعجب زكريا من أن يكون له ولد وهو في هذه السن المتقدمة وامرأته عاقر. فردَّ الله سبحانه وتعالى مؤكدا قدرته المطلقة:

«قال كذلك الله يفعل مايشاء» (٤٠ – آل عمران).

«قال كذلك قال ربك هو عليَّ هيّن وقد خلقتك من قبل ولم تك شيئا» (٩ – مريم).

عن زكريا يقول أهل الكتاب (لوقا ١ : ٥): كان في أيام هيرودس ملك اليهودية كاهن اسمه زكريا وامرأته اسمها اليصابات (إليزابث Elizabeth). وكان كلاهما بارّين أمام الله سالكين في جميع وصايا الرب وأحكامه بلا لوم ولم يكن لهما ولد إذ كانت اليصابات عاقرا وكان كلاهما متقدمين في أيامها. فبينما هو يكهن في نوبة فرقته أمام الله حسب عادة الكهنوت أصابته القرعة بأن يدخل إلى هيكل الرب ويبخر. وكان كل جمهور الشعب يُصلُّون خارجا وقت البخور. فظهر له ملاك الرب واقفا عن يمين مذبح البخور. فلما رآه زكريا اضطرب ووقع عليه خوف. فقال له الملاك لا تخف يا زكريا لأن طلبتك قد سُمعت وامرأتك اليصابات ستلد لك ابنا وستُسميه يوحنا ويكون لك فرح وابتهاج وكثيرون سيفرحون بولادته لأنه يكون عظيما أمام الرب. وخمراً ومسكرا لا يشرب. ومن بطن أمه يمتلىء من روح القدس، ويردُّ كثيرين من بني إسرائيل إلى الرب إلههم. ويتقدم أمامه بروح إيليا وقُوّته ليرد قلوب الآباء إلى الأبناء والعصاة إلى فكر الأبرار لكي يهيئ للرب شعبا مستعدا».

يذكر القرآن الكريم أن زكريا طلب من ربه أن يعطيه علامة على تحقق الدعاء ومجيء الولد:

«قال رب اجعل لي آية. قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال سويا» (٩ – مريم).

« قال رب اجعل لي آية. قال آيتك ألا تكلم الناس ثلاث ليال إلا رمزا. واذكر ربك كثيرا وسبّح بالعشي والإبكار» (٤١ – آل عمران).

فكانت الآية أنه لن يستطيع أن يكلم الناس فى شئون الدنيا، إلا رمزاً أى الإشارة باليد والرأس ولكنه يستطيع الذكر والتسبيح والتهليل، بل وأمرَ أن يجتهد فى ذكر الله عشية وصباحا «بالعشى والإبكار» بل إنه أمر قومه أن يفعلوا مثله فيسبحوا الله صباحا ومساء «فخرج على قومه من المحراب فأوحى إليهم أن سبحوا بكرة وعشياً». (١١ – مريم).

وعن هذا يقول أهل الكتاب (لو ١ : ١٨): «وقال زكريا للملاك كيف أعلم هذا لأنى أنا شيخ وامرأتى متقدمة فى أيامها، فأجاب الملك وقال له أنا جبريل الواقف قدام الله وأرسلت لأكلمك وأبشرك بهذا، وها أنت تكون صامتا ولا تقدر أن تتكلم إلى اليوم الذى يكون فيه هذا لأنك لم تصدق كلامى الذى سيتم فى وقته. وكان الشعب منتظرين زكريا ومتعجِّبين من إبطائه فى الهيكل. فلما خرج لم يستطع أن يكلمهم ففهموا أنه قد رأى رؤيا فى الهيكل فكان يومىء إليهم. وبقى صامتا، ولما كملت أيام خدمته مضى إلى بيته. وبعد تلك الأيام حبلت اليصابات امرأته وأخفت نفسها خمسة أشهر قائلة: هكذا فعل بى الرب فى الأيام التى فيها نظر إلىّ لينزع عارى بين الناس» (أى عار العقم).

وُلِد يحيى، وكان أكبر من عيسى بستة أشهر ولكنه كان أول من صدَّق به فذلك وصفه «مصدِّقا بكلمة من الله» لأن عيسى كما وُصِفَ فى القرآن الكريم: **«إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه».** (١٧١ – النساء).

وقد أثنى الله على يحيى فى قوله تعالى:

«يا يحيى خذ الكتاب بقوة وآتيناه الحكم صبيا وحنانا من لدنا وزكاة، وكان تقيا، وبرا بوالديه ولم يكن جبارا عصيا وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا». (١٢ – ١٥ مريم).

ويقول المفسرون إن هذه الآية تذكر ٩ صفات ليحيى:

١ – فقد أمر أن يأخذ الكتاب – وهو التوراة – وهو لا يزال صبيا، وكان من يستطيع فهم التوراة هم الشيوخ فقط.

٢ – «وآتيناه الحكم صبيا» والحكم هو النبوة، والعادة أن النبوة تأتى عند سن يقارب الأربعين ولكن يحيى أوتى النبوة وهو لا يزال صبيا، وإن كان البعض يرون أنها الحكمة التى تصلح للحكم بين الناس، ويرى آخرون أن إيتاء النبوة – خرقا للعادة فى سن صغيرة كان معجزة من الله سبحانه وتعالى ليحيى عليه السلام.

٣ – «وحنانا من لدنا» أى فكان ذلك حنانا من الله عليه. وقيل أيضا أوتى حنانا مطبوعا فى خلقه وكل من رآه أحبه.

٤ – «وزكاة» أى كان كل عمله عملا صالحا زكيا.

٥ – «وكان تقيا» أى مراقبا لله ويخشاه فى كل أفعاله فلم يذنب قط، وهناك أحاديث شريفة فى

ذلك. منها قوله صلى الله عليه وسلم: ما من أحد يلقى الله يوم القيامة إلا أذنب. إلاّ يحيى بن زكريا.

٦ – «وبرا بوالديه». فكان يحيى بارا بهما مسارعا فى طاعتهما وراحتهما.

٧ – «ولم يكن جبارا» أى لم يكن متكبراً متعاليا عن قبول الحق ولا متطاولا على الخلق. والمراد كانت صفته التواضع ولين الجانب.

٨ – «عصيا» أى لم يكن عصيا. والعصىّ أبلغ من العاصى وهو المخالف لأمر ربه فلا يعصى أمر ربه ولا أمر والديه.

٩ – «وسلام عليه...». أى أمان من الله له فى المواقف الثلاثة التى يكون فيها المرء أضعف ما يكون ويستوحش أكثر من أى وقت آخر: يوم يولد ضعيفا لا حول له ولا قوة. ويوم يموت فينتقل إلى عالم لم يره قط ثم يوم يبعث فى الآخرة فى محشر عظيم. فخصّه الله بالسلام فى هذه المواقف الثلاثة. وجاء فى خبر رواه أحمد وغيره عن الحسن أن عيسى ويحيى عليها السلام التقيا – وهما ابنا الخالة – فقال يحيى لعيسى ادع الله تعالى لى فأنت خير منى. فقال له عيسى: بل ادع لى أنت فأنت خير منى. سلّم الله تعالى عليك وإنما سلّمت على نفسى (تفسير الألوسى جـ ١٦ ص ٧٤) مشيرا إلى قوله تعالى عن يحيى: «وسلام عليه يوم ولد ويوم يموت ويوم يبعث حيا» (١٥ – مريم). وقول عيسى عن نفسه «والسلام علىّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا» . (٣٣ – مريم).

الفصل الثالث

مريم ومولد المسيح عليه السلام

اصطفاء مريم :

«وإذ قالت الملائكة يامريم إن الله اصطفاك وطهّرك واصطفاك على نساء العالمين. يامريم اقنتى لربك واسجدى واركعى مع الراكعين» (٤٢ – آل عمران). هنا ذكرت ثلاثة أمور: الاصطفاء الأول ولم يميِّز ثم التطهير ثم الاصطفاء الثانى على نساء العالمين. وفى معنى الاصطفاء الأول أقوال كثيرة أحسنها هو تكريسها لخدمة الرب فى الهيكل بالرغم من أنها أنثى ولم يكن هذا الأمر لغيرها من الإناث. أما قولهم إن أمها لما وضعتها ما غذّتها طرفة عين بل ألقتها إلى زكريا وكان رزقها يأتيها من الجنة فذلك تزيُّد لا يستدعيه الموقف إذ أن سنة الله أن تكون الرضاعة عامين ثم طفولة لمدة ثلاث أو خمس سنوات حتى يشب الطفل عن الطوق ويستطيع المشى وقضاء حاجته بدون مساعدة وعلى ذلك تكون مريم عليها السلام قد أُخِذَت إلى الهيكل فى سن الخامسة أو السابعة وهناك اقتُرِع فيمن يكفلها فكفلها زكريا حسبما سبق ذكره (ص١٧). أما التطهير فهو التأكيد على طهارتها من المعصية وفى هذا نفى لمقالة اليهود عنها، واتهامهم لها بالفاحشة. ويتأكد المعنى فى قولة تعالى:

« والتى أحصنت فرجها » . (٩١ – الأنبياء).

ثم كان الاصطفاء الثانى بشيئ تميزت به على نساء العالمين وعلى جميع النساء فى جميع العصور وهو الحمل من دون رجل بل من الروح القدس **«فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين»** (٩١ – الأنبياء). **«وجعلنا ابن مريم وأمه آية»** (٥٠ – المؤمنون).

وفى الحديث الشريف عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: سيدة نساء أهل الجنة مريم بنت عمران ثم فاطمة ثم خديجة ثم آسيه امرأة فرعون. وحديث آخر أخرجه بن جرير أن فاطمة قالت: قال لى رسول الله صلى الله عليه وسلم: أنت سيدة نساء أهل الجنة إلا مريم البتول.

تبشير مريم بعيسى :

نشأت مريم نشأة طهر وعفاف تقيم فى المحراب الذى خُصِّص لها لتعبد الله فيه فلا يدخل عليها أحد إلا زكريا الذى كان يكفلها ونادرا ماكانت تخرج من المحراب فقد كان رزقها يأتيها من عند الله كما سبق أن ذكرنا (ص ١٧) فلما بلغت مبلغ النساء جاءها جبريل عليه السلام

في صورة رجل فأخذها الرعب وظنته يريد بها سوءاً فاستعاذت بالله منه:

«واذكر في الكتاب مريم إذ انتبذت من أهلها مكانا شرقيا. فاتخذت من دونهم حجابا. فأرسلنا إليها روحنا فتمثل لها بشرا سويا . قالت إني أعوذ بالرحمن منك إن كنت تقيا» (١٥ – ١٨ – مريم). أي إن كنت تتقي الله تعالى وتخشاه حتى لا تتعرض لسخطه.

«قال إنما أنا رسول ربك لأهب لك غلاما زكيا» (١٩ – مريم) قال الملك – مُطمئناً لها – أنه ما هو إلا رسول ربها الذى استعاذت به. وأنه جاء ليهب لها بأمر ربه «غلاما زكيا» أي زائدا في الخير والصلاح.

«قالت أنى يكون لى غلام ولم يمسسنى بشر ولم أك بغيا» (٢٠ – مريم). فنفت عن نفسها أن بشرا قد مسَّها في الحلال حيث أنها لم تتزوج. ولم تكن باغية لتتصل بالرجال بدون زواج.

«قال كذلك قال ربُّك هو علىَّ هين. ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا».

(٢١ – مريم).

أخبرها جبريل عليه السلام أن حملها دون أن يمسَّها بشر شيئ هيِّن على الله سبحانه وتعالى. وهذا نفس ما قيل لزكريا حينما تعجب من أن يكون له ولد في شيخوخته لأن إرادة الله تقول للشيئ كن فيكون «ولنجعله آية للناس» ثم بين لها تعليل هذا الأمر فبيَّن لها أن خلق الغلام بدون أب هو آية من الله للناس ودلالة على طلاقة قدرته التى لاتحدها الأسباب والمسببات ولا النواميس الثابتة التى وضعها للكون «ورحمة منا» إذ به يهتدى الناس إلى الطريق القويم فيحسنوا عبادتهم فتنالهم رحمة الله سبحانه وتعالى ويكون هو سببا لهذه الرحمة من الله. «وكان أمرا مقضيا» تقرير بأن هذا الأمر صار أمراً مقضيا من الله سبحانه وتعالى لا راد له ولا رجعة فيه ويجب التسليم به.

«قالت رب أنى يكون لى ولد ولم يمسسنى بشر. قال كذلك الله يخلق مايشاء إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون» . (٤٧ – آل عمران).

وهكذا شاءت إرادة الله أن يتم هذا الأمر. قيل إن جبريل عليه السلام نفخ في جيب درعها فوصل النفخ إلى جوفها فحملت. ونُسب النفخ إلى الله سبحانه وتعالى.

«والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا وجعلناها وابنها آية للعالمين» (٩١ – الانبياء).

مولد المسيح :

«فحملته فانتبذت به مكانا قصيا» . (٢٢ – مريم)

يقول المفسرون (الألوسي جـ ١٦. ص ٨٠) مكانا بعيدا من أهلها وراء الجبل. وقال آخرون

هربت حياء من قومها فاتخذت مكانا بعيدا حتى لا يراها أحد. وفى رأينا أن الله سبحانه وتعالى كان رفيقا بها فى هذا الموقف إذ هيأ لها الظروف التى تحتم عليها الانتقال إلى مكان آخر حتى لا تشعر بحرج موقفها عند من يعرفون أنها لاتزال عذراء. ذلك أن أغسطس قيصر روما أصدر أمراً بعمل إحصاء عام كأساس لتحصيل الضرائب ويلزم أن يكون كل مواطن فى مكان ولادته ليتم إحصاؤه فيه.

ويقول أهل الكتاب (لوقا ٢:١) وفى تلك الأيام صدر أمر أغسطس قيصر بأن يكتتب كل المسكونة. فذهب الجميع ليكتتبوا كل واحد إلى مدينته. فصعد يوسف النجار من الجليل من مدينة الناصرة إلى اليهودية إلى مدينة داود التى تدعى بيت لحم لكونه من بيت داود وعشيرته ليكتتب مع مريم امرأته المخطوبة وهى حبلى . وبينما هما هناك تمت أيامها لتلد فولدت ابنها البكر وقمّطته وأضجعته فى المذود إذ لم يكن لهما موضع فى المنزل.

والمسافة بين الناصرة وبيت لحم تبلغ ١٥٠ كم فهى مكان قصى فعلا كما وصفه القرآن الكريم «فانتبذت به مكانا قصيا».

يقول أهل الكتاب (متى ١٨:١): أما ولادة يسوع المسيح فكانت هكذا: لما كانت مريم مخطوبة ليوسف قبل أن يجتمعا وُجدت حبلى من الروح القدس. فيوسف رجلها إذ كان بارا ولم يشأ أن يُشهرها أراد تخليتها سرا. ويوسف المذكور اسمه رجل من بيت لحم هاجر إلى الناصرة ومارس فيها مهنة النجارة ولذلك لُقِّب «يوسف النجار» وفى الناصرة تعرف إلى أهل مريم وخطبها. ولما وجدها قد حبلت دون أن يقربها أو يتزوجها أراد فسخ الخطبة. ويقول جاميسون وفاوست (تفسير الكتاب المقدس جـ ٣ مت ١٨:١) إن إجراءات فسخ الخطبة كانت مثل الطلاق وكانت تستلزم إجراءات رسمية منها شاهدين أو ثلاثة والمثول أمام الكاهن أو القاضى مع ذكر سبب فسخ الخطبة. ولما كان يوسف النجار لا يرغب لمريم هذا التشهير فإنه رغب فى تسريحها فيما بينه وبين أهلها بإعطائها الورقة التى تفيد ذلك. ولا يرى أهل الكتاب فيما دار فى ذهن يوسف النجار من التخلى عن مريم دليلا عل عدم تصديقه لحكاية حملها من الروح القدس. إلا أنه لابد قد فكر فى أن إتمام الزواج مع هذا الوضع ليس مقبولا.

ويستمر إنجيل متى فيقول (مت ٢٠:١) ولكن فيما هو متفكر فى هذه الأمور إذا ملاك الرب قد ظهر له فى حلم قائلا: يا يوسف بن داود. لا تخف أن تأخذ مريم امرأتك لأن الذى حُبل فيها هو من الروح القدس. فستلد ابنا وتدعو اسمه يسوع لأنه مُخلِّص شعبه من خطاياهم. وهذا كله لكى يتم ما قيل من قِبَل الرب بالنبى القائل: هو ذا العذراء تحبل وتلد ابنا ويدعون اسمه عمّانوئيل الذى تفسيره الله معنا. فلما استيقظ يوسف من النوم فعل كما أمره ملاك الرب وأخذا امرأته ولم يعرفها (أى لم يقربها) حتى ولدت ابنه البكر ودعا اسمه يسوع.

وهذا يعنى أنه بعد ولادة يسوع أصبحت العلاقة بين يوسف النجار ومريم علاقة زوجية

كاملة. يؤيد هذا ما جاء فى الكتاب المقدس. (مت ١٢:٤٦) وفيما هو يكلم الجموع إذا أمه وإخوته قد وقفوا خارجا طالبين أن يكلموه. فقال له واحد. هو ذا أمك وإخوتك خارجا طالبين أن يكلموك . كما جاء أيضا (متى ١٣:٥٤)، ولما جاء إلى وطنه كان يُعلِّم جموعهم حتى بهتوا وقالوا من أين لهذا هذه الحكمة. أليس هذا ابن النجار؟ أليست أمه تدعى مريم وإخوته يعقوب ويوسى وسمعان ويهوذا؟ أو ليست أخواته جميعهن عندنا؟ فمن أين لهذا هذه كلها؟!

وعن ولادة المسيح ويحيى عليهما السلام يقول إنجيل لوقا (١:٢٦): «وفى الشهر السادس أرسل جبرائيل الملاك من الله إلى مدينة من الجليل تُسمى «ناصرة» إلى عذراء مخطوبة لرجل من بيت داود اسمه يوسف واسم العذراء مريم. فدخل إليها الملاك وقال: سلام لك أيتها المُنعَم عليها. الرب معك. مباركة أنت فى النساء. فلما رأته اضطربت من كلامه وفكَّرت ما عسى أن تكون هذه التحية. فقال لها الملاك: لا تخافى يامريم لأنك قد وجدت نعمة عند الله وها أنت ستحبلين وتلدين ابنا وتسميه يسوع. هذا يكون عظيما. ويعطيه الرب الإله كرسى داود أبيه ويملك على بيت يعقوب إلى الأبد ولا يكون لملكه نهاية. فقالت مريم للملاك: كيف يكون هذا وأنا لست أعرف رجلا. فأجاب الملاك وقال لها: الروح القدس يحل عليك وقوة العلى تظلِّلك. فلذلك أيضا القدوس المولود منك. وهو ذا إليصابات نسيبتك هى أيضا حبلى بابن فى شيخوختها وهذا هو الشهر السادس لتلك المدعوة عاقرا. لأنه ليس شيئ غير ممكن لدى الله. فقالت مريم: هو ذا أنا أمة الرب. ليكن لى كقولِكَ فمضى من عندها الملاك. فقامت مريم فى تلك الأيام وذهبت بسرعة إلى الجبال إلى مدينة يهوذا ودخلت بيت زكريا وسلَّمت على إليصابات فلما سمعت إليصابات صوت مريم ارتكض الجنين فى بطنها وقالت مريم. تُعظِّم نفسى الرب وتبتهج روحى بالله مخلِّصى لأنه نظر إلى اتضاع أمته فهو ذا منذ الآن جميع الأجيال تُطوِّبنى لأن القدير صنع بى عظائم واسمه قدوس ورحمته إلى جيل الأجيال للذين يتقونه. صنع قوة بذراعه. شتَّت المستكبرين بفكر قلوبهم. أنزل المتكبرين عن الكراسى ورفع المتواضعين. أشبع الجياع خيرات وصرف الأغنياء فارغين. وأما إليصابات فتم زمانها لتلد فولدت ابنا وبعد اختتانه فى اليوم الثامن سمَّته أمه يوحنا ووافق زكريا على اسم يوحنا. وفى الحال انفتح فمه ولسانه وتكلم وبارك الله. وتعجب الحاضرون من زوال البكم الذى كان قد أصاب زكريا وأيقنوا ببركة هذا المولود (يحيى) وتحدث جميع سكان اليهودية قائلين: أترى ماذا سيكون هذا الصبى؟ وكانت يد الرب معه. وامتلأ زكريا أبوه من الروح القدس وتنبأ (صار نبيًا) وقال: مبارك الرب إله إسرائيل لأنه افتقد وصنع فداء لشعبه وأقام لنا قرن خلاص. وأنت أيها الصبى نبى العلىِّ تدعى لأنك تتقدم أمام وجه الرب لتُعِدَّ طرقه لتعطى شعبه معرفة الخلاص بمغفرة خطاياهم. أما الصبى فكان ينمو ويتقوى بالروح وكان فى البرارى إلى يوم ظهوره لإسرائيل».

ولادة المسيح :

«فأجاءها المخاض إلى جذع النخلة قالت ياليتنى مت قبل هذا وكنت نسيا منسيا» .

(٢٣ – مريم).

تمنت مريم الموت لأنها شعرت بالحرج مما قد يقوله أهلها عندما يرونها تحمل وليدها والمعروف عندهم أنها عذراء مخطوبة ليوسف النجار ولم يتزوجا بعد.

«فناداها من تحتها ألا تحزنى قد جعل ربك تحتك سريا». (٢٤ – مريم).

قيل الضمير فى «من» راجع إلى عيسى عليه السلام. وقال البعض هو جبريل عليه السلام وكان فى مكان أخفض من البقعة التى كانت فيها تحاشيا من حضوره بين يديها وهى فى تلك الحال. ولكن القول الأول أولى. أى أن الله سبحانه وتعالى أنطق المولود فور ولادته ليذهب عنها الحزن والقلق. ولاشك أن مريم استعادت رباطة جأشها بعد أن سمعت مقالة وليدها. ثم أوحى الله إليها ما تفعله لتتغذى بعد الولادة:

«وهزى إليك بجذع النخلة تساقط عليك رطبا جنيا. فكلى وأشربى وقرّى عينا» (٢٦ – مريم).

قيل إن رطب النخل يناسب النفساء. ومن أحسن ما قيل فى «هزى إليك».

ألم تر أن الله أوحى لمريم ∴ وهزى إليك الجذع يساقط الرطب

ولو شاء أحنى الجذع من غير هزه ∴ إليها ولكن كل شيئ له سبب

الرعاة :

يقول أهل الكتاب : (لوقا ٢ : ٨) «وكان فى تلك الكورة (البقعة) رعاة يحرسون حراسات الليل على رعيتهم. وإذا ملاك الرب وقف بهم. ومجدُ الرب أضاء حولهم فخافوا خوفا عظيما. فقال لهم الملاك: لا تخافوا فها أنا أبشّركم بفرح عظيم يكون لجميع الشعب. أنه ولد لكم اليوم فى مدينة داود مخلِّص هو المسيح وهذه لكم العلامة. تجدون طفلا مُقمَّطا مُضجَعًا فى مذود. وظهر بغتة مع الملاك جمهور من الجند السماوى مسبحين الله وقائلين: «المجد لله فى الأعالى وعلى الأرض السلام وبالناس المسرّة».

ولما مضت عنهم الملائكة إلى السماء قال الرجال الرعاة بعضهم إلى بعض لنذهب الآن إلى بيت لحم وننظر هذا الأمر الواقع الذى أعلمنا به الرب فجاءوا مسرعين ووجدوا مريم ويوسف والطفل مضجعًا فى المذود. فلما رأوه أخبروا بالكلام الذى قيل لهم عن هذا الصبى. وكل الذين سمعوا تعجّبوا مما قيل لهم من الرعاة. وأما مريم فكانت تحفظ جميع هذا الكلام متفكرة به فى قلبها. ثم رجع الرعاة وهم يمجِّدون الله ويسبِّحونه على كل ما سمعوه ورأوه كما قيل لهم.

المجــوس :

ولد عيسى فى بيت لحم. وكان فى أرض الفرس مجوس من المنجِّمين كانوا قد علموا من حساباتهم الفلكية أن طفلا سيولد بأرض فلسطين وأنه سيكون ملكا على اليهود. ورأوا أن نجمه قد ظهر فى السماء فعلموا أنه قد وُلد. فشدُّوا الرحال إلى فلسطين ليتشرَّفوا برؤية هذا الوليد ويتحققوا من صدق نبوءتهم. فجاءوا إلى أورشليم لظنهم أنه لابد يولد بها مادام سيكون ملكا على اليهود. وراحوا يسألون الناس عن المولود . يقول الإنجيل (مت ٢:١): وإذا مجوس من المشرق قد جاءوا إلى أورشليم قائلين: أين هو المولود ملك اليهود فإننا رأينا نجمه فى المشرق وأتينا لنسجد له. فلما سمع هيرودس الملك اضطرب وجميع أورشليم معه. فجمع كل رؤساء الكهنة وكتبة الشعب وسألهم أين يولد المسيح فقالوا إنه يولد فى بيت لحم اليهودية لأنه هكذا مكتوب بالنبى: «وأنت يا بيت لحم أرض يهوذا لست الصغرى بين رؤساء يهوذا لأن منك يخرج مدبِّر يرعى شعبى إسرائيل».

ولعل المجوس كانوا يتوقعون أن يجدوا أورشليم على علم بهذا المولود والجميع ينتظرون ويرحبون بمليكهم المقبل. فإذا بهم يكونون أول المبشِّرين به. ولما علموا من الكهنة أنه سيولد فى بيت لحم تشككوا فى حساباتهم وكذلك تشكك هيرودس فى صدق نبوءتهم فلم يتخذ إجراء حاسما للتأكد منها. بل طلب من المجوس أن يذهبوا إلى بيت لحم ويبحثوا عن المولود الذى يتوقعونه.

جاء فى الإنجيل (مت ٢:٧): حينئذ دعا هيرودس المجوس سراً وتحقق منهم زمان النجم الذى ظهر ثم أرسلهم إلى بيت لحم وقال اذهبوا وافحصوا بالتدقيق عن الصبى ومتى وجدتموه فأخبرونى لكى آتى أنا أيضا وأسجد له. فلما سمعوا من الملك ذهبوا وإذا النجم الذى رأوه فى المشرق يتقدمهم حتى جاء ووقف حيث كان الصبى. فلما رأوا النجم فرحوا فرحا عظيما جدا وأتوا إلى البيت ورأوا الصبى مع مريم أمه فخروا وسجدوا له. ثم فتحوا كنوزهم وقدموا له هدايا ذهبا ولبانا ومُرّاً. ثم أوحى إليهم فى حلم أن لا يرجعوا إلى هيرودس فانصرفوا فى طريق آخر إلى كورتهم». ومن المؤكد أنهم إذ لم يرجعوا إلى هيرودس فإنه ظن أنهم لم يعثروا على الطفل وأن رؤيتهم لنجمه كانت مجرد أوهام.

وكانت مريم قد علمت من المجوس أن هيرودس يطلب الصبى. ولاشك أنها حدست أنه يريد به شرا وإن ادعى للمجوس أنه يريد أن يسجد له. ولاشك أنها أسرَّت بمخاوفها ليوسف النجار خطيبها فقرر أن يلجأ إلى أقارب لهم فى إحدى ضواحى بيت لحم وهى بلدة فارس التى تبعد ١٩كم عن بيت لحم. وبمجرد أن طهُرت مريم من نفاسها بعد ٤٠ يوما من الولادة اشترى يوسف أتانا (أنثى الحمار) وأركب مريم وابنها معها وسار هو يقود الأتان. وعند مغارة فى بيت لحم جنوب شرق كنيسة الميلاد توقف الركب لترضع مريم طفلها. ويقال إن بعض نقط من

اللبن سقطت على صخرة فتحولت الصخرة إلى اللون الأبيض الناصع. وفى زمن تالٍ (فى القرن الخامس الميلادى) بُنيت كنيسة فوق تلك الصخرة سُميت كنيسة مغارة الحليب. ثم فى عام ١٨٧١ بنيت الكنيسة الموجودة حاليا وبداخلها المغارة المقدسة والصخرة. وكان رؤساء الكنائس فى أوربا كثيرا ما يحضرون ويأخذون قطعا من حجارة الصخرة ليحتفظوا بها فى كنائسهم.

خرج الركب من بيت لحم قاصدين بلدة فارس. ولاشك أن مريم قد شعرت بالخزى مما قد يقوله الأهل عنها إذ هم يعرفون أنها مخطوبة ليوسف النجار ولم يتزوجا بعد. ولكن الله سبحانه وتعالى أعلمها ماتقول عندما يقابلها الناس بشكوكهم:

«فإما ترينَّ من البشر أحدا فقولى إنى نذرت للرحمن صوما فلن أكلم اليوم إنسيا» (٢٦ – مريم). وكان الإمساك عن الكلام عند الصيام مشروعا عندهم.

فلما دخلت مريم – وهى تحمل وليدها – على قومها وعشيرتها اتهموها بارتكاب الفاحشة.

«فأتت به قومها تحمله. قالوا يامريم لقد جئت شيئا فَرِيًّا. يا أخت هارون ما كان أبوك امرأ سوء وما كانت أمك بغيا. فأشارت إليه. قالوا كيف نكلم من كان فى المهد صبيا. قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبيا وجعلنى مباركا أينما كنت وأوصانى بالصلاة والزكاة مادمت حيا. وبرا بوالدتى ولم يجعلنى جبارا شقيا. والسلام علىَّ يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا» (٢٧ – ٣٣ مريم).

فلما أشارت إلى عيسى بما يفيد أن يسألوه استنكروا أن يكلّموا طفلا لا يزال فى المهد ولكن الله أنطقه بما قال. فكان هذا دليلا على معجزة من الله سبحانه وتعالى وعلى قدرته بأن تحمل مريم من غير رجل. واختلف المفسرون فى أنه بعد ما تكلم بما ذُكر هل بقى يتكلم كعادة الكبار أم عاد فلم يتكلم حتى بلغ السن التى يتكلم فيها الصبيان. والأرجح أنه لم يتكلم إلا بهذه الكلمات. إذ لو ظل يتكلم لشاع خبر هذه المعجزة ووصلت إلى أسماع هيرودس وعرف مكان الصبى. وأغلب الظن أن هيرودس لما لم يرجع المجوس إليه أرسل بعض الجند الى بيت لحم وراحوا يسألون عن مولود حديث الولادة. ولكن المدينة كانت تعج بالغرباء الذين جاءوا لتسجيل أنفسهم فى التعداد حسب أوامر القيصر فلم يستدلوا عليه وبذلك ضاع أى أثر يمكن لهيرودس أن يتتبّعه. ولعل من سمعوا ما قاله عيسى فى المهد ظنوها حيلة أو سحرا لجأ إليه يوسف النجار ليدارى بها موقف خطيبته مريم فلم يصدقها من سمعها فلم تنتشر.

ولكن مر وقت وسمع هيرودس أن هناك طفلا تكلم فى المهد. وكان قد مضى على مجئ المجوس عامان. فعادت المخاوف إلى ذهنه. فقرر أن يقتل كل الأطفال الموجودين فى بيت لحم الأصغر من سنتين ليكون من بينهم الطفل الذى أشارت إليه النبوءة.

ويقول أهل الكتاب إن هيرودس الملك أقام سنتين كاملتين ينتظر عودة المجوس. ثم ظهر له الشيطان ذات ليلة فى شكل إنسان وكلّمه قائلا. ما بالك والكسل مع أن مملكتك سوف تضيع منك؟ فأجابه ما العمل؟ قال إبليس: قم واقتل كل الأطفال الذين فى بيت لحم اليهودية وتخومها من عمر سنتين فما دون لعلك تظفر بقتل يسوع (٢٠٠٠ عام على مجئ العائلة المقدسة إلى مصر . الأنبا اثناسيوس، ص ٢٢). ويقال إنه قتل ١٤٤٠٠٠ طفلا. وسمعت مريم ويوسف النجار بخبر المذبحة التى حدثت فى بيت لحم وخافوا أن يكرر هيرودس نفس الأمر فى المدن المجاورة فقررا مغادرة البلدة. ولكن كانت أبواب المدينة مغلقة. فوضعوا يد عيسى على القفل فانفتح وبعد ما خرجوا انغلق الباب ثانية وعاد القفل إلى مكانه (الأنبا سلوانس، من مصر دعوت ابنى، ص ٢١). وخرجوا من المدينة إلا أنه لم يكن أمان لهم مادام هيرودس فى الحكم.

يقول الإنجيل (مت ٢ : ١٢) «وإذا ملاك الرب قد ظهر ليوسف فى حلم قائلا: قم وخذ الصبى وأمه واهرب إلى مصر وكن هناك حتى أقول لك لأن هيرودس مزمع أن يطلب الصبى ليهلكه. فقام وأخذ الصبى وأمه ليلاً وانصرف إلى مصر وكان هناك إلى وفاة هيرودس» .

الفصل الرابع

العائلة المقدسة فى مصر

يذكر القرآن الكريم هذه الفترة باختصار شديد فى قوله تعالى:

«وآويناهما إلى ربوة ذات قرار ومعين». (٥٠ - المؤمنون).

ويقول الألوسى (تفسيره. جـ ١٨ ص ٣٩): ذات قرار أى مستقر من أرض منبسطة. ومعين أى ماء جار. وهو ما ينطبق على أرض مصر إذ هى سهل منبسط يجرى فى وسطه نهر النيل بماء معين فى حين أن أرض فلسطين أو سيناء فى معظمها جبلية وتعتمد أساسا فى زراعتها على المطر.

وكان عمر عيسى عليه السلام عند دخوله مصر سنتين. وكان دخوله - على ما يرى أهل الكتاب وفقا لما أجروه من حسابات - فى بشنس وأمضت العائلة المقدسة فى مصر أكثر من ٣ سنوات ونصف. وقد تبلغ ٤ سنوات إلى أن تلقت الأمر الإلهى بالعودة إلى فلسطين بعد موت هيرودس الملك. واستغرقت رحلة العودة بضعة شهور. وقد نشرت جريدة الأهرام (بتاريخ ١٩٩٨/٦/٦) عثور باحثين من جامعة كولون على بردية أثرية ترجع إلى القرن الرابع الميلادى تتحدث عن فترة وجود المسيح والعائلة المقدسة فى مصر مؤكدة أن مدة بقاء المسيح فى مصر بلغت ٣ سنوات و ١١ شهرا. والبردية مكتوبة باللغة القبطية وعثر عليها بمنطقة الفيوم وهى موجودة بمكتبة جامعة كولون.

بالطبع لم تقض العائلة المقدسة هذه المدة الطويلة فى بلدة واحدة بل كانت دائمة الترحال والانتقال من مكان لآخر. إذ ما إن يحل عيسى عليه السلام فى مكان ما حتى تحل البركة على هذا المكان. ولو استضافهم شخص ما وكان فى البيت مريض بشلل مثلا فإنه حالا يشفى من مرضه. ويشيع خبر الشفاء فى البلدة مما يجعل المرضى يتقاطرون إلى حيث تقيم هذه العائلة المباركة تلمسا لشفاء مرضاهم.

ولا شك أن هذه الأمور كانت لابد أن تلفت نظر الحاكم الرومانى فى مصر والذى لابد قد سمع أن هيرودس يبحث عن طفل تقول النبوءة إنه سيصبح ملك اليهود. ولابد أن يوسف النجار قد حدس كل هذا وخوفا من أن تتبعهم عيون الحاكم وأعوانه فيقع فى أيديهم وحرصا على سلامة المسيح وأمه فإنه ما كان يمكث طويلا فى مكان واحد. بل يمكننا أن نقول باطمئنان إن

العائلة المقدسة ما كانت تستقر فى مكان واحد أكثر من أيام قليلة وعلى الأكثر أسبوعين تنتقل بعدها إلى مكان آخر. ومن هنا كانت كثرة الأماكن التى ذكر أن العائلة المقدسة مرت بها.

وفى كل مكان كانت تحل به العائلة المقدسة كانت تستريح فى ظل شجرة وكثيرا ما كان الله ينبع لهم عين ماء يستقون منه - وعندما اعتنق المصريون المسيحية فإنهم قاموا ببناء كنيسة فى كل مكان استراحت فيه العائلة المقدسة وغالبا ما كان حوش الكنيسة يحتوى على البئر التى استقى منها السيد المسيح. ومن هنا جاء اعتقاد الناس فى مقدرة مائها على شفاء الأمراض.

كذلك فإن بعض الأمكان التى مرت بها العائلة المقدسة كان بها تماثيل لآلهة المصريين وتقول الروايات إنها كثيرا ما كانت تسقط على وجهها مكسَّرة بمجرد مرور السيد المسيح أمامها. وكان لا بد من الإسراع بمغادرة المكان حتى لا يربط الناس بين مرور المسيح أمامها وتكسُّرها مما قد يدفع الأهالى إلى الانتقام منهم أو التيقن من بركة هذا الصبى مما يلفت نظر الحاكم الرومانى وجنده إلى أن هذا الصبى هو من يبحث عنه هيرودس.

كما أنه فى بعض الأماكن كان الناس يحسنون ضيافتهم فتحل عليهم البركة. وفى بلدان أخرى كان الناس ينهرونهم ويسيئون معاملتهم فكان عيسى عليه السلام يتنبأ لهم بضيق الرزق وسوء المصير.

لقد كان عام ٢٠٠٠ مناسبة لعدد كبير من الكتاب المسيحيين لتأليف كتيّبات عن مسيرة العائلة المقدسة فى مصر استعنَّا ببعضها مثل.

١ - «من مصر دعوت ابنى» «تأليف الأنبا سلوانس الأسقف العام لمنطقة المطرية وعين شمس وعزبة النخل ومار مينا.

٢ - «٢٠٠٠ عام على مجيء العائلة المقدسة إلى مصر» تأليف الأنبا اثناسيوس مطران كرسى بنى سويف والبهنسا.

٣ - «يسوع فى مصر» شريط فيديو للمخرج خيرى بشارة.

وتبين أشكال ٧ - ١١ الأماكن التى مرت بها العائلة المقدسة.

وقد سبق أن ذكرنا أن العائلة المقدسة بدأت مسيرتها من بيت لحم إلى بلدة فارس ثم إلى حبرون (حاليا الخليل). ولم يسلك يوسف النجار الطرق المعروفة التى يسلكها المسافرون من فلسطين إلى مصر - وهى تنتهى إلى غزة على الطريق الساحلى - حتى لا يصل إليه جنود هيرودس. بل اتجه جنوبا إلى بئر سبع ثم خان يونس ثم رفح على الحدود بين فلسطين ومصر. ومن هذه المدينة نبدأ فى إعطاء أرقام مسلسلة للأماكن والمدن التى مرت بها العائلة المقدسة فى مصر. والرقم فى المتن سيكون هو نفس الرقم على الخريطة.

١ – كانت رفح المصرية هى أولى الأماكن التى وصلتها العائلة المقدسة. وفى ١٩٩٥/٦/٢٥ قام البابا شنودة ومحافظ سيناء وعدد من الأساقفة بتدشين كنيسة مدينة رفح البديلة لموضع الكنيسة القديمة التي كانت قد بنيت فى المكان الذى مرت به العائلة المقدسة.

٢ – بعد رفح وصلت العائلة المقدسة إلى **العريش (شكل ٧)**.

٣ – ثم **أوستراكين** على بحيرة البردويل وهى حاليا قرية **«المزار»**.

٤ – ثم **بلوزيوم** وهى الآن تل الفرما ٣٠ كم شمال شرق القنطرة.

٥ – ثم **تل بسطة** ٢ كم جنوب الزقازيق. وفيها تم شفاء امرأة كانت مشلولة وتقاطر المرضى على مكان العائلة المقدسة طلبا للشفاء مما لفت نظر الحاكم الرومانى فأرسل جنوده لطاردتهم فاختبأوا فى حقل قمح وحدثت معجزة إذ استطالت أعواد القمح إلى طول مترين حتى تخفيهم عن أعين الجنود. وبعد أن ذهب الجند عادت أعواد القمح إلى طولها المعتاد. ثم مرّت العائلة المقدسة بالبلدان التالية (شكل ٨):

٦ – **بقادوس**.

٧ – **ميت غمر**.

٨ – **سنتبيس**.

٩ – **بلبيس**.

١٠ – **فاقوس**.

١١ – **صان الحجر**.

١٢ – ميت سمنود. شرق فرع دمياط ثم عبروه إلى

١٣ – **سمنود**. وفى كنسية سمنود يوجد ماجور كبير من الحجر الأسود يقال إن السيدة مريم قد عجنت فيه الخبز أثناء إقامتهم فى سمنود. وحاليا يوضع فى هذا الماجور ماء مَصلًى عليه. ومن المعجزات التى يرويها أهل الكتاب ما حدث يوم العنصرة الموافق ٧ يونو عام ١٩٨٧ بعد القداس الإلهى إذ تحول الماء الموجود بالماجور إلى زيت.

١٤ – ثم سارت العائلة المقدسة إلى **المحلة الكبرى**.

١٥ – ثم إلى **بلقاس**. ثم

١٦ – إلى **المطلع** وبها حاليا كنسية الملاك ميخائيل. ثم

١٧ – **سخا**.

١٨ – ثم إلى **دسوق**.

شكل ٧ – مسيرة العائلة المقدسة من فلسطين إلى مصر.

١٩ – ثم إلى **كفر الزيات**. ومن هناك عبروا فرع نهر النيل إلى

٢٠ – **ترنوث** أو تيرنوثيس أو المطرانة الآن. والتي كانت فيما مضى الميناء الذي يشحن منه الملح من وادى النطرون لينقل بالمراكب إلى باقى مدن الدلتا. والمنطقة الواقعة إلى الغرب هى وادى النطرون (شكل ٩).

٢١ – **وادى النطرون**. وقد استراحت العائلة المقدسة فى أربعة أماكن بُنيت فيها أربعة أديرة هى: ديربيشوى (إبشواى) ودير مواس ودير سريانى ودير مكاريوس أو مقار

٢٢ – ثم إلى قرية **الهسوكارية** أو بيرهوكر خلف الرست هاوس على طريق اسكندرية الصحراوى.

٢٣ – ثم ساروا فى اتجاه جنوب شرق حتى وصلوا إلى نهر النيل عند تفرعه عند **القناطر الخيرية**. ثم ساروا جنوبا فوصلوا.

٢٤ – **المطرية**. وهى بلدة «مرتى» القديمة. ثم ساروا شرقا إلى

٢٥ – **تل اليهودية** التى تقع ٢ كم شرق شبين القناطر. وقد سبق أن ذكرنا (جـ ٤ ص ٧٢٦) أنه كان بها معبد أسسه الكاهن أونياس (جـ ٥ ص ٤٦٨ – ٤٧٠). ويقال إن يوسف النجار كان يسير متوكئا على عصا من شجر البلسان أخذها من شجرة فى أريحا فأخذها وقطعها إلى قطع صغيرة وغرسها فى الأرض وسقاها بالماء فاخضرَّت ونبتت لها الأغصان. وكان هذا هو أول معرفة المصريين بشجر البلسان وزرع بكثرة بعد ذلك وزيته يستعمل فى الطقوس المسيحية.

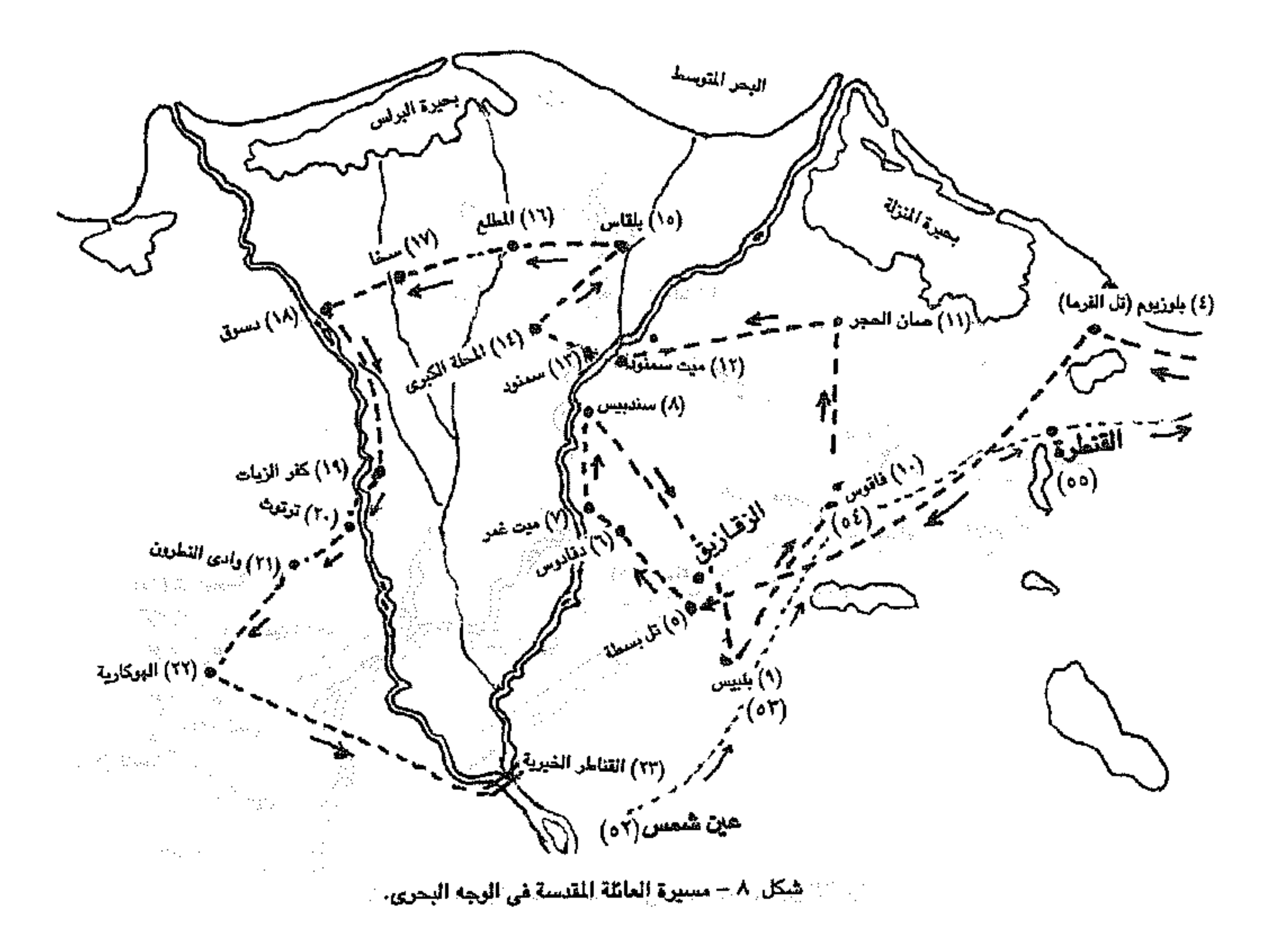
٢٦ – ثم سارت العائلة المقدسة إلى **عين شمس**.

٢٧ – ثم **الزيتون**. وقد شيدت بها كنيسة للعذراء ويروى أن السيدة العذراء ظهرت بها فى ٢ أبريل عام ١٩٦٨ وحدثت ضجة كبرى وقتها وظلت وسائل الإعلام من صحف وتليفزيون تتحدث عن هذا الظهور المبارك.

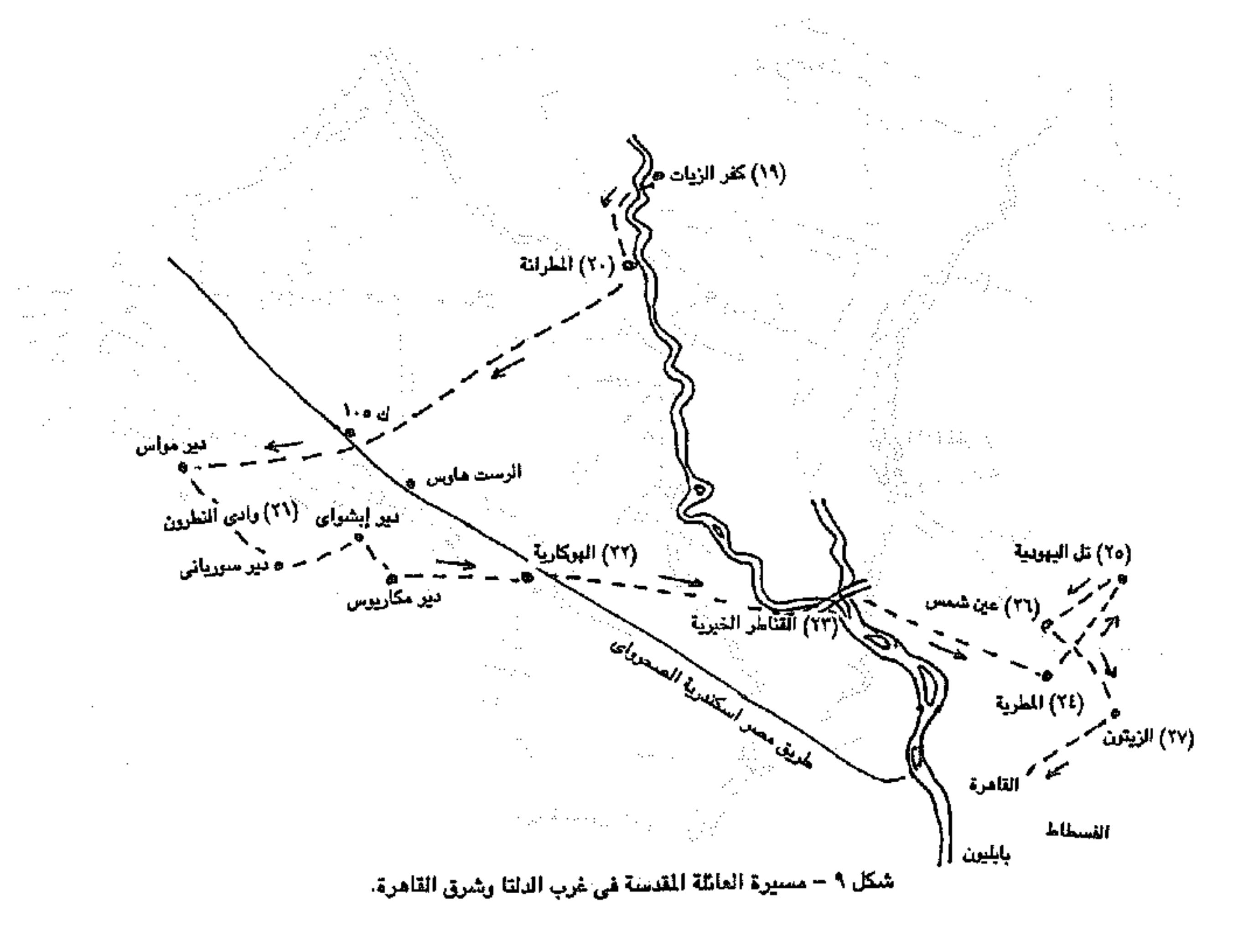
٢٨ – وفى **القاهرة** عدة أماكن مشهور عنها أن العائلة المقدسة أقامت بها بعض الوقت منها: حى الأزبكية وحى زويلة والفسطاط وبابليون.

٢٩ – ثم سارت العائلة المقدسة جنوبا إلى **المعادى** وبعد أن أمضوا بها حوالى الشهر استقلوا مركبا شراعيا متجها إلى الصعيد. ويقال إنه أثناء طهى الطعام على ظهر المركب أمسكت النيران بأخشاب المركب ذاتها فأخذ عيسى عليه السلام حفنة ماء بيده الطاهرة ورشها على النار فانطفأت. ولما رأى أصحاب المركب هذه المعجزة أيقنوا أن هذا الطفل مبارك وله شأن فرفضوا أن يتقاضوا أجرة من العائلة المقدسة.

٣٠ – ثم نزل الركب فى بلدة **الفشن** (**شكل ١٠**).



شكل ٨ – مسيرة العائلة المقدسة في الوجه البحري.



شكل ٩ – مسيرة العائلة المقدسة فى غرب الدلتا وشرق القاهرة.

٣١ – ثم إلى **مغاغة**.

٣٢ – ثم ساروا إلى **دير الجرنوس** التى تقع ١٠ كم جنوب غرب مغاغة (شكل ١١) وكان بها بئر شربت منه العائلة المقدسة فأصبح ماؤه مباركا يشفى المرضى ثم فى زمن تال بنى الدير حوله ويتراوح زواره سنويا من ٥٠٠٠ إلى ٦٠٠٠ زائر للاستشفاء بماء البئر. ثم سارت العائلة المقدسة غربا إلى

٣٣ – **البهنسا**. وبالتحديد قرية «إباى إيسوس» أى «بيت يسوع». وفى هذه القرية استضافهم مزارع وأنبع له الله عين ماء فى داخل داره إذ كان المصدر الذى يستقى منه الماء بعيدا ويتكلف جهداً كبيرا لنقل احتياجاته من الماء.

٣٤ – ثم ساروا إلى **القيس**.

٣٥ – ثم **سمالوط**. ثم عبروا إلى شرق نهر النيل إلى.

٣٦ – **جبل الطير**. وهناك كانت حجارة ساقطة من الجبل تسد الطريق أمامهم فوضع السيد المسيح يده الكريمة على الحجارة فانطبعت يده عليها ولذلك يسمى الجبل الآن «جبل الكف» وانشقت الحجارة عن ممر سارت فيه العائلة المقدسة ويسمى الآن «شق مريم» وأقيمت فيما بعد كنيسة باسم العذراء على قمة الجبل.

٣٧ – ثم سارت العائلة المقدسة إلى **أطسا**. ثم عبروا ثانية إلى غرب النهر إلى

٣٨ – **الأشمونين** Hermopolis. وكان بها شجرة لبخ تقول الروايات إنها انحنت تعظيما لعيسى عليه السلام عندما مر أمامها فباركها قائلا «لن يلمسك الدود إلى آخر الزمان وسوف تبقين شهادة لدخولى هذه المدينة». ومكثت العائلة المقدسة فى الأشمونين حوالى الأسبوعين. ويقال إن أحد الكهنة سمع عن وصول طفل تأتى المعجزات على يديه فقصد حيث يقيم وتعرَّف على العائلة المقدسة وآمن ونبذ عبادة الأصنام فقام زملاؤه الكهنة بقتله.

٣٩ – ثم انتقلت العائلة المقدسة إلى **ديروط الشريف** والتى كانت تسمى «فيلبس» وهناك قام عيسى بشفاء ابن نجار أكرمهم. ثم ساروا إلى

٤٠ – **صنبو** . ثم إلى

٤١ – **القوصية** (قسقام).

وكان قد مضي على العائلة المقدسة فى مصر حوالى سنة وثلاثة أشهر ومن المرجَّح أن عيون الرومان ما كانت لتصل إلى هذا المكان القصى فى الصعيد لذلك شعر يوسف النجار أنهم قد أصبحوا بمأمن من المطاردة فبنى بيتا بالطوب اللبن وغطاه بأخشاب النخيل وأقامت فيه العائلة المقدسة لفترة بلغت ١٩٠ يوما أى ستة أشهر وعشرة أيام.

(٢٨) القاهرة
اسطبل عنتر
(٥١) (٢٩) المعادى
طرة
المعصرة
(٥٠) معصرة حلوان
حلوان
الصف
الواسطى
الكريمات
(٤٩) منف
(ميت رهينة)
(٤٨)
بياض النصارى
بنى سويف
إهناسيا (٤٧)
فى العودة قادمين
من الأشمونين
الفشن
(٣٠)
مغاغة
(٣١)
من الأشمونين

شكل ١٠ – مسيرة العائلة المقدسة فى شمال مصر العليا.

ثم جاء رجل يدعى يوسى من سبط يهوذا وهو من أقارب مريم ، جاء من فلسطين وأمكنه بعد تعب أن يستدل على مقر العائلة المقدسة فى جبل قسقام وأخبرهم بما فعل الملك هيرودس من قتل جميع الأطفال فى بيت لحم وضواحيها وأنه أرسل ١٠ من جنوده للبحث عن الطفل يسوع والقبض على أفراد العائلة المقدسة وإعادتهم إلى فلسطين ليقتلهم بنفسه. وطلب يوسى منهم الازدياد فى الحرص حتى لايقعوا فى أيدى جنود هيرودس. فطمأنه يوسف النجار أن الله يرعاهم ولن يسلمهم إلى أعدائهم. وتقول الروايات إن يسوع على صغر سنه - ٥ر٣ سنة - شكر يوسى على تكلفه المشاق لتحذيرهم وأخبره أنه قد حان الوقت ليستريح، فأخذ يوسى حجرا ووضعه تحت رأسه وأغمض عينيه وماهى إلا فترة وجيزة حتى أسلم الروح. وقد وُجد فى دير المحرق حجر مربع مكتوب عليه بالعبرية: أنا يوسف النجار من الناصرة أقر أنى وخطيبتى مريم العذراء قضينا فى هذا المكان ستة أشهر وعشرة أيام بذلك الجبل الطاهر وأنه فى هذا المكان يرقد يوسى (مخطوطات الباب ثيئوفيلس بدير المحرق ١٤/٩).

العـودة:

ظهر ملاك الرب ليوسف النجار فى حلم وقال له: قم خذ الصبى وأمه وعد إلى إسرائيل لأنه قد مات الذين كانوا يطلبون نفس الصبى. وبدأت العائلة المقدسة تعد لرحلة العودة التى استغرقت ثلاثة أشهر. ولم يتخذوا فيها نفس الطريق الذى جاءوا فيه وزيادة فى الحيطة والتمويه فإنهم ساروا بضعة أيام فى اتجاه الجنوب إلى

٤٢ - **بوق** ٥ كم جنوب القوصية. ثم إلى

٤٣ - **جبل درنكة** ٨ كم جنوب أسيوط وأووا إلى مغارة هناك ثم عبروا النهر إلى.

٤٤ - **القصير** على الضفة الشرقية واتجهوا شمالا. وعند

٤٥ - **ملوى** عبروا النهر ثانية إلى غربه ليمروا على

٤٦ - **الأشمونين** مرة ثانية. ثم ساروا شمالا بعيدا عن النهر فى دروب الصحراء حتى وصلوا إلى

٤٧ - **إهناسيا**. وعندها اتجهوا شرقا وعبروا النهر إلى المكان المسمى حاليا

٤٨ - **بياض النصارى** مقابل بنى سويف. (شكل ١٠) ثم عبروا النهر ثانية إلى غربه إلى

٤٩ - **منف** (شكل ١٠).

ويلاحظ أن خط مسير العائلة كان كثير التنقل من غرب النيل إلى شرقه وبالعكس. وكان ذلك زيادة فى الحيطة لتضليل أى جنود يحاولون اقتفاء أثرهم. ثم بعد منف عبروا النهر إلى الضفة الشرقية إلى

٥٠ - **معصرة حلوان** . ثم

إلى إهناسيا (٤٧)
الفشن (٣٠)
مغاغة (٣١)
دير الجرنوس (٣٢)
البهنسا (٣٣)
القيس (٣٤)
سمالوط (٣٥)
(٣٦) جبل الطير
المنيا
(٣٧) أطســا
أبو قرقاص
الأشمونين (في الذهاب) (٣٨)
(في العودة) (٤٦)
(٤٥)
ملوى
دير مواس
ديروط الشريف (٣٩)
ديروط
(٤٤) القصير
صنبو (٤٠)
القوصية (٤١)
بوق (٤٢)
أسيوط
(٤٣) درنكة

شكل ١١ – مسيرة العائلة المقدسة في مصر الوسطى.

٥١ – المعادى ثم بابليون واستراحوا فى مكان كنيسة أبو سرجة. ثم

٥٢ – عين شمس.

٥٣ – بلبيس.

٥٤ – فاقوس.

٥٥ – القنطرة.

ثم عبروا شمال سيناء إلى أن دخلوا أرض فلسطين.

وقد نشرت جامعة كولون بألمانيا نبأ عثورها على بردية أثرية ترجع إلى القرن الرابع الميلادى طولها ٣١,٥ سم وعرضها ٨,٤ سم مكتوبة باللغة القبطية الفيومية (نسبة إلى منطقة الفيوم) مكتوب بها أن فترة وجود المسيح والعائلة المقدسة فى مصر استمرت ثلاث سنوات وأحد عشر شهرا. وهذا ما يقبله رجال الدين المسيحى وجميع المؤرخين. ويمكننا أن نحسب عمر المسيح عند عودته إلى فلسطين هكذا.

عمره عند ترك فلسطين	٢ سنة
المدة فى مصر	٣ سنوات وأحد عشر شهرا
رحلة العودة	٣ شهور
	٦ سنوات وشهران

بعد العودة إلى فلسطين:

وصلت العائلة المقدسة إلى بيت لحم وعلموا أن أرخيلاوس قد أعلن نفسه ملكا على اليهودية. وكان أرخيلاوس قد ورث عن والده طباعه الفظّة وكراهيته لليهود لذلك عدل يوسف النجار عن الإقامة فى اليهودية إذ لم يطمئن إلى تصرفات أرخيلاوس. فقرر الرحيل إلى الجليل وكان يحكمه هيرودس أنتيباس واستقرت العائلة المقدسة فى بلدة «الناصرة» (شكل ١٢).

جاء فى الإنجيل (متى ٢ : ٢٣) ولكن لما سمع (يوسف النجار) أن أرخيلاوس يملك على اليهودية عوضا عن هيرودس أبيه خاف أن يذهب إلى هناك وإذ أوحى إليه فى حلم انصرَفَ إلى نواحى الجليل وأتى وسكن فى مدينة يقال لها الناصرة لكى يتم ما قيل بالأنبياء إنه سيدعى ناصريا.

قلنا إن عيسى عليه السلام لما عاد إلى فلسطين كان عمره ٦ سنوات وشهران. ومضت ٢٣ سنة لم تذكر الكتب فيها شيئا عن حياته ولا أى معجزات جرت على يديه فى هذه الفترة مع أنها ذكرت معجزات شفاء كثيرة تمّت فى مصر وهو لا يزال بعدُ طفلا. ولا ندرى لهذه المفارقة سببا إلاّ أن تكون حماية له من الله سبحانه وتعالى حتى لا تلتفت إليه الإنظار فيناله ابن هيرودس بأذى. ومرت السنون وقارب عيسى عليه السلام الثلاثين من عمره.

شكل ١٢ – الناصرة وكفر ناحوم.

يحيى عليه السلام

اسم يحيى :

«يحيى» فعل مضارع مثل «يزيد» ولم يُسَمَّ به أحد قبل يحيى عليه السلام مصداقا لقوله تعالى «لم نجعل له من قبل سمياً».

وفى سبب تسميته نقلوا عن ابن عباس قوله إن الله تعالى أحيا به عقر أمه. وعن قتادة أن الله تعالى أحيا قلبه بالإيمان والنبوة وعن الحسن بن الفضل أن الله تعالى أحياه بالطاعة حتى لم يهم بمعصية (الأديان والمذاهب. عبد الرزاق محمد أسود . ص١٣٦) ولاشك أن السببين الأخيرين ليسا بذى بال إذ أن كل الأنبياء كانوا على طاعة الله وعُصِموا من المعاصى.

ويرى الأستاذ رؤوف أبو سعدة (من إعجاز القرآن جـ ٢ ص٢٣٤) أن يحيى فعل المضارع المفرد المذكر الغائب من الجذر العربى «حيا». وهذا الجذر له معنيان: المعنى الأول من الحياة نقيض الموت والثانى من الحياء أى الاحتشام. ويرى الأستاذ رؤوف أن «الحياء» هو المعنى الذى اشتق منه اسم يحيى لأنه كان حيياً محتشماً حتى إنه ترك شهوة النساء ليتفرَّغ كلية للدعوة إلى الله وبذلك حصر نفسه تقربًّا إلى الله. وإلى هذا أشار القرآن الكريم فى قوله تعالى: «وسيدًا وحصورًا ونبيا من الصالحين» . (٣٩ – آل عمران).

وفى الأناجيل هو «يوحنا». وفى العبرية « يو » اختصار يهوا اسم الله فى العبرية + «حنا» اختصار حنان بنفس المعنى فى العربية أى «حنان من الله». ومن إعجاز القرآن أنه ضمَّن الاسم العبرى فى آية أخرى:

«وآتيناه الحكم صبيا. وحنانا من لدنَّا وكان تقيا» . (١٣ – مريم).

ويسمى «يوحنا المعمدان» لأنه كان يعمد الناس فى ماء الأردن كما سيجئ فيما بعد.

مولده وشبابه :

سبق أن ذكرنا (ص ١٩) أن يحيى هو ابن زكريا الشيخ من زوجته إليصابات وكان أكبر من عيسى بستة أشهر. وقد عينت الكنيسة يوم ميلاده فى ٢٤ يونيو (حزيران) أى عندما يأخذ النهار فى النقصان وعيد ميلاد المسيح فى ٢٥ ديسمبر (كانون الأول) أى عندما يأخذ النهار فى الزياده استنادا إلى الفقره من الإنجيل (يوحنا ٣:٣٠) والتى تقول: «ينبغى أن ذلك يزيد وأنا أنقص».

وأرجح الأقوال أنه ولد فى قرية «عين كارم» إحدى ضواحى أورشليم ناحية الجنوب. ولا يُعلم شيئ عن حداثته. ولكن لما بلغ سن الرجوله نراه ناسكا وزاهدا يُخضِع نفسه بكثرة الصوم والتذلل إلى الله مرتديا أخشن الثياب – عباءة من وبر الإبل – مقتديا فى ذلك بإيليا النبى وشاداً على وسطة منطقة من جلد الإبل ويتقوّت بطعام النسّاك الفقراء: الجراد والعسل البرى.

وراح يجوب القرى والمدن يُبكت الناس على خطاياهم ويدعوهم إلى التوبة وكان قد انتقل إلى بلدة «عبرة» بجوار نهر الأردن حيث كان يعمّد الناس هناك ويطهّرهم من خطاياهم.

التعميد : فى الانجليزية يسمى Baptism مشتقة من الفعل اليونانى baptizo بمعنى يغطّس أو الغسل فى الماء. وهى إحدى شعائر التطهير فى اليهودية والمسيحية. وحينما أراد موسى عليه السلام أن ينصب هارون كاهنا أكبر لبنى إسرائيل كما سبق أن ذكرنا (جـ ٤ ص ١٠٢٤) «قدم موسى هارون وبنيه وغسلهم بماء وجعل عليه القميص ونطّقه بمنطقة وألبسه الجبة» (لاويين ٨:٦). وفى خروج ١٩: ١٠ «فقال الرب لموسى اذهب إلى الشعب وقدّسهم اليوم وغدا وليغسلوا ثيابهم». وكان التعميد الذى يقوم به يحيى يتبع التعاليم الموسوية ولكنه كان خاصا بالتوبة لأن مجئ المخلّص قد قرب وهو يقوم بتمهيد الطريق لمجيئه.

صوت صارخ فى البرية :

وسمع كهنة أورشليم بما يفعل يحيى وبما يقول فأرسلوا إليه كما جاء فى الإنجيل (يوحنا ١: ١٩) «وهذه هى شهادة يوحنا حين أرسل اليهود من أورشليم كهنة ولاويين ليسألوه من أنت؟ فاعترف ولم ينكر وأقر إنى لست أنا المسيح. فسألوه إذن ماذا. إيليا أنت؟ (كان إيليا قد رفع إلى السماء فكان سؤالهم إن كان هو وقد عاد إلى الأرض) فقال لست أنا. النبى أنت فأجاب لا فقالوا له من أنت لنعطى جوابا للذين أرسلونا. ماذا تقول عن نفسك؟ قال: **أنا صوت صارخ فى البريّة**. قوّموا طريق الرب كما قال إشعياء النبى. وكان المرسلون من الفريسيين (جـ ٥ ص ٤٩١ – وهم يؤمنون بالمسيح الذى سيجئ ليعيد ملكوت الله ودولة اليهود) فسألوه وقالوا له فما بالك تعمّد إن كنت لست المسيح ولا إيليا ولا النبى؟ أجابهم يوحنا: أنا أعمّد بماء ولكن فى وسطكم قائم الذى لست تعرفونه. هو الذى يأتى بعدى الذى صار قدامى الذى لست مستحقا أن أحل سيور حذائه. كان هذا فى بيت عَبْرَة فى عبر الأردن حيث كان يوحنا يعمّد. وفى الغد نظر يوحنا وإذا يسوع مقبلا إليه. فقال هوذا حَمَلُ الله الذى يرفع خطيئة العالم هو ذا الذى قلت عنه: يأتى بعدى رجل صار قدامى لأنه كان قبلى ولم أكن أعرفه ولكن ليُظهَرَ لإسرائيل لذلك جئت أعمّد بالماء. وهذا هو الذى يُعمّد بالروح القدس».

وهكذا تعرَّف يحيى على السيد المسيح بأنه هو المخلِّص المرسَل إلى بنى إسرائيل وكما سبق أن قلنا إن يحيى وُلِد قبل المسيح بسته أشهر. أى أن المسيح كان بعده. ثم صار قبله فى المكانة من الله - ولكن يوحنا لم يعلن ذلك وترك الأمر للمسيح يعلنه بنفسه فى الوقت الذى يحدده له الله سبحانه وتعالى.

ويستمر الإنجيل قائلا: حينئذ خرج إليه (أى إلى يحيى) أورشليم وكل اليهودية وجميع الكورة (المناطق) المحيطة بالأردن واعتمدوا منه فى الأردن معترفين بخطاياهم (الاعتماد يتضمَّن الاعتراف بالخطايا أمام النبى أو الكاهن الذى يقوم بتغطيس جسد الشخص فى الماء). فلما رأى كثيرين من الفريسيين والصدوقيين يأتون إلى معموديته قال لهم: يا أولاد الأفاعى. من أراكم أن تهربوا من الغضب الآتى. فاصنعوا أثمارا تليق بالتوبة ولا تفتكروا أن تقولوا فى أنفسكم لنا إبراهيم أبا لأنى أقول لكم إن الله قادر أن يقيم من هذه الحجارة أولادا لإبراهيم» وهو يقصد أن الأمة اليهودية لا تمتلك أى امتياز فى عينى الله بتسلسلهم من إبراهيم وأن الله قادر أن يعطى الريادة لأمة أخرى أكثر تقوى.

ويستمر قائلا: «والآن وقد وُضِعت الفأس على أصل الشجر. فكل شجرة لا تصنع ثمرا جيدا تقطع وتلقى فى النار. أنا أعمدكم بماء للتوبة ولكن الذى يأتى بعدى هو أقوى منى الذى لست أهلا أن أحمل حذاءه. هو سيعمِّدكم بالروح القدس ونار» (مت ٣:٩ - ١٢) (والمقصود هنا أن النار تحرق خطايا المؤمن) .

يحيى يعمِّد المسيح :

(مت ٣ : ١٣) «حينئذ جاء يسوع من الجليل إلى الأردن إلى يوحنا المعمدان ليعتمد منه ولكن يوحنا منعه قائلا: أنا محتاج أن أعتمد منك وأنت تأتى إلىَّ! فأجاب يسوع وقال له: اسمع الآن لأنه هكذا يليق بنا أن نكمِّل كل بر. حينئذ سمح له. فلما اعتمد يسوع صعد الوقت من الماء. وإذا السموات قد انفتحت له فرأى روح الله نازلا مثل حمامة وآتيا عليه».

وقد أثار البعض مسألة أن يسوع لم يكن له خطايا ليعترف بها أثناء التعميد ومع ذلك أصرَّ على أن يتعمَّد من يحيى الذى أمسك بجسده الطاهر وغطَّسه فى الماء ويرى كثير من أهل الكتاب أن المسيح ارتضى لنفسه أن يُعمِّده يحيى مع أنه لم يكن فى حاجة لهذا التعميد ولكنه أوضح أنه يعتمد «لأنه هكذا يليق بنا أن نُكمِّل كل بر» (متى ٣:١٥). ذلك أنه لم يشأ أن يكسر القواعد المعمول بها وأراد أن يتمشَّى مع هذه القواعد ليكون النبى والكاهن الأعظم حسب الشريعة الموسوية إذ يقضى قانون اللاويين أن يتطهَّر جميع الكهنة حينما يبلغون سن الثلاثين وذلك يتضمَّن الاغتسال ثم المسح بالدهن. ويرى أهل الكتاب أنه بعد أن أغتسل المسيح فى

النهر فُتحت أبواب السماء ونزل الروح القدس عليه عوضا عن المسح بالدهن ليكون مسيحا سماويا إلى الأبد.

يحيى وهيرودس أنتيباس :

قلنا سابقا (ص ١٤) إن هيرودفيلبس كان متزوجا من هيروديا الجميلة وكان حاكما على باشان وكان أخوه هيرودأنتيباس حاكما على الجليل وبيريا. وفي زيارة له لأخيه فيلبس قابل هيروديا وشغف بها وهي أيضا شغفت به فافتعلت شجارا مع زوجها فطلقها. فلجأت إلى أخيه أنتيباس الذي تزوجها. وعارض يحيى المعمدان هذا الزواج وراح يندد به في كل مكان واصفا إياه بأنه «زنا» وليس زواجا تقره الشريعة. يرى البعض إن هيروديا انتظرت حتى توفي زوجها فيلبس فلجأت إلى أنتيباس وتزوجته. وحتى لو كان ذلك صحيحا فإنها أيضا لا تحل له لأن أحكام الشريعة اليهودية تقضي بالآتي:

- إذا كان هناك أخوين يعيشان تحت سقف واحد ومات أحدهما فإن شقيق الزوج يجب عليه أن يتزوج زوجة أخيه ويحمل أولاده منها اسم عمهم المتوفى.

- إذا كانت الزوجة قد أنجبت أبناء من الزوج المتوفى ولم يكن الأخوان يعيشان تحت سقف واحد فيحرم على الزوجة الزواج ثانية إطلاقا بل تبقى لتربية أبنائها.

ولما كان لهيروديا ابنة اسمها سالومى من زوجها فيلبس فإنها بحكم الشريعة لا تستطيع الزواج من أنتيباس حتى بعد وفاة زوجها فيلبس . ولكن العاشقان ضربا بأحكام الشريعة عرض الحائط وتزوجا. ولما أصر يحيى عليه السلام على معارضة هذا الزواج قام أنتيباس بالقبض عليه ووضعه في السجن.

قتل يحيى عليه السلام :

جاء في الإنجيل (متى ١٤:٦) : «لأن هيرودس أنتيباس نفسه كان قد أرسل وأمسك يوحنا وأوثقه في السجن من أجل هيروديا امرأة فيلبس أخيه إذ كان قد تزوج منها لأن يوحنا كان يقول لهيرودس (أنتيباس): لا يحل أن تكون لك امرأة أخيك. فحنقت هيروديا عليه وأرادت أن تقتله. ولم تقدر لأن هيرودس أنتيباس كان يهاب يوحنا عالما أنه رجل بار وقدِّيس وكان يحفظه. ثم لما صار مولد هيرودس (عيد ميلاده) رقصت ابنة هيروديا (سالومى) في الوسط فسرَّت هيرودس ومن ثم وعد بقسم أنها مهما طلبت يعطيها. فهي إذ كانت تلقنت من أمها قالت أعطني هنا على طبق رأس يوحنا المعمدان. فاغتم الملك. ولكن من أجل الأقسام والمتكئين معه

(أى الضيوف) أمر أن يُعطَى. وقطع رأس يوحنا فى السجن فأحضر رأسه على طبق ودفع إلى الصبية فجاءت به إلى أمها. فتقدم تلاميذه ورفعوا الجسد ودفنوه ثم أتوا وأخبروا يسوع».

بعد مقتل يحيى بدأ عيسى عليه السلام عمله النبوى.

الفصل السادس

عيسى عليه السلام

الإســـم :

هو فى اللغة العبرية «يشوع». وكان يهود ونصارى الجزيزة العربية ينطقونها «يسوع» لأن الشين فى العبرية تُقلب إلى سين فى العربية. و«يسوع» هو الاسم الذى ورد فى الترجمات العربية للإنجيل أما لماذا قال القرآن الكريم «عيسى» ولم يقل يسوع فلأن يسوع مشتق من الفعل ساع يسوع سوعاً بمعنى هلك وضاع، وساعت الإبل أو الماشية ذهبت فى المرعى أو تركت بلا راعٍ (المعجم الوسيط جـ ١ ص ٤٦٤) وعيسى لم يهلك على الصليب كما يعتقدون. وقال بعض الصوفية إن عيسى جاءت من «عسى» ذلك الفعل الذى يفيد الرجاء . فهو المرجوّ الذى فيه الرجاء. ويرى الأستاذ رؤورف أبو سعدة (من إعجاز القرآن جـ ٢ ص ٢٧٠) أن «عيسى» مشتق من الفعل ثلاثى معتل الوسط «عاس. يعيس». وعاس على عياله كدَّ وكدح عليهم وعاس ماله أحسن القيام عليه. والأعيس من الإبل الكريم منها وجمعها عيس. واشتقاق الاسم «عيسى» يكون بمعنى الكريم الذى كدح وكدَّ فى مهمته وأحسن القيام عليها. وهل هناك كدٌّ وكدح حتى يصبح على قيد شعرة من الصلب فلا يزيده هذا إلا تمسكًا بالله ورضوخا لمشيئته !

أما الاسم الثانى «المسيح» فقد سمَّاه به الله عز وجل قبل ولادته **«إذ قالت الملائكة يا مريم إن الله يبشُرك بكلمة منه اسمه المسيح عيسى ابن مريم وجيها فى الدنيا والآخرة ومن المقربين»** (٥٤ - آل عمران). والمسيح معناه فى مصطلح اليهود «الذى مُسِحَ بدهن البركة» بأن صُبَّ زيتُ الزيتون على رأسه. والمَسحُ بهذه الطريقة أحد طقوس الديانة اليهودية. يَرسم بها الكاهن كاهنا مثله أو يرسم بها نبى نبيا كما فعل صموئيل النبى مع داود عليه السلام (جـ ٥ ص ٩١) أو يرسم بها النبى ملكا. كما فعل صموئيل النبى مع طالوت (جـ ٥ ص ٧٦) «إذ أخذ صموئيل قنينة الدهن وصبَّ على رأس شاول وقبَّله وقال: إن الرب قد مسحك على إسرائيل رئيسا». أما عن عيسى فلم يمسحه كاهن ولا نبى بل سمَّاه الله «المسيح» دلالة على أن الله هو الذى مسحه ولذلك عُرِّف بالألف واللام فأصبح اسم «المسيح» علماً عليه وحده. وبهذا الاسم «المسيح» - دون ذكر اسم عيسى - ورد ذكره فى القرآن الكريم فى ثمانى مواضع: فى الآية ١٧٢ - النساء (مرَّتان) و ١٧ المائدة (مرتان)، ٧٢ - المائدة و ٧٥ - المائدة و ٣٠ و ٣١ التوبة.

رسالة عيسى عليه السلام:

رسالة عيسى عليه السلام ثابتة فى القرآن الكريم فى عدة آيات:

«ويعلمه الكتاب والحكمة ورسولا إلى بنى إسرائيل». (٤٨ – ٤٩ آل عمران)

«وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم» . (٦ – الصف).

ويقول المسيح عن نفسه «لم أرسل إلاّ إلى خراف بيت إسرائيل الضالة» (متى ١٥ : ٢٤).

ومن هذا يتبين أن عيسى عليه السلام كان رسولاً إلى قومه – بنى إسرائيل – ولكن رسالة عيسى لم تكن امتدادا لرسالة موسى كما يتضح من قوله تعالى: **«ومصدقًا لما بين يدى من التوارة ولأحل لكم بعض الذى حُرِّم عليكم وجئتكم بآية من ربكم فاتقوا الله وأطيعون».**

(٥٠ – آل عمران).

فقد أحل عيسى عليه السلام لحوم الإبل وشحومها وأنواعاً من السمك والطير كانت محرمة فى الشريعة اليهودية. وغير ذلك من محرمات ليس هنا محل ذكرها. ولكن اليهود لم يعترفوا بعيسى نبيا ولذلك أصبحت المسيحية شريعة قائمة بذاتها تختلف عن الشريعة الموسوية. كذلك فإن عيسى عليه السلام لما أحس أن اليهود ينكرونه ويريدون به شرا وأنهم سيفعلون ذلك أيضا بتلاميذه قال لهم (مرقس ١٣ : ٩): «لأنهم سيسلمونكم إلى مجالس وتُجلدون فى مجامع وتوقفون أمام ولاة وملوك من أجلى شهادة لهم. وينبغى أن يُكرز أولا بالإنجيل فى جميع الأمم». وبهذا لم تبق دعوته قاصرة على بنى إسرائيل بل تعدّتهم إلى الأمميين وبذلك أصبحت المسيحية ديانة عالمية.

التجربة مع الشيطان:

يرى أهل الكتاب أن عيسى عليه السلام – قبل أن يبدأ عمله النبوى – كان لابد أن يمر بتجربة مع الشيطان الغرض منها تحدى قوة الشيطان وسيطرته على عقول الناس وإضلالهم فكان لزاما أن يلتقى مع ذلك العدو ويهزمه. وكان ميدان اللقاء بعيدا عن الناس وكان التحدى فى عدة نقاط:

١ – جاء فى الإنجيل (متى: ٤ : ١): ثم أصعِد يسوع إلى البرية من الروح ليُجرَّب من إبليس. فبعد ما صام أربعين نهارا وأربعين ليلة جاع أخيرا. فتقدم إليه المجرِّب وقال له إن كنت رسول الله فقل أن تصير هذه الحجارة خبزا. فأجاب وقال: مكتوب ليس بالخبز وحده يحيا الإنسان بل بكل كلمة تخرج من فم الله.

٢ – ثم أخذه إبليس إلى المدينة (أورشليم) وأوقفه على جناح الهيكل وقال له إن كنت رسول

الله فاطرح نفسك إلى أسفل لأنه مكتوب أنه يوصى ملائكته بك فعلى أيديهم يحملونك لكى لا تصطدم بحجر برجلك. قال له يسوع: مكتوب أيضا لا تجرِّب الرب إلهك.

٣ – ثم أخذه أيضا إبليس إلى جبل عال جدا وأراه ممالك العالم ومجدها وقال له أعطيك هذه جميعا إن خررت وسجدت لي. حينئذ قال له يسوع اذهب ياشيطان لأنه مكتوب: للرب إلهك تسجد وإياه وحده تعبد. ثم تركه إبليس، وإذا ملائكة قد جاءت فصارت تخدمه.

وصف عيسى ليحيى عليهما السلام:

سبق أن ذكرنا (ص ٤٦) أن هيرودس أنتيباس وضع يحيى عليه السلام (يوحنا المعمدان) فى السجن. ويقول الإنجيل (متى ١١ : ٢): أما يوحنا فلما سمع فى السجن بأعمال المسيح أرسل اثنين من تلاميذه وقال له أنت هو الآتى أم ننتظر آخر؟ فأجاب يسوع وقال لهما اذهبا وأخبرا يوحنا بما تسمعان وتنظران: العمى يبصرون والعرج يمشون والبُرص يُطَهَّرون والصم يسمعون والموتى يقومون والمساكين يبشرون وطوبى لمن لا يعثر فيَّ.

لم يشأ عيسى أن يقول عن نفسه أنه هو المخلِّص الذى بشَّر به الأنبياء السابقون بل ترك يحيى ليستخلص هذه النتيجة بنفسه بعد أن يعرف المعجزات التى يجريها الله على يديه. ثم بدأ عيسى فى بيان مكانة يوحنا المعمدان وأنه كان الصوت المبشِّر بقدومه فيقول(متى ١١ : ٧): «ابتدأ يسوع يقول للجموع عن يوحنا. ماذا خرجتم إلى البرية لتنظروا؟ أقصبة تحركها الرياح (أى شيئا عاديا يحدث كل يوم؟ وهو سؤال استنكارى للنفى) ولكن ماذا خرجتم لتنظروا. أإنسانا لابسا ثيابا ناعمة. هو ذا الذين يلبسون الثياب الناعمة هم فى بيوت الملوك (وهى إشارة إلى الثياب الخشنة التى كان يلبسها يوحنا). لكن ماذا خرجتم لتنظروا؟ أنبيًا؟ نعم أقول لكم، وأفضل من نبى. فإن هذا هو الذى كتب عنه هاأنا أرسل أمام وجهك ملاكى الذى يهيىء طريقك قدامك. الحقَّ أقول لكم. لم يقم بين المولودين من النساء أعظم من يوحنا المعمدان. لأنه جاء يوحنا لا يأكل ولا يشرب فيقولون فيه شيطان. جاء ابن الإنسان (أى عيسى) يأكل ويشرب فيقولون هو ذا إنسان أكول وشريب خمر محب للعشارين والخطاة. والحكمة تبررت من بنيها.

عيسى يبدأ دعوته فى كفر ناحوم:

لما علم عيسى أن يحيى (يوحنا المعمدان) قد قتل ترك الناصرة وسكن فى «كفر ناحوم» التى تقع على الشاطىء الغربى لبحر الجليل (شكل ١٢ ص ٤٢) وجعلها مركزا له. وقد أتى عيسى عليه السلام فى هذه المدينة بعديد من المعجزات – سنذكرها فيما بعد – ولكن أهلها لم

يؤمنوا ولهذا تنبأ بخرابها (متى ١١ : ٢٣) «وأنتِ يا كفر ناحوم المرتفعة إلى السماء ستهبطين إلى الهاوية» وقد تم خراب هذه المدينة فى وقت لاحق كما تنبأ السيد المسيح. ويرجَّح أن كفر ناحوم هى حاليا «تل حوم» التى تبعد ٤ كم إلى الجنوب الغربى من مصب نهر الأردن فى بحر الجليل. وقد وجدت فى تل حوم آثار مجمع لليهود يقع فى مكان المجمع الذى وعظ فيه المسيح (قاموس الكتاب المقدس. دار الثقافة. ص ٧٨٣).

الحواريون الأربعة الأوائل:

يقول الإنجيل (مرقس ١ : ١٤) وبعد ما أُسلمَ يوحنا (أى قتل) جاء يسوع إلى الجليل يكرزُ (أى يُبشِّر) ببشارة ملكوت الله ويقول «قد كمل الزمان واقترب ملكوت الله فتوبوا وآمنوا بالإنجيل».

وفيما هو يمشى عند بحر الجليل أبصر **سمعان وأندراوس** أخان يلقيان شبكة فى البحر فإنهما كانا صيادَين. فقال لهما يسوع. هلم ورائى فأجعلكما تصيران صيادى الناس. فللوقت تركا شباكهما وتبعاه. ثم اجتاز من هناك قليلا فرأى **يعقوب بن زبدى ويوحنا** أخاه وهما فى السفينة يصلحان الشباك فدعاهما للوقت فتركا أباهما زبدى فى السفينة مع الأجراء وذهبا وراءه».

فكان هؤلاء الأربعة هم أول الحواريين الذين لازموا المسيح فى تنقلاته.

(متى ٤ : ٢٢) «وكان يسوع يطوف كل الجليل يُعلِّم فى مجامعهم ويكرز بشارة الملكوت ويشفى كل مرض وكل ضعف فى الشعب فذاع خبره فى سورية فأحضروا إليه جميع السقماء المصابين بأمراض وأوجاع مختلفة والمجانين والمصروعين والمفلوجين فشفاهم. فتبعته جموع كثيرة من الجليل والعشر مدن وأورشليم واليهودية ومن عبر الأردن».

«الأب» و «الآب» و «أبى» و «أبوكم»:

«الأب» فى حق الله عز وجل - أراميا وعبريا - لغة المسيح عليه السلام - تعنى الرب الإله. ولقد تردد فى أقوال المسيح قوله «أبى الذى فى السموات» و «أبوكم» الذى فى السموات. ولا يُتخيلُ أن المسيح عليه السلام حينما يقول لتلاميذه «أبوكم الذى فى السموات» يقصد أبوَّة حقيقية ولكنه يقصد «ربكم الذى فى السموات». وحينما يقول المسيحى فى صلاته «أبانا الذى فى السموات» فهو يقصد أيضا «ربنا الذى فى السموات». وهناك معنى مجازى. وهو أن الأب فى العائلة هو الذى يرعى أولاده فيكفل لهم الرزق وأسباب المعيشة فكذلك الله رب السموات هو الذى يكفل الرزق لعباده. ومن هذا المنطلق فكل العباد عيال على الله سبحانه وتعالى. إلا

أن بعض اليهود والنصارى فهموا من قول المسيح لهم. «أبوكم الذى فى السموات» أن لهم وضعا متميزا عن جميع الخلق. وذلك ما نعاه عليهم القرآن الكريم ونفاه فى قوله تعالى: **«وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه. قل فلم يعذبكم بذنوبكم، بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ولله ملك السموات والأرض وما بينهما وإليه المصير»** (١٨ - المائدة). وهكذ وضع القرآن الكريم هذه الأبوة التى ذكرها المسيح عليه السلام. فى موضعها الصحيح. فهم بشر مثل سائر البشر الذين خلقهم الله وإن كان هناك أفضلية فهى مرتبطة بمدى تمسكهم بالأوامر والنواهى التى جاء بها المسيح ومن قبله موسى عليهما السلام.

وقياسا عليه فلا يجب أن يفهم من قول المسيح عن نفسه «أبى الذى فى السموات» أنه يعتقد فى بنوة حقيقية لله سبحانه وتعالى تضفى عليه صبغة إلهية فهى بنوة مجازية حيث لا أب له من البشر بل بكلمة من الله - وروح منه - تخلَّق فى رحم مريم العذراء وولد كما يولد سائر البشر. وما ذلك على الله بعزيز. وها نحن نرى فى أيامنا هذه استنساخ المخلوقات. فمن خلية واحدة يتكون حيوان كامل. وقوله تعالى: **«والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا»** (٩١ - الأنبياء). وعليه يمكننا أن نفترض أن النفخة الإلهية سبَّبت إنقسام البويضة - دون أن يخصبها حيوان منوى - وتوالى انقسام البويضة حتى تكون الجنين الذى شاء الله له أن يوجد بدون أب. وقد حدث شىء مثل ذلك عند خلق آدم عليه السلام: **«وإذ قال ربك للملائكة إنى خالق بشرا من طين فإذا سويته ونفخت فيه من روحى فقعوا له ساجدين»** (٧٢ - ص). ولا يدَّعى أحد أن آدم هو ابن الله اعتماداً على أنه **«نفخ فيه من روحه»** كما ادعوا أن المسيح هو ابن الله استناداً إلى النفخة الإلهية فى رحم مريم البتول **«والتى أحصنت فرجها فنفخنا فيها من روحنا»** (٩١ - الأنبياء). وهكذا يتساوى آدم وعيسى فى خلقهما **«إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون»** (٥٩ - آل عمران). كما أن هذا نفى للألوهية عن الروح القدس (جبريل) أيضا فلا تبقى إلا ألوهية الله وحده. وهذا ما أكده عيسى عليه السلام كما جاء فى إنجيل مرقس (٢٨:١٢) «فجاء واحد من الكتبة وسأله أيَّة وصية هى أول الكل. فأجابه يسوع: إن أول كل الوصايا هى اسمع يا إسرائيل. الرب إلهنا إله واحد وتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك ومن كل قدرتك. هذه هى الوصية الأولى».

كما أن عيسى عليه السلام كان كثيرا ما يقول عن نفسه «ابن الإنسان» أى أنه كان يؤكد على أنه «ابن إنسان» نفيا لما قد يفهم خطأ من قوله «أبى الذى فى السموات».

وأخيرا فإن موسى عليه السلام استعمل كلمة «أباك» وهو يقصد «ربك» حينما قال لبنى إسرائيل (تثنية ٢ : ٦): الرب تكافئون بهذا ياشعبا غبيا وغير حكيم. أليس هو أباك ومُقتنيك. هو عملك وأنشأك».

ولكن المسيحيين المتأخرين تأثروا بما أجراه الله على يدى عيسى من المعجزات، وقصروا معنى «أبى الذى فى السموات» على أبوّه حقيقية متأثرين بآراء بولس الرسول المنادية بالتثليث.

كذلك جاء وصف عيسى بأنه «فتاى» فى إنجيل متى (١٢: ١٦): «لكى يتم ما قيل بإشعياء النبى القائل: هو ذا فتاى الذى اخترته، حبيبى الذى سُرّت به نفسى. أضع روحى عليه فيخبر الأمم بالحق. لا يخاصم ولا يصيح ولا يسمع أحد فى الشوارع صوته. قصبة مرضوضة لا يقصف وفتيلة مدخنة لا يطفىء حتى يخرج الحق إلى النصرة وعلى اسمه يكون رجاء الأمم». والفقرة الواردة فى إشعياء (٤٢ : ١) تقول: «هو ذا عبدى الذى أعضده، مختارى الذى سُرّت به نفسى وضعتُ روحى عليه فيخرج الحق للأمم. لا يصيح ولا يرفع ولا يُسمعُ فى الشوارع صوته. قصبة مرضوضة لا يقصف وفتيلة خامدة لا يطفىء. إلى الأمان يُخرج الحق، لا يكلُّ ولا ينكسر حتى يضع الحق فى الأرض وتنتظر الجزائر شريعته.هكذا يقول الله الرب خالق السموات وناشرها، باسط الأرض وتتائجها، مُعطى الشعب عليها نسمة والساكنين فيها روحا. أنا الرب قد دعوتك بالبر فأُمسك بيدك وأحفظك وأجعلك عهدا للشعب نورا للأمم. لتفتح عيون العمى، لتخرج من الحبس المأسورين من بيت السجن الجالسين فى الظلمة».

ونلاحظ هنا أن عيسى عليه السلام أشير إليه بلفظ «هو ذا فتاى» ومرة أخرى «هو ذا عبدى». ثم جاء وصف لبعض أخلاقه: هدوء الطبع ولطف الطباع ولم يرتكب أى إثم ولو بسيط كأن تكون عصا (قصبة) مكسورة فلا يكسرها ثانية أو فتيلة قد أوشكت على الانطفاء فلم يقم بإطفائها كناية عن أنه ما داس قط أو طرد أحدا ولو ضعيف الإيمان وما قسا أبدا على ضمير مجروح. ثم أشارت نهاية الفقرة إلى أنه سيخرج المؤمنين من سجن الخطيئة إلى حرية الإيمان بالله ومن ظلمات الشرك إلى نور الإيمان. وهو فى هذا لا يختلف عن رسالة غيره من الأنبياء والمرسلين.

الحواريون أو التلاميذ الاثنا عشر:

حور العين شدة بياض بياضها وشدة سواد سوادها (القاموس المحيط جـ ٢ ص ١٥) والحوارى فى اللغة مبيض الثياب، وهو أيضا الشخص الذى أخلص واختير ونُقّىَ من كل عيب. ويقال هو حوارى فلان أى خاصته من أصحابه وناصره وجمعها حواريون. والحواريون أنصار عيسى عليه السلام (المعجم الوسيط جـ ١ ص ٢٠٤): وأهل الكتاب يسمونهم تلاميذ.

يقول الإنجيل (متى ٨ : ١٨): «ولما رأى يسوع جموعا كثيرة خرج إلى مكان أرحب. فتقدم كاتب وقال له يا معلّم أتبعك أينما تمضى. فقال له يسوع: للثعالب أوجرة (الوجار جحر الضبع والأسد والذئب والثعلب ونحو ذلك وجمعها أوجرة ووُجُر. المعجم الوسيط جـ ٢ ص ١٠٢٥)

ولطيور السماء أوكار وأما ابن الإنسان فليس له أين يُسند رأسه». وفى هذه الإجابة تبصرة لما قد يجابهه من متاعب إذا تبعه لأنه قد لايجد مكانا يأوى إليه لأنه هو نفسه – المسيح – ليس له بيت يسند رأسه فيه. «وقال له آخر من تلاميذه. ياسيد ائذن لى أن أمضى أولا وأدفن أبى. فقال له يسوع اتبعنى. ودع الموتى يدفنون موتاهم» ويرى مفسرو أهل الكتاب أن والد ذلك التلميذ لم يكن قد مات وإلا فإنه لا يعقل أن يمنعه المسيح من تقديم هذه الشعيرة الأخيرة – وهى الدفن – نحو والده. وإنما كان والده مريضا جدا وقد يطول الوقت لحين وفاته وإن انتظره تفوت على التلميذ فرصة مرافقة المسيح مع ما فى هذه المرافقة من منافع تساوى الحياة نفسها فأمره أن يتبعه ويترك والده لإخوته يدفنونه عن وفاته – وهم فى هذه الحالة – عدم اتباعه – كأنهم موتى معنويون ويدفنون ميتا حقيقا هو والدهم. «دع الموتى يدفنون موتاهم» ويزيد إنجيل لوقا «واذهب أنت ونادِ بملكوت الله» أى أن تلك هى الحياة الحقيقية.

وقال آخر (لوقا ٩ : ٦٢) «أتبعك ياسيد ولكن ائذن لى أولا أن أودع الذين فى بيتى. فقال له يسوع ليس أحد يضع يده على المحراث وينظر إلى الوراء يصلح لملكوت الله» والمعنى أن من يريد أن يتبعه عليه أن يفرغ قلبه كلية من مشاغل الدنيا وحتى من الارتباط بالأهل ليكون أهلا للفيض الإلهى الذى سيسبغه الله عليه.

وحينما استأنف يسوع رحلته تبعته جموع غفيرة. كلٌ رغب أن يكون ملازما وتلميذا له. ولكن عيسى أراد أن يوقف هذا الحماس الزائد لدى الجماهير ويبين لهم شروط التلميذة وتبعاتها.

١ – وكان أول هذه الشروط أن يختار بين أقرب المقربين إليه وبين المسيح. أى أن يكون المسيح أحبٌ إليه من أى شخص آخر حتى من نفسه. وفى هذا يقول إنجيل لوقا (١٤ : ٢٥): «وكان جموع كثيرة سائرين معه فالتفت وقال لهم: إن كان أحد يأتى إلىٌ ويحب أباه وأمه وامرأته وأولاده وإخوته وأخواته حتى نفسه أيضا فلا يقدر أن يكون لى تلميذا». وهذا هو نفس المعنى الذى جاء فى القرآن الكريم: **«قل إن كان آباؤكم وأبناؤكم وإخوانكم وأزواجكم وعشيرتكم وأموال اقترفتموها وتجارة تخشون كسادها ومساكن ترضونها أحب إليكم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله فتربصوا حتى يأتى الله بأمره والله لا يهدى القوم الفاسقين»** (٢٤ – التوبة). فهذه الآية توضح أن يكون الله ورسوله أحبٌ إلى المرء مما سواهما وأن يكون مستعدا للجهاد والموت فى سبيل الله.

٢ – وكان ثانى الشروط التى وضعها المسيح عليه السلام لتلاميذه ليتبعوه ويرافقوه هو أن يكونوا مستعدين للموت فى سبيل عقيدتهم فقال: «ومن لا يحمل صليبه ويأتى ورائى فلا يقدر أن يكون لى تلميذا» والمعنى أن يكون مستعدا للصلب على خشبة. وكما نقول فى عصرنا «يحمل كفنه على يديه» كناية عن توقعه وقبوله للموت فى أى لحظة.

٣ – وكان ثالث شرط هو أن يعلم أن التلمذة لها تبعات أخرى وعليه أن يعيها منذ البداية ويتحملها حتى النهاية. وعليه أن يثبت فى طريق الله ولا ينكص على عقبيه إذا ناله إضطهاد أو تعذيب، وهو نفس المعنى الوارد فى قوله تعالى «**ومن الناس من يعبد الله على حرف فإن أصابه خير اطمأن به وإن أصابته فتنة انقلب على وجهه خسر الدنيا والآخرة، ذلك هو الخسران المبين**» (١١ – الحج). ويضرب عيسى عليه السلام مثلين ليبيّن لمن يريد اتباعه أن يتبين موقع خطواته ويُقدر التبعات التى ستلقى عليه والصعاب التى سيجابهها ويرى إن كان قادرا على تحملها فيقول: «ومن منكم وهو يريد أن يبنى برجا لا يجلس أولا ويحسب النفقة هل عنده ما يلزم لكماله لئلا يضع الأساس ولا يقدر أن يكمّل فيبتدىء جميع الناظرين يهزأون به قائلين هذا الإنسان ابتدأ يبنى ولم يقدر أن يكمل. وأى ملك إن ذهب لمقاتلة ملك آخر فى حرب لا يجلس أولا ويتشاور هل يستطيع أن يلاقى بعشرة آلاف الذى يأتى عليه بعشرين ألفا. وإلا فما دام ذاك بعيدا يرسل سفارة ويسأل ما هو للصلح. فكذلك كل منكم لا يترك جميع أمواله لا يقدر أن يكون تلميذا لى» ومعنى هذا أن يترك الدنيا بما فيها من مباهج ولذات ويتبع المسيح ويتوكل على الله توكلا تاما.

ويمكننا أن ندرك لم وضع عيسى عليه السلام هذه الشروط إذا علمنا أن الحواريين سيكونون رسله إلى الناس يبشّرون بملكوت السموات وينقل إليهم بعض المقدرة التى وهبها الله له لشفاء الأمراض (متى ١٠ : ١) «ثم دعا تلاميذه الاثنى عشر وأعطاهم سلطانا على أرواح نجسة حتى يخرجوها ويشفوا كل مرض وكل ضعف».

وقد غيَّر المسيح أسماء بعض الحواريين بعد أن قبلهم كتلاميذ له. وقد سبق أن ذكرنا (ص ٥١) أسماء الحواريين الأربعة الأوائل. ولمَّا بدأ عيسى يأتى بالمعجزات ويشفى المرضى تقاطر عليه الناس والمرضى من كل ناحية بالعشرات والمئات فكان لزاما أن يشاركه تلاميذه فى هذا العبء، يقول الإنجيل (متى : ٩ : ٣٥): «وكان يسوع يطوف المدن كلها والقرى يعلِّم فى مجامعها ويكرز ببشارة الملكوت ويشفى كل مرض وكل ضعف فى الشعب. ولما رأى الجموع تحنَّن عليهم إذ كانوا منزعجين ومنطرحين كغنم لا راعى لها. حينئذ قال لتلاميذه: الحصاد كثير ولكن الفعلة قليلون. فاطلبوا من رب الحصاد أن يرسل فعلة إلى حصاده».

وقد استجاب الله الدعاء وهيأ ثمانية أشخاص آخرين ليكتمل الحواريون إلى اثنى عشر حواريا هم (متى ١٠ : ٢):

١ – الأول سمعان الذى يقال له بطرس ٢ – وأندراوس أخوه.

٣ – يعقوب بن زبدى. ٤ – يوحنا أخوه.

٥ – فيلبس. ٦ – برثولماوس.

٧ – توما. ٨ – متى العشّار.

٩ – يعقوب بن حلفى. ١٠ – لباوس الملقب تداوس.

١١ – سمعان القانوى. ١٢ – يهوذا الأسخريوطى الذى أسلمه.

وصية المسيح للحواريين :

هؤلاء الاثنا عشر أرسلهم يسوع وأوصاهم قائلا: «إلى طريق أمم لا تمضوا وإلى مدينة للسامريين لا تدخلوا». أى لا تبشّروا أقواما ليسوا من اليهود. وكانت توجد فى الجليل مدن يونانية فأوصاهم أن يحصروا عملهم فى المدن اليهودية. والسامريون كما سبق ذكره (جـ ٥ ص ٢٠٦) هم الشعوب الشرقية الذين جلبهم الأشوريون بعد خراب المملكة الشمالية وجاءوا معهم بآلهتهم وأصنامهم. ونشأت ذريتهم يمارسون عبادة الله - كما فى شريعة موسى مع عبادة آلهة آبائهم. وكانوا دائما على عداوة اليهود. فرأى عيس عليه السلام أن لا فائدة من تبشيرهم فمنع الحواريين من دخول مدنهم. ويستمر الإنجيل «بل اذهبوا بالحرى إلى خراف بيت إسرائيل الضالة. وفيما أنتم ذاهبون اكرزوا قائلين إنه قد اقترب ملكوت السموات. اشفوا مرضى. طهروا برصا. أقيموا موتى. أخرجوا شياطين. مجّانا أخذتم مجانا اعطوا. لا تقتنوا ذهبا ولا فضة ولا نحاسا فى مناطقكم. ولا كيس نقود للطريق ولا ثوبين ولا أحذية ولا عصا لأن الفاعل مستحق طعامه. وأى مدينة أو قرية دخلتموها فافحصوا من فيها مستحق. وأقيموا هناك حتى تخرجوا. وحين تدخلون البيت سلّموا عليه. فإن كان البيت مستحقا فليأت سلامكم عليه. ولكن إن لم يكن مستحقا فليرجع سلامكم إليكم. من لا يقبلكم ولا يسمع كلامكم فاخرجوا من ذلك البيت أو من تلك المدينة وانفضوا غبار أرجلكم. الحق أقول لكم ستكون لأرض سدوم وعمورة يوم الدين حالة أكثر احتمالا مما لتلك المدينة (التى ترفضكم).

«ها أنا أرسلكم كغنم فى وسط ذئاب فكونوا حكماء كالحيات وبسطاء كالحمام ولكن احذروا من الناس لأنهم سيسلمونكم إلى مجالس. وفى مجامعهم يجلدونكم وتساقون أمام ولاة وملوك من أجلى شهادة لهم وللأمم. فمتى أسلموكم فلا تهتموا كيف أو بما تتكلمون. لأنكم تُعطَوْن فى تلك الساعة ما تتكلمون به. لأن لستم أنتم المتكلمين بل روح أبيكم (ربكم) الذى يتكلم فيكم. وسيسلم الأخ أخاه إلى الموت والأب ولده ويقوم الأولاد على والديهم ويقتلونهم وتكونون مبغضين من الجميع من أجل اسمى ولكن الذى يصبر إلى المنتهى فهذا يَخلُص. ومتى طردوكم فى هذه المدينة فاهربوا إلى الأخرى.

«ليس التلميذ أفضل من المعلم ولا العبد أفضل من سيده. يكفى التلميذ أن يكون كمعلمه والعبد كسيده. الذى أقوله لكم فى الظلمة قولوه فى النور. والذى تسمعونه فى الأذن نادوا به

على السطوح ولا تخافوا من الذين يقتلون الجسد ولكن النفس لا يقدرون أن يقتلوها بل خافوا بالحرى من الذى يقدر أن يهلك النفس والجسد كليهما فى جهنم (أى خافوا من الله).

«من أحب أبا أو أُمًّا أكثر منى فلا يستحقنى، ومن أحب ابنا أو ابنة أكثر منى فلا يستحقنى. ومن لا يأخذ صليبه ويتبعنى فلا يستحقنى. من وجد حياته يضيعها. ومن أضاع حياته من أجلى يجدها. من يقبلكم يقبلنى. ومن يقبلنى يقبل الذى أرسلنى».

ولما أكمل يسوع أمره لتلاميذه الاثنى عشر انصرف من هناك ليعلِّم ويكرز فى مدنهم.

عظـــة الجبـــل

فى هذه العظة لخص عيسى عليه السلام تعاليم المسيحية التى جاء بها والتى أوجزها القرآن الكريم فى قوله تعالى على لسان المسيح مخاطبا بنى إسرائيل: **«ومصدِّقًا لما بين يدىَّ من التوارة ولأُحل لكم بعض الذى حُرِّم عليكم».** (٥٠ – آل عمران).

جاء فى الإنجيل (متى ٥ : ١) ولما رأى الجموع صعد إلى الجبل. فلما جلس تقدم إليه تلاميذه ففتح فاه وعلَّمهم قائلا:

«طوبى للمساكين بالروح لأن لهم ملكوت السموات. طوبى للحزانى لأنهم يتعزون. طوبى للودعاء لأنهم يرثون الأرض. طوبى للجياع والعطاش إلى البر لأنهم يُشبَعون. طوبى للرحماء لأنهم يُرحمون. طوبى للأتقياء القلب لأنهم يعاينون الله. طوبى لصانعى السلام لأنهم أبناء الله يُدعون. طوبى للمطرودين من أجل البر لأن لهم ملكوت السموات. طوبى لكم إذا عيَّروكم وطردوكم وقالوا عليكم كل كلمة شريرة من أجلى كاذبين. افرحوا وتهلَّلوا لأن أجركم عظيم فى السموات فإنهم هكذا طردوا الأنبياء الذين قبلكم.

«أنتم ملح الأرض ولكن إن فسد الملح فبماذا يُملَّح؟ لا يصلح بعدُ لشىء إلا أن يطرح خارجا ويداس من الناس. أنتم نور العالم. لايمكن أن تُخفى مدينة موضوعة على جبل. ولا يوقدون سراجا ويضعونه تحت المكيال بل على المنارة فيضىء لجميع الذين فى البيت. فلْيضىء نوركم هكذا قدام الناس لكى يروا أعمالكم الحسنة ويُمجِّدوا أباكم الذى فى السموات.

لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. ما جئت لأنقض بل لأكمِّل. فإنى والحق أقول لكم إلى إن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل. فمن نقض إحدى هذه الوصايا الصغرى وعلَّم الناس هكذا يُدعىَ أصغَر فى ملكوت السموات. فأما من عمل وعلَّم بها فهذا يُدعى عظيما فى ملكوت السموات. فإنى أقول لكم إنكم إن لم يَزد برُّكم على الكتبة والفريسيين لن تدخلوا ملكوت السموات».

ثم يبدأ عيسى عليه السلام بعد ذلك فى تفصيل ما أوجز عندما قال إنه ما جاء لينقض الناموس بل ليكمله. وهو هنا يضع أول نقطة وهو أن الإنجيل مبنى ومؤسس على العهد القديم. ثم بعد ذلك يغوص فى أعماق النفس البشرية ليطهرها من المشاعر السيئة فعلى سبيل المثال لا يكفى أن تمتنع عن قتل أخيك بل لا يجب أن تقول لأخيك كلمة جارحة تؤذيه ولا حتى أن تحقد عليه أو تغضب منه فى قرارة نفسك. وقس على هذا المنوال فى جميع الأحكام التى وردت فى التوراة.

١ - (متى ٥ : ٢١) قد سمعتم أنه قيل للقدماء «لا تقتل» (وهى الوصية السادسة من الوصايا العشر) ومن قتل يكون مستوجب الحكم (أى تقديمه أمام المحكمة) ومن قال لأخيه رقا (تعبير عبرى للاحتقار) يكون مستوجب المجمع (محاكمة أمام المجلس الأعلى القضائى والمكون من سبعين عضوا ويسمى السنهدرين) ومن قال يا أحمق يكون مستوجب النار - (ويرى بعض مفسرى أهل الكتاب أن المقصود هو نار جهنم فى الآخرة بينما يرى آخرون أن المقصود هو نار وادى هنوم أو وادى القتل التى كان يضحى فيها الوثنيون بأطفالهم تقربا للإله مولوك كما سبق أن ذكرنا فى الجزء الخامس ص ٣٨٠ وكان عبارة عن خندق عظيم تؤجج فيه النار بصفة مستمرة بإلقاء الحطب ومخلفات المدينة وجيف الحيوانات النافقة): فإن قدمت قربانك إلى المذبح وهناك تذكرت أن لأخيك شيئا عليك فاترك هناك قربانك قدام المذبح واذهب أولا اصطلح مع أخيك وبعدئذ تعال وقدّم قربانك. كن مراضيا لخصمك سريعا مادمت معه فى الطريق لئلا يسلمك الخصم إلى القاضى ويسلمك القاضى إلى الشرط فتلقى فى السجن. الحق أقول لك لا تخرج من هناك حتى توفى الفلس الأخير. والمعنى أن الله لا يقبل عبادة أو يتقبل قربانا من امرىء يأكل حقوق الآخرين ولا يوفى ما عليه من دين. ويستمر عيسى عليه السلام قائلا:

٢ - (متى ٥ : ٢٧) قد سمعتم أنه قيل للقدماء لا تزن (وهى الوصية السابعة من الوصايا العشر جـ ٤ ص ٩٩٢). وأما أنا أقول لكم إن كل من ينظر إلى امرأة ليشتهيها فقد زنى بها فى قلبه. فإن كانت عينك اليمنى تعثرك فاقلعها وألقها عنك لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يُلقى جسدك كله فى جهنم. وإن كانت يدك اليمنى تعثرك فاقطعها وألقها عنك لأنه خير لك أن يهلك أحد أعضائك ولا يلقى جسدك كله فى جهنم. وهذا نفس المعنى الوارد فى الحديث الشريف:.. فالعينان تزنيان وزناهما النظر واليدان تزنيان وزناهما البطش. والرجلان تزنيان وزناهما المشى (فى شر) والفم يزنى وزناه القبلة. والقلب يهم أو يتمنى ويصدق ذلك الفرج أو يكذبه. أخرجه مسلم والبيهقى عن أبى هريرة (إحياء علوم الدين. أبى حامد الغزالى جـ ٣ ص ٩٧).

٣ – (متى ٥ : ٣١) : «وقيل من طلق امرأته فليعطها كتاب الطلاق. وأما أنا فأقول لكم إن من طلق امرأته إلا لعلة الزنا يجعلها تزنى ومن يتزوّج مطلقة فإنه يزنى» ومن هذه الفقرة نبع مبدأ تحريم الطلاق فى المسيحية. إلا أنه فى وقت لاحق سُمح به فى حالات زنا الزوجة. وكذلك جاء مبدأ تحريم الزواج من مطلقة فى المذهب الكاثوليكى وإن كان البروتستانت يبيحونه.

٤ – (متى ٥ : ٣٣): « أيضا سمعتم أنه قيل للقدماء لا تحنث بل أوف للرب أقسامك. وأما أنا فأقول لكم لا تحلفوا البتة. لا بالسماء لأنها كرسى الله ولا بالأرض لأنها موطىء قدميه ولا بأورشليم لأنها مدينة الملك العظيم. ولا تحلف برأسك لأنك لا تقدر أن تجعل شعرة واحدة بيضاء أو سوداء. بل ليكن كلامكم نعم نعم لا لا وما زاد على ذلك فهو من الشرير».

تنهى الشريعة الموسوية فى الوصية الثالثة من الوصايا العشر عن الحلف باسم الرب باطلا. ومعنى ذلك أنها سمحت بالحلف ولكن صانته بصدق النية فى تحقيق ما حُلف به. وجاء عيسى بخطوة أخرى ترتكز على أمانة القلب البشرى وصدقه فى الوفاء بالوعد أو صدقه فيما يخبر به. وما دام الأمر كذلك فليس هناك ضرورة للحلف. فمنع الأقسام كليّةً.

٥ – (متى ٥ : ٣٨) «سمعتم أنه قيل عين بعين وسن بسن. وأما أنا فأقول لكم لا تقاوموا الشر. بل من لطمك على خدك الأيمن فحوّل له الآخر أيضا. ومن أراد أن يخاصمك فى ثوبك فاترك له الرداء أيضا. ومن سخّرك ميلا واحدا فاذهب معه اثنين. من سألك فأعطه ومن أراد أن يقترض منك فلا ترده». لم يكن مبدأ القصاص – عين بعين وسن بسن – فى الشريعة الموسوية دعوة لكل من اعتدى عليه أن يأخذ ثأره بنفسه. بل كان توجيها للقضاة بأن الشخص الذى نزل به أذى يُعوَّض من المعتدى بمثل ما نزل به من ضرر. ثم جاء عيسى عليه السلام فأمر بأن يترك القصاص إلى الله كُليّةً وهو الذى يتولى مجازاة المعتدى ومكافأة الصابر على الأذى. إما فى الدنيا أو فى الآخرة.

٦ – (متى ٥ : ٤٣) «سمعتم أنه قيل تحب قريبك وتبغض عدوك. وأما أنا فأقول لكم أحبوا أعداءكم. باركوا لاعنيكم. أحسنوا إلى مبغضيكم. وصلّوا لأجل الذين يسيئون إليكم ويطردونكم لكى تكونوا أبناء أبيكم الذى فى السموات فإنه يشرق شمسه على الأشرار والصالحين. ويُمطر على الأبرار والظالمين لأنه إذا أحببتم الذين يحبونكم فقط فأى فضل تصنعون. أليس العشارون أيضا يفعلون هكذا؟ فكونوا أنتم كاملين كما أن أباكم الذى فى السموات هو كامل».

٧ – فى الصدقة (متى ٦ : ١) «احترزوا من أن تصنعوا صدقتكم قدام الناس لكى

ينظروكم وإلا فليس لكم أجر عند أبيكم الذى فى السموات فمتى صنعت صدقة فلا تصوت قدامك بالبوق كما يفعل المراءون فى المجامع وفى الأزقة لكى يُمجدُوا من الناس. الحق أقول لكم إنهم قد استوفوا أجرهم. وأما أنت فمتى صنعت صدقة فلا تُعرِّف شمالك ما تفعل يمينك لكى تكون صدقتك فى الخفاء. فأبوك الذى يرى فى الخفاء هو يجازيك علانية».

وهناك أحاديث نبوية كثيرة تحث على إخفاء الصدقة حتى لا يداخلها رياء يبطل ثوابها. والأحاديث تمدح ابن آدم حين يتصدق فلا تعلم شماله ما أنفقت يمينه. وفى حديث شريف أن المرائى يقال له يوم القيامة: ضل عملك وحبط أجرك. اذهب فخذ أجرك ممن كنت تعمل له.

٨ – الصلاة (متى ٦ : ٥) «ومتى صليت فلا تكن كالمرائين فإنهم يحبون أن يصلُّوا قائمين فى الجامع وفى زوايا الشوارع لكى يظهروا للناس. الحقَّ أقول لكم إنهم قد استوفوا أجرهم. وأمَّا أنت فمتى صلَّيت فادخل إلى مخدعك وأغلق بابك وَصَلِّ إلى أبيك الذى فى الخفاء. فأبوك الذى يرى فى الخفاء يجازيك علانية. وحينما تُصلُّون لا تكرروا الكلام باطلا كالأمم فإنهم يظنون أنهم بكثرة كلامهم يستجاب لهم. فلا تتشبَّهوا بهم لأن أباكم يعلم ما تحتاجون إليه قبل أن تسألوه. فصلُّوا أنتم هكذا: أبانا الذى فى السموات. ليتقدس اسمك. ليأت ملكوتك لتكن مشيئتك كما فى السماء كذلك على الأرض. خبزنا كفافنا أعطنا اليوم واغفر لنا ذنوبنا كما نغفر نحن أيضا للمذنبين إلينا. ولا تدخلنا فى تجربة. لكن نجنا من الشرير لأن لك الملك والقوة والمجد إلى الأبد آمين. فإنه إن غفرتم للناس زلاتهم يغفر لكم أيضا أبوكم السماوى. وإن لم تغفروا للناس زلاتهم لا يغفر لكم أبوكم أيضا زلاتكم».

٩ – فى الصيام:

جاء فى إنجيل مرقس (٢ : ١٨): «وكان تلاميذ يوحنا والفريسيين يصومون فجاءوا وقالوا له لماذ يصوم تلاميذ يوحنا والفريسيين وأما تلاميذك فلا يصومون. فقال لهم يسوع: هل يستطيع بنو العرس أن يصوموا والعريس معهم. مادام العريس معهم لا يستطيعون أن يصوموا. ولكن ستأتى أيام حين يرفع العريس عنهم فحينئذ يصومون فى تلك الأيام» لقد أوصت الشريعة الموسوية بصوم يوم واحد فقط هو يوم الكفارة العظيم ولكن أياما أخرى كانت قد أضيفت إلى هذا حتى أصبحت أيام الصيام كثيرة. وأراد عيسى أن يبطل صيام هذه الأيام الزائدة وشبه وجوده بين تلاميذه بصاحب عرس ولا يجوز الصيام فى أيام العرس واستمر عيسى قائلا: «ليس أحد يخيط رقعة من قطعة جديدة على ثوب عتيق وإلا فالملء الجديد يأخذ من العتيق فيصير الخرق أردأ. وليس أحد يجعل خمرا جديدة فى زقاق عتيقة لئلا تشق الخمر الجديدة الزقاق فالخمر تنصبُّ والزقاق تتلف. بل يجعلون خمرا جديدة فى زقاق جديدة». وهو بهذا المثل ينهى عن المزج بين القديم والجديد وينهى عن خلط تعاليمه الجديدة بالشريعة السابقة.

وفى إنجيل متى (٦ : ١٦) ينهى عيسى عليه السلام عن الرياء فى الصيام وإظهاره والتباهى به ويريده خالصا لوجه الله تعالى فيقول: «ومتى صمتم فلا تكونوا عابسين كالمرائين فإنهم يغيِّرون وجوههم لكى يظهروا للناس صائمين. الحق أقول لكم إنهم قد استوفوا أجرهم. وأما أنت فمتى صمت فادهن رأسك واغسل وجهك لكى لا تظهر للناس صائما بل لأبيك الذى فى الخفاء. فأبوك الذى يرى فى الخفاء يجازيك علانية».

١٠ – وفى اكتناز الأموال قال (متى ٦ : ١٩): «لا تكنزوا لكم كنوزا على الأرض حيث يُفسد السوس والصدأ وحيث ينقب السارقون ويسرقون بل اكنزوا لكم كنوزا فى السماء حيث لا يُفسد سوس ولا صدأ وحيث لا ينقب سارقون ولا يسرقون. لأنه حيث يكون كنزك هناك يكون قلبك أيضا. سراج الجسد هو العين. فإن كانت عينك بسيطة فجسدك كله يكون نيِّرا. وإن كانت عينك شريرة فجسدك كله يكون مظلما. فإن كان النور الذى فيك ظلاما فالظلام كم يكون!»

١١ – فى الحث على التوكل على الله وعدم التوكل على الماديات الدنيوية (مت ٦ : ٢٤) يقول: «لا يقدر أحد أن يخدم سيدين لأنه إما أن يبغض الواحد ويحب الآخر أو يلازم الواحد ويحتقر الآخر. لا تقدرون أن تخدموا الله والمال. لذلك أقول لكم: لا تهتموا لحياتكم بما تأكلون وبما تشربون ولا لأجسادكم بما تلبسون. أليست الحياة أفضل من الطعام والجسد أفضل من اللباس؟ انظروا إلى طيور السماء. إنها لا تزرع ولا تحصد ولا تجمع إلى مخازن. وأبوكم السماوى يُقوِّتها. ألستم أنتم بالحرى أفضل منها. ومن منكم إذا اهتم يقدر أن يزيد على قامته ذراعا واحدة. ولماذا تهتمون باللباس. تأمَّلوا زنابق الحقل كيف تنمو. لا تتعب ولا تغزل. ولكن أقول لكم إنه ولا سليمان فى كل مجده كان يلبس كواحدة منها. فإن كان عشب الحقل الذى يوجد اليوم ويُطرح غدا فى التنور يُلبسه الله هكذا أفليس بالحرى جداً يُلبِسكم أنتم يا قليلى الإيمان. فلا تهتموا قائلين ماذا نأكل أو ماذا نشرب أو ماذا نلبس. فإن هذه كلها يطلبها الأمم. لأن أباكم السماوى يعلم أنكم محتاجون إلى هذه كلها. لكن اطلبوا أولا ملكوت الله وبرَّه وهذه كلها تُزاد لكم. فلا تهتموا للغد لأن الغد يهتم بما لنفسه. يكفى اليوم شرُّه».

١٢ – أما عن علاقة الفرد مع الآخرين فقد قال عيسى عليه السلام (متى ٧ : ١): «لاتدينوا (أى لا تحاسبوا الناس) لكى لا تُدانوا لأنكم بالدينونة التى بها تدينون تدانون. وبالكيل الذى به تكيلون يكال لكم. ولماذا تنظر القذى الذى فى عين أخيك وأما الخشبة التى فى عينك فلا تفطن لها. أم كيف تقول لأخيك دعنى أخرج القذى من عينك وها الخشبة فى عينك. يا مرائى. أخرج أولا الخشبة من عينك وحينئذ تبصر جيدا أن تخرج القذى من عين أخيك».

١٣ – وللحث على الإخلاص في الدعاء قال: (متى ٧ : ٧):

«اسألوا تُعطوا. اطلبوا تجدوا. اقرعوا يفتح لكم. لأن كل من يسأل يأخذ. ومن يطلب يجد ومن يقرع يفتح له. أم أى إنسان منكم إذا سأله ابنه خبزاً يعطيه حجرا. وإن سأله سمكة يعطيه حيةً فإن كنتم وأنتم أشرار تعرفون أن تعطوا أولادكم عطايا جيدة فكم بالحري أبوكم الذى فى السموات يهب خيرات للذين يسألونه. فكل ما تريدون أن يفعل الناس بكم افعلوا هكذا أنتم أيضا بهم».

١٤ – حُرمة يوم السبت:

كان العمل داخل البيوت يوم السبت مسموحا به فى الشريعة. وتحايل الفريسيون ليجعلوا حمل الأشياء مباحا فى شوارع المدينة يوم السبت بأن عملوا عواميد وعوارض أبواب فى كل مكان فى الشوارع فكأنهم حوّلوا المدينة كلها إلى بيوت فيباح لهم حمل الأشياء فيها. كذلك كان السير لمسافة ٣ كم تقريبا مسموحا به فى يوم السبت. ولما كانوا أحيانا يدعون إلى وليمة ويكون بيت صاحب الوليمة على مسافة أكبر من المسموح فإنهم تحايلوا بأن وضعوا «شبه بيوت» فى الطريق على مسافات أقل من المسموح وبذلك يتنقلون بينها بحرية حتى يصلوا إلى البيت الذى به الوليمة. وواضح أن ذلك كله كان تحايلا حتى لا تبدو أفعالهم اعتداء على حرمة يوم السبت. ويقول الإنجيل (متى ١٢ : ١) «وفى ذلك الوقت ذهب يسوع فى السبت بين الزروع فجاع تلاميذه وابتدأوا يقطفون سنابل ويأكلون. فالفريسيون لما نظروا قالوا هو ذا تلاميذك يفعلون ما لا يحل فعله يوم السبت. فقال لهم أما قرأتم ما فعله داود حين جاع هو والذين معه. كيف دخل بيت الله وأكل خبز التقدمة الذى لم يحل أكله له ولا الذين معه بل للكهنة فقط. أوما قرأتم فى التوراة أن الكهنة فى السبت فى الهيكل يُدنِّسون السبت وهم أبرياء. ولكن أقول لكم إن ههنا أعظم من الهيكل. إنى أريد رحمة لا ذبيحة» وهو هنا يحتج على الكهنة الذين كانوا يخرجون الخبز من الهكيل لتأكله عائلاتهم. وكانوا أيضا يُجهِّزون الذبيحة يوم السبت وكل ذلك منهيٌ عنه. ومع ذلك يغضبون لأن تلاميذ المسيح كانوا يفركون سنابل القمح بين أيديهم ليأكلوا. فأوضح لهم أن الضرورات تبيح المحظورات كما فعل داود عليه السلام (جـ ٥ ص ١٠١) وأن الرحمة مطلوبة وليس التطبيق الحرفى والأعمى للشريعة.

«ثم انصرف من هناك وجاء إلى مجمعهم. وإذا إنسان يده يابسة فسألوه قائلين هل يحل الإبراء فى السبوت لكى يشتكوا عليه فقال لهم: أى إنسان منكم يكون له خروف واحد فإن سقط هذا فى السبت فى حفرة أفما يمسكه ويقيمه. فالإنسان كم هو أفضل من الخروف. إذاً يحل فعل الخير فى السبوت. ثم قال للإنسان مدُّ يدك فمدَّها. فعادت صحيحة كالأخرى.

وهذا يدل على أن المسيح عليه السلام لم يُغير يوم العبادة – وهو يوم السبت – ولكن كما

سيجيء فيما بعد (ص ١٣٦) فإن الإمبراطور قسطنطين الذى اعتنق المسيحية هو الذى أعلن أن يوم الأحد هو يوم الرب ويجب أن يكون عطلة رسمية للدولة ليخالفوا اليهود فى يوم عبادتهم. ويشير القرآن الكريم إلى الخلاف حول يوم السبت فى قوله تعالى: «**إنما جُعِل السبت على الذين اختلفوا فيه وإن ربك ليحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون**».

(١٢٤ – النحل).

١٥ – الأكل مع الخطاة:

كان الفريسيون كما سبق أن ذكرنا (جـ ٥ ص ٤٩٢) يتجنبون الاختلاط بالوثنيين بصفتهم نجسين. ثم انسحب عدم الاختلاط كذلك على فرق اليهود الأخرى لأنهم فى نظرهم غير طاهرين. وكان العشارون (أى الذين يجبون ضريبة العشر) من الرومان أو جنسيات أخرى مكروهين ولذلك حرم الفريسيون الاختلاط بهم.

«وإذ جلس يسوع فى البيت ليأكل إذا عشَّارون وخطاة كثيرون قد جاءوا وجلسوا ليأكلوا مع يسوع وتلاميذه. فلما نظر الفريسيون قالوا لتلاميذه لماذا يأكل مُعلِّمكم مع العشارين والخطاة؟ فلما سمع يسوع قال لهم: لا يحتاج الأصحاء إلى طبيب بل المرضى. فاذهبوا وتعلموا ما هو. إنى أريد رحمة لا ذبيحة لأنى لم آت لأدعو أبرارا بل خطاة إلى التوبة».

١٦ – الطريق المستقيم (متى ٧ : ١٣):

قال عيسى : «ادخلوا من الباب الضيق لأنه واسعٌ الباب ورحبٌ الطريق الذى يؤدى إلى الهلاك وكثيرون هم الذين يدخلون منه. ما أضيق الباب وأكرب الطريق الذى يؤدى إلى الحياة وقليلون هم الذين يجدونه».

والمعنى أن الدخول من الباب الضيق فيه بعض المشقة وكذلك طريق الشريعة إذا التزم به المرء تكلَّف بعض المشقة وضيَّق على نفسه فلا يتركها تمشى على هواها. أما المستهترون الذين لا يتبعون أحكام الشريعة فلا يتكلفون أى مشقة فلا عبادات ولا صدقات فكأنهم يسيرون فى طريق رحب واسع ولكنه يؤدى إلى الهلاك. وهذا نفس المعنى الذى ورد فى الحديث الشريف: «حُفَّت الجنة بالمكاره وحُفَّت النار بالشهوات».

١٧ – التحذير من الأنبياء الكذبة (متى ٧ : ١٥):

«احترزوا من الأنبياء الكذبة الذين يأتونكم بثياب الحملان ولكنهم من داخل ذئاب خاطفة. من ثمارهم تعرفونهم. هل يجتنون من الشوك عنبا أو من الحسك تينا؟ هكذا كل شجرة جيدة تصنع أثمارا جيدة وأما الشجرة الردية فتصنع أثمارا ردية. لا تقدر شجرة جيدة أن تصنع

أثمارا ردية ولا شجرة ردية أن تصنع أثمارا جيدة. كل شجرة لا تصنع ثمرا جيدا تقطع وتلقى في النار. فإذاً من ثمارهم تعرفونهم».

١٩ – ختام (متى ٧ : ٢٤):

«فكل من يسمع أقوالي هذه ويعمل بها أشبِّهه برجل عاقل بني بيته على الصخر فنزل المطر وجاءت الأنهار وهبت الرياح ووقعت على ذلك البيت فلم يسقط لأنه كان مؤسسا على الصخر، وكل من يسمع أقوالي هذه ولا يعمل بها يُشبَّه برجل جاهل بني بيته على الرمل، ونزل المطر وجاءت الأنهار وهبت الرياح وصدمت ذلك البيت فسقط. وكان سقوطة عظيما».

فلما أكمل يسوع هذه الأقوال بُهتت الجموع من تعليمه لأنه كان يعلمهم كمن له سلطان وليس كالكتبة.

الفصل السابع

معجزات المسيح

أُرسِل المسيح عليه السلام هاديا لقومه بنى إسرائيل. وأيَّده الله سبحانه وتعالى بعديد من المعجزات المادية ليتأكد الناس من صدق رسالته. وقد ذكر القرآن الكريم هذه المعجزات فى قوله تعالى:

«ورسولاً إلى بنى إسرائيل أنى جئتكم بآية من ربكم. أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيراً بإذن الله وأبرئ الأكمه والأبرص وأحيى الموتى بإذن الله. وأنبئكم بما تأكلون وما تدّخرون فى بيوتكم. إن فى ذلك لآية لكم إن كنتم مؤمنين» . (٤٩ . آل عمران).

ولعل معجزة إحياء الموتى كانت أعظمها جميعا، يليها خلق الطير من الطين. فهذه الأمور لا يقدر عليها إلاّ الله سبحانه وتعالى. ومع أن عيسى عليه السلام قد أرجع هذه المعجزات إلى الله عز وجلّ. إلا أن بعض الناس ظنوا أنه يأتى بهذه المعجزات لطبيعة إلهية فيه. ولما كان بلا أب بشرى فقد نسبوه إلى الله فى بُنوَّة وأن الروح التى نُفخت فى مريم هى جزء من ذات الله. ولكنا سنرى فيما يلى من صفحات أنه كان يرجع هذه المعجزات إلى تأييد الله له ويعيد التأكيد على أنه «ابن الانسان» — وفى عديد من الترجمات «ابن آدم» — وما هو إلا رسول مثل من سبقوه من الرسل:

«ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل» (٧٥ – المائدة) .

وقد ذكر الإنجيل عديد من معجزات المسيح منها.

١ – شفاء الأبرص (متى ٨ : ١) :

ولما نزل من الجبل تبعته جموع كثيرة. وإذا أبرص قد جاء وسجد له قائلا. يا سيد إن أردت تقدر أن تطهرنى. فمد يسوع يده ولمسه قائلا أريد فاطهر. وللوقت طهر برصه. فقال له يسوع انظر أن لا تقول لأحد. بل اذهب أر نفسك للكاهن وقدِّم القربان الذى أمر به موسى شهادة لهم.

والبرص مرض جلدى عضال. كما أنه يؤثر فى الأعضاء التى يصيبها فتتساقط عقد الأصابع والأنف وسقف الحلق. وكثيرا ما يبدأ كنتوء أو ورم صغير أو بياض كالقوباء إلا أنها بعد قليل تتآكل حوافها وتصبح قرحة. وإذا وضح لحم حى فى أرضية القرحة صار الأبرص نجسا ويجب أن ينعزل عن الناس لأنه يُعدى غيره. أما قبل ذلك فهو غير نجس. وبالرغم من أن

قاموس الكتاب المقدس (جماعة اللاهوتيين. ص ١٧٠) ينص على أن البرص غير الجذام إلا أن الترجمات الإنجليزية تذكره بأنه Leprosy أى الجذام وهو ما ينطبق على أعراض المرض. وكان الشفاء من البَرَص فى ذلك الوقت لا يتم إلا بمعجزة إلهية كما حدث مع مريم أخت موسى عليه السلام (جـ ٤ ص ١٠٤١).

٢ – شفاء المفلوج (متى ٨ : ٥) :

«ولما دخل يسوع كفر ناحوم جاء إليه قائد يطلب إليه ويقول: ياسيد غلامى مطروح فى البيت مفلوجا متعذبا جدا. فقال له يسوع أنا آتى وأشفيه. فأجاب قائد المئة وقال ياسيد لستُ مستحقا أن تدخل تحت سقفى لكن قل كلمة فقط فيبرأ غلامى لأنى أنا أيضا إنسان تحت سلطان لى جند تحت يدى. أقول لهذا اذهب فيذهب ولآخر ايت فيأتى ولعبدى افعل هذا فيفعل. فلما سمع يسوع تعجَّب وقال للذين يتبعونه: الحقَّ أقول لكم لم أجد ولا فى إسرائيل إيمانا بمقدار هذا. وأقول لكم إن كثيرين سيأتون من المشارق والمغارب ويتكئون مع إبراهيم وإسحق ويعقوب فى ملكوت السموات. وأما بنو الملكوت فيطرحون إلى الظلمة الخارجية. هناك يكون البكاء وصرير الأسنان. ثم قال يسوع لقائد المئة. اذهب وكما آمنت ليكن لك. فبرأ غلامه فى تلك الساعة». وقائد المائة كانت رتبة فى الجيوش قديما ويمكن معادلتها حاليا برتبة باشجاويش وكان تبجيل قائد المائة للمسيح شديدا حتى إنه رأى أنه لا يليق به أن يأتى إلى بيته المتواضع. كما كان إيمانه قويا لدرجة اليقين بأن عيسى يمكنه شفاء غلامه دون الانتقال إليه. ولَمِس عيسى شدة هذا الإيمان وحقق له الشفاء.

٣ – شفاء الحمى (متى ٨ : ١٤) :

«ولما جاء يسوع إلى بيت بطرس رأى حماته مطروحة ومحمومة فلمس يدها فتركتها الحمى فقامت وخدمتهم».

٤ – شفاء المجانين :

«ولما صار المساء قدَّموا إليه مجانين كثيرين فأخرج الأرواح بكلمة وجمع المرضى وشفاهم لكى يتم ما قيل بإشعياء النبى القائل: هو أخذ أسقامنا وحمل أمراضنا».

٥ – معجزة هدوء البحر (متى ٨ : ٢٣):

«ولما دخل السفينة تبعه تلاميذه وإذا اضطراب عظيم قد حدث فى البحر حتى غطت الأمواج السفينة وكان هو نائما فتقدم تلاميذه وأيقظوه قائلين: يا سيد نجنا فإننا نهلك. فقال لهم ما بالكم خائفين يا قليلى الإيمان. ثم قام وانتهر الرياح والبحر فصار هدوء عظيم. فتعجب الناس قائلين أى إنسان هذا. فإن الرياح والبحر جميعا تطيعه».

٦ – شفاء مجنونى مدينة جرجسا.

«جرجسا» مدينة على الشاطىء الشرقى لبحر الجليل وموقعها حاليا الآثار المعروفة باسم

«كرسا» وكانت إحدى المدن العشر لإقليم ديكابوليس. وكان بها مجنونان بهما مس من الشيطان كانا يتخذان من القبور مكمنا لهما ويخيفان المارة. يقول إنجيل متى (٨ : ٢٨): «ولما جاء إلى العبر إلى كورة الجرجسيين استقبله مجنونان خارجان من القبور هائجان ولم يكن أحد يقدر أن يجتاز من تلك الطريق. وإذا هما قد صرخا قائلين مالنا ولك يا يسوع. أجئت إلى هنا قبل الوقت لتعذِّبنا (والمعنى أن الشياطين التى كانت تلبس المجنونين تعرف أن لها عذابا فى الآخرة ولكنها رأت يسوع مقبلا عليهم فى الدنيا فكان سؤالهم عما إذا كان قد جاء لإنزال عذاب بهم قبل الوقت أى قبل يوم القيامة). وكان بعيدا منهم قطيع خنازير كثيرة ترعى (والخنازير حيوانات نجسه فى الشريعة اليهودية ولا يجوز تربيتها). فالشياطين طلبوا إليه قائلين. إن كنت تخرجنا فأذن لنا أن نذهب إلى قطيع الخنازير فقال لهم امضوا فخرجوا ومضوا إلى قطيع الخنازير -(يبدو أن هذه الشياطين كانت نوعا لا يستطيع العيش إلا متلبِّسة حيوان ما) وإذا قطيع الخنازير كله قد اندفع من على الجرف إلى البحر ومات فى المياه (أى أن الخنازير لما تلبَّستها الشياطين جن جنونها فاندفعت هائجة وسقطت من على الجرف فى البحر وماتت غرقا وماتت معها الشياطين). أما الرعاة فهربوا ومضوا إلى المدينة. وأخبروا عن كل شيئ وعن أمر المجنونين فإذا كل المدينة قد خرجت لملاقاة يسوع ولما أبصروه طلبوا منه أن ينصرف عن تخومهم».

وواضح أن أهل هذه المدينة كانوا من الأشرار. فقد ارتكبوا خطيئة بتربيتهم الخنازير مع أن الشريعة تنهى عن ذلك. ثم إنهم غضبوا لموت قطيع الخنازير ولم يفرحوا لشفاء المجنونين وفضلوا تجارتهم على الاحتفاء بيسوع وطلبوا منه مغادرة مدينتهم.

٧ - شفاء المفلوج وجدال الكتبة :

ركب عيسى عليه السلام السفينة وعاد إلى الشاطئ الغربى لبحر الجليل عائدا إلى بلدته «كفر ناحوم». يقول إنجيل متى (١:٩):

«فدخل السفينة واجتاز وجاء إلى مدينته. وإذا مفلوج يقدِّمونه إليه مطروحا على فراش. فلما رأى إيمانهم قال للمفلوج: ثق يابنى مغفورة لك خطاياك. وإذا قوم من الكتبة قد قالوا فى أنفسهم هذا يجدِّف. فعلم يسوع أفكارهم. فقال لماذا تفكرُون بالشر فى قلوبكم. أيُّما أيسر أن يقال مغفورة لك خطاياك أم أن يقال قم وامش ولكن لكى تعلموا أن لابن الإنسان (أى هو نفسه) سلطانا على الأرض أن يغفر الخطايا. حينئذ قال للمفلوج قم احمل فراشك واذهب إلى بيتك. فقام ومضى إلى بيته. فلما رأى الجموع تعجبُوا ومجَّدوا الله الذى أعطى الناس سلطانا مثل هذا».

وواضح أن الكتبة أرادوا أن يلصقوا بالمسيح تهمة التجديف فى حق الإله لأنه لا أحد يملك غفران الخطايا إلا الله. ولكن المسيح أراد أن يوضِّح لهم أنه كما أن الله أعطاه المقدرة على

شفاء المرضى فقد أعطاه أيضا الشفاعة والسلطة لغفران خطاياهم. وأوضح لهم بالأمر المحسوس وهو شفاؤه للمفلوج ليقتنعوا بالمقدرة أيضا فيما هو غير محسوس وهو غفران الخطايا.

٨ – شفاء المرأة التي كانت تنزف (متى ٩ : ٢١) :

«وإذا امرأة نازفة دم منذ اثنتي عشرة سنة قد جاءت من ورائه ومسّت هدب ثوبه لأنها قالت في نفسها. إن مسست ثوبه فقط شفيت. فالتفت يسوع وأبصرها فقال كفي يا ابنة. إيمانك قد شفاك.فشفيت المرأة من تلك الساعة».

٩ – إحياء الموتى :

وقد ذكر ذلك في القرآن الكريم: «... وإذ تخرج الموتى بإذني...» (١١٠ – المائدة)

كما يذكر القرآن الكريم قول عيسى: «... **وأحيي الموتى بإذن الله...**» (٤٩ – آل عمران).

وكان الصدوقيون (جـ ٥ ص ٤٩٠) ينكرون البعث والحياة الآخرة ويذهبون إلى أن النفس تموت مع الجسد وينكرون المسيح ولا يترقبونه. فأراد الله أن يبين لهم خطأ معتقدهم بمثال حي فكانت معجزة إحياء الموتى في حالتين:

أ – إحياء ابنة الرئيس (متى ٩ : ١٨) .

«وفيما هو يكلم تلاميذه إذا رئيس قد جاء فسجد له قائلا: إن ابنتي الآن ماتت ولكن تعال وضع يدك عليها تحيا. فقام يسوع وتبعه هو وتلاميذه ولما جاء يسوع إلى بيت الرئيس ونظر المزمّرين والجميع يضجُّون قال لهم تنحُّوا فإن الصبية لم تمت ولكنها نائمة فضحكوا عليه. فلما أخرج الجميع دخل وأمسك يدها فقامت الصبية. فخرج ذلك الخبر إلى تلك الأرض كلها».

ب – إحياء لعازر (يوحنا ١١ : ١) .

كان لِعازر من بلدة «بيت عنيا» في اليهودية – ومرض مرضا شديدا. فأرسلت أختاه إلى يسوع ليحضر ويشفيه. وتأخر يسوع يومين قبل أن يستجيب لمطلبهما فمات لعازر. ثم قرر يسوع الذهاب إليه وقال لتلاميذه: لعازر حبيبنا قد مات ولكني أذهب لأوقظه. فلما ذهب يسوع إلى بيت عنيا وكان كثير من اليهود قد جاءوا إلى الأختين ليعزوهما في وفاة أخيهما. وقالت إحدى الأختين: «يا سيد لو كنت ههنا لم يمت أخي لكني الآن أيضا أعلم أن كل ما تطلب من الله يعطيك الله إياه. قال لها يسوع. سيقوم إخوكِ. قالت له أنا أعلم أنه سيقوم في القيامة في اليوم الآخر قال لها يسوع: «من آمن بي ولو مات فسيحيا وكل من كان حيًا وآمن بي فلن يموت إلى الأبد.» وأخذوا يسوع إلى قبر لعازر. وكان مغارة قد وضع عليها حجر «فقال يسوع ارفعوا الحجر. قالت له أخته: ياسيد قد أنتن لأن له أربعة أيام. فقال لها يسوع: ألم أقل لك إن آمنت ترين مجد الله. فرفعوا الحجر حيث كان الميت موضوعا. ورفع يسوع عينيه إلى فوق

وقال أيها الرب أشكرك لأنك سمعت لى. وأنا علمت أنك فى كل حين تسمع لى. ولكن لأجل هذا الجمع الواقف قلت ليؤمنوا أنك أرسلتنى. ولما قال هذا صرخ بصوت عظيم: لِعازر. هلم خارجًا! فخرج الميت ويداه ورجلاه مربوطة بأقمطة ووجهه ملفوف بمنديل . فقال لهم يسوع: حُلُّوه ودعوه يذهب». ويستمر الإنجيل: «فكثير من اليهود الذين نظروا ما فعل يسوع آمنوا به. وأما قوم منهم فمضوا إلى الفريسيين وقالوا لهم عما فعل يسوع. فجمع رؤساء الكهنة والفريسيون مجمعا وقالوا ماذا نصنع فإن هذا الإنسان يصنع آيات كثيرة إن تركناه هكذا يؤمن الجميع به فيأتى الرومانيون ويأخذون موضعنا وأمّتنا . فقال لهم رئيس الكهنة إنه خير لنا أن يموت إنسان واحد عن الشعب ولا تهلك الأمة كلها. فمن ذلك اليوم تشاوروا ليقتلوه» (يوحنا ١١:٥٢).

١٠ – شفاء الأعميين (متى ٩ : ٢٧) :

«وفيما هو مجتاز من هناك تبعه أعميان يصرخان ويقولان ارحمنا يا ابن داود. ولما جاء إلى البيت تقدم إليه الأعميان فقال لهما يسوع: أتؤمنان أنى أقدر أن أفعل هذا؟ قالا له نعم ياسيد. حينئذ لمس أعينهما قائلا بحسب إيمانكما ليكن لكما. فانفتحت أعينهما. فصرفهما يسوع قائلا. انظرا لا يعلم أحد. ولكنهما خرجا وأشاعا فى تلك الأرض كلها».

وتقاطر عليه العُمْىُ من كل مكان يشفيهم وقد ذكر إنجيل متى (٢٠:٢٩) «وفيما هم خارجون من أريحا تبعه جموع كثيرة. وإذا أعميان جالسان على الطريق فلما سمعا أن يسوع مجتاز صرخا قائلين: ارحمنا ياسيد يا ابن داود. فانتهرهما الجميع ليسكتا فكانا يصرخان أكثر قائلين ارحمنا ياسيد يا ابن داود. فوقف يسوع وناداهما وقال ماذا تريدان أن أفعل بكما. قالا له ياسيد أن تفتح أعيننا. فتحنَّن يسوع ولمس أعينهما فللوقت أبصرت أعينهما فتبعاه».

١١ – شفاء الأكمه :

وهذا ما ذكره القرآن الكريم فى الآية ٤٩ من سورة آل عمران فى قوله تعالى على لسان عيسى «... وأبرئ الأكمة...» والأكمه هو الأعمى منذ ولادته. وقد ذكر الإنجيل (يوحنا ٩:١) ذلك كما يلى: «وفيما هو مجتاز رأى إنسانا أعمى منذ ولادته فسأله تلاميذه قائلين يا معلِّم من أخطأ. هذا أم أبواه حتى ولد أعمى؟ أجاب يسوع: لا هذا أخطأ ولا أبواه لكن لتظهر أعمال الله فيه. قال هذا وتفل على الأرض وصنع من التفل طينا وطلى بالطين عينى الأعمى وقال له اذهب واغتسل فى بركة سلوام (بركة مياه فى مدينة أورشليم – انظر جـ ٥ ص ١٧٤ شكل ٤٢). فمضى واغتسل وأتى بصيراً».

وكان الاعتقاد وقتئذ أن من وُلِد به عاهة فلابد أن أحد أبويه قد ارتكب خطيئة ما وأن الجزاء العقابى لخطايا الآباء يلحق بالأبناء. وأوضح يسوع عدم صحة هذا المعتقد. وأنها فقط

مشيئة الله حتى يحمد المبصرون الله على نعمة الإبصار، وكان شفاء ذلك الأكمه في يوم سبت، فاستنكر قوم من الفريسيين هذا الفعل وقالوا: هذا الإنسان (عيسى) ليس من الله لأنه لا يحفظ السبت. آخرون قالوا كيف يقدر إنسان خاطئ أن يعمل مثل هذه الآيات» ولما سمع قولهم قال «لدينونة أتيت أنا إلى هذا العالم حتى يُبصر الذين لا يُبصرون، ويعمى الذين يبصرون».

١٢ – شفاء الأخرس (متى ٩ : ٣٢) :

«وفيما هما خارجان إذا إنسان أخرس مجنون قدَّموه إليه. فلما أُخرج الشيطان تكلم الأخرس. فتعجب الجموع قائلين: لم يظهر قط مثل هذا في اسرائيل. أما الفريسيون فقالوا برئيس الشياطين يُخرج الشياطين». والفريسيون كما سبق أن ذكرنا (جـ ٥ ص ٤٩١) كانوا ينظرون إلى الأمور السياسية نظرة عدم مبالاة وكانوا يعارضون عيسى لخوفهم من أن التفاف الشعب حوله سيثير سخط الحكام الرومان على اليهود وما يتبع ذلك من تدابير انتقامية ولذلك فمع أنهم يؤمنون بمخلِّص فإنهم اتهموه بأنه ما هو إلا ساحر يستعين برئيس الشياطين ليطرد الشياطين المتلبِّسة أجساد المرضى.

١٣ – شفاء مجنون أعمى أخرس (متى ١٢ : ٢٢) :

«حينئذ أحضر إليه مجنون أعمى وأخرس. فشفاه حتى إن الأعمى الأخرس تكلم وأبصر فبهت كل الجموع وقالوا ألعلَّ هذا هو ابن داود (أى المسيح الذى ينتظرونه) أما الفريسيون فلما سمعوا قالوا هذا لا يخرج الشياطين إلا ببعلزبول رئيس الشياطين» أى أن الفريسيين لم يؤمنوا أنه المسيح المنتظر المؤيَّد من الله ليأتى بهذه المعجزات بل اتهموه بأنه يستعين برئيس الشياطين فى عمليات الشفاء التى يقوم بها. «فعلم يسوع أفكارهم وقال لهم: كل مملكة منقسمة على ذاتها تخرب، وكل مدينة أو بيت منقسم على ذاته لا يثبت. فإن كان الشيطان يُخرج الشيطان فقد انقسم على ذاته فكيف تثبت مملكته؟ وإن كنت أنا ببعلزبول أخرج الشياطين فأبناؤكم بم يُخرجون؟ لذلك هم يكونون قضاتكم» وهنا يسألهم عيسى عن عمليات الشفاء التى يقوم بها تلاميذه وهم من أبناء الشعب أى أبناؤهم ويسألهم هل يستعينون أيضا ببعلزبول فى عمليات الشفاء والجواب طبعا بالنفى. فكأن التلاميذ هم القضاة الذين حكموا بخطأ ما قالوه عن استعانة يسوع برئيس الشياطين. وراح يشرح لهم أنه يشفى المرضى بكلمة الله وبروح الله وفى هذه الحالة فقد شملتهم رحمة الله وأقبل عليهم ملكوته. ثم وضَّح لهم أنه لا موقف وسط فإما أن يجمع نفسه مع المسيح أو يشتتها بعيدا عن الله فقال لهم (متى ١٢:٢٦) «ولكن إن كنت أنا بروح الله أخرج الشياطين فقد أقبل ملكوت الله. من ليس معى فهو علىَّ. ومن لا يجمع معى فهو يُفَرِّق. لذلك أقول لكم كل خطية وتجديف يُغفر للناس وأما التجديف على الروح فلن يُغفر للناس. ومن قال كلمة علىَّ يغفر له. وأما من قال على الروح القدس فلن يُغفر

له لا فى هذا العالم ولا فى الآتى. اجعلوا الشجرة جيدة وثمرها جيدا أو اجعلوا الشجرة رديّة وثمرها رديًا لأن من الثمرة تعرف الشجرة (والمعنى أنه من الكلام تعرف خافيات النفوس. فإن كان الكلام رديئا كانت النفس رديئة) يا أولاد الأفاعى كيف تقدرون أن تتكلموا بالصالحات وأنتم أشرار فإن من فضلة القلب يتكلم الفم. الإنسان الصالح من الكنز الصالح فى القلب يُخرج الصالحات. والإنسان الشرير من الكنز الشرير يخرج الشرور. ولكن أقول لكم إن كل كلمة بطَّالة يتكلم بها الناس سوف يُعطُون عنها حسابا يوم الدين لأنك بكلامك تتبرَّر وبكلامك تدان.

نقطة أخيرة وهى أن المسيح لم يكن متصديا لمسألة سبب مرض الجنون أو أن تلبس الشياطين لأجساد المرضى هو سبب اختلال تفكيرهم. فهذه قضية يطول شرحها ولايزال فى عصرنا الحالى أناس كثيرون وعلى درجة كبيرة من العلم يؤمنون بتلبس الجن أجساد المرضى فما بالنا بما كان الناس يؤمنون به قبل ألفى عام! وما كان فى المقام الأول فى الأهمية هو أن ينفى عيسى عليه السلام عن نفسه أنه يستعين بالشياطين فى العلاج وبيان أن تلك مقدرة وهبها له الله لتكون دليلا على صدق ما يخبر به عن ربه.

١٤ – معجزة إطعام ٥٠٠٠ رجل بخمسة أرغفة (متى ١٤ : ١٤)

«فلما خرج يسوع أبصر جمعا كثيرا فتحنَّن عليهم وشفى مرضاهم. ولما صار المساء تقدم إليه تلاميذه قائلين: الموضع خلا والوقت قد مضى. اصرف الجموع لكى يمضوا إلى القرى ويبتاعوا لهم طعاما. فقال لهم يسوع. لا حاجة لهم أن يمضوا. اعطوهم أنتم ليأكلوا. فقالوا له ليس عندنا ههنا إلا خمسة أرغفة وسمكتان. فقال ائتونى بها إلى هنا. فأمر الجميع أن يتكئوا على العشب ثم أخذ الأرغفة الخمسة والسمكتين ورفع نظره نحو السماء وبارك وكسَّر وأعطى الأرغفة للتلاميذ والتلاميذ للجموع. وأكل الجميع وشبعوا. ثم رفعوا ما فضل من الكسر اثنى عشر قُفَّة مملوءة والآكلون كانوا نحو خمسة آلاف رجل ماعدا النساء والأولاد.

١٥ – إطعام الأربعة آلاف بسبعة أرغفة وقليل من صغار السمك :

وهى مثل المعجزة السابقة فى حدوثها.

١٦ – معجزة شفاء ابن المرأة الكنعانية (متى ١٥ : ٢١)

خرج يسوع إلى صور وصيدا وجاءته امرأة كنعانية وطلبت منه شفاء ابنتها المصابة بالجنون فأجاب وقال «لم أُرسل إلا إلى خراف بيت إسرائيل الضالة» أى أنه لا يشفى إلاّ من كان يهوديا. «ولكنها تقدمت وسجدت أمامه قائلة ياسيد أعنِّى. حينئذ أجابها وقال لها. يا امرأة عظيم إيمانك. ليكن لك ما تريدين. فشفيت ابنتها من تلك الساعة».

١٧ – معجزة المشى على الماء (متى ١٤ : ٢٢)

أمر عيسى عليه السلام تلاميذه أن يسبقوه إلى السفينة ليعبر إلى الشاطئ الآخر لبحر

الجليل. وبعدما صرف الجموع التى كانت محتشدة صعد إلى الجبل منفردا ليصلِّى. وهاج البحر وتلاعبت الأمواج بالسفينة وقذفتها بعيدا عن الشاطئ. ولما انتهى من صلاته مضى إليهم يسوع ماشيا على الماء. فلما أبصره تلاميذه ماشيا على الماء ظنوه خيالا. ولكن يسوع كلَّمهم قائلا أنا هو لا تخافوا. فأجابه بطرس وقال إن كنت هو فمرنى أن آتى إليك على الماء. فقال تعالَ. فنزل بطرس من السفينة ومشى على الماء ليأتى إلى يسوع. ولكن لما رأى الريح شديدة خاف وإذ ابتدأ يغرق صرخ قائلا يارب نجنى. ففى الحال مدَّ يسوع يده وأمسك به وقال له: يا قليل الإيمان لماذا شككت ولما دخلا السفينة سكنت الريح.

١٨ – خلق الطير :

هذه المعجزة أشار إليها القرآن الكريم فى قوله تعالى : **«وإذ تخلق من الطين كهيئة الطير بإذنى فتنفخ فيها فتكون طيرا بإذنى»** (١١٠ – المائدة). وأيضا قال عيسى مخاطبا بنى إسرائيل: **«أنى قد جئتكم بآية من ربكم. أنى أخلق لكم من الطين كهيئة الطير فأنفخ فيه فيكون طيرا بإذن الله»** . (٤٩ – آل عمران).

١٩ – «وأنبئكم بما تأكلون وما تدخرون فى بيوتكم». (٤٩ – آل عمران).

٢٠ – نزول المائدة :

وأخبر عنها القرآن الكريم فى قوله تعالى: **«إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن يُنزِّل علينا مائدة من السماء؟ قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين. قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا ونكون عليها من الشاهدين. قال عيسى ابن مريم. اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين. قال الله إنى منزلها عليكم فمن يكفر بعد منكم فإنى أعذبه عذابا لا أعذبه أحدا من العالمين»** . (١١٢ – ١١٥ – المائدة).

الفصل الثامن

التعليم بالأمثـال

فائدة الأمثال :

لقد سبق أن أوضحنا (جـ ٥ ص ١٩٧) أن المثل يشير إلى قصة وقعت فى الماضى ويريد ضارب المثل أن يشبه الموقف الحالى بالقصة السابقة. وقد تكون القصة افتراضية أى لم تقع فعلاً ويكون الهدف من المثل هو تقريب المسألة إلى ذهن السامع بشيىء ملموس يسهل فهمه واستخلاص النتيجة منه ثم يقاس عليه الموقف الحالى ومن ثم يسهل إدراك النتيجة المتوقعة من المقدمات المطروحة حاليا ولقد حفل القرآن الكريم بعديد من الأمثال **«ويضرب الله الأمثال للناس والله بكل شيء عليم»** (٢٥ - النور) **«وتلك الأمثال نضربها للناس وما يعقلها إلا العالمون»** (٤٣ – العنكبوت).

ومن الأمثال التى وردت فى القرآن الكريم مايلى:

«مثل الذين ينفقون أموالهم فى سبيل الله كمثل حبة أنبتت سبع سنابل فى كل سنبلة مائة حبة والله يضاعف لمن يشاء والله واسع عليم» (٢٦١ – البقرة). **«مثلهم كمثل الذى استوقد نارا فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم فى ظلمات لا يبصرون»**. (١٧ – البقرة).

«ألم تر كيف ضرب الله مثلا كلمة طيبة كشجرة طيبة أصلها ثابت وفرعها فى السماء تؤتى أكلها كل حين بإذن ربها. ويضرب الله الأمثال للناس لعلهم يتذكرون. ومثل كلمة خبيثة كشجرة خبيثة اجتثت من فوق الأرض مالها من قرار». (٢٤ – ٢٦ – إبراهيم).

«إنما مثل الحياة الدنيا كماء أنزلناه من السماء فاختلط به نبات الأرض مما يأكل الناس والأنعام حتى إذا أخذت الأرض زخرفها وازينت وظن أهلها أنهم قادرون عليها أتاها أمرنا ليلا أو نهارا فجعلناها حصيدا كأن لم تغن بالأمس. كذلك نفصّل الآيات لقوم يتفكرون». (٢٤ – يونس).

ولما كان عدد كبير من الشعب أيام المسيح غير متعلمين. لذلك كان يلزم عليه أن يلجأ إلى الأمثال ليقرب المسألة إلى أذهانهم. ليستطيعوا استيعاب ما يريده والنتيجة التى يرمى إليها. وخاصة أنه فى كثير من الأحيان كانت تعاليمة تعارض ما يقوله الكهنة والكتبة والذين كانوا يفسرون الشريعة على حسب أهوائهم أو على حسب فهمهم القاصر لأهدافها. وكان كهنة

اليهود والكتبة من الجمود بحيث أحالوا الشريعة إلى «حدود» فحرصوا على أن لا يفلت من حدودها أحد وعليهم أن يتصيدوا المخطئين ليقيموا عليهم الحد. وجاء عيسى ليصحح هذا المفهوم ويعلِّم أن الوصايا الإلهية لم تُجعل للزهو والتيه بالنفس ووصم الآخرين بالتهم والذنوب. ولكنها جُعِلت لحساب النفس قبل حساب الآخرين، والعطف على الناس بالرحمة والمغفرة. وأن لا يكون الدين سبيلا للتعالى على الآخرين بعلم أو بصلاة أو صوم. فطلب من الناس أن يؤدوا العبادات فيما بينهم وبين خالقهم حتى تكون العبادة خالية من الرياء فيكون الأجر عليها كاملاً.

معنى الأُخوة :

قبل أن يبدأ عيسى تعليمه بالأمثال رأى أن يُوضِّح لهم معنى الأُخوة. يقول الإنجيل (متى ١٢ : ٤٦): «وفيما هو يكلِّم الجموع إذا أمه وإخوته قد وقفوا خارجاً طالبين أن يكلِّموه. فقال له واحد: هو ذا أمك وإخوتك قد وقفوا خارجا طالبين أن يكلِّموك. فأجاب وقال للقائل: من هى أمى ومن هم إخوتى؟ ثم مدَّ يده نحو تلاميذه وقال: ها أمى وإخوتى. لأن من يصنع مشيئة أبى الذى فى السموات هو أخى وأختى وأمى». والمعنى أن الإيمان بالله يربط بين المؤمنين بأخوة هى أقوى من رابطة الدم والنسب. كما قال الله تعالى: «**إنما المؤمنون إخوة**» (١٠ – الحجرات). «**فألَّف بين قلوبكم فأصبحتم بنعمته إخوانا**». (١٠٣ – آل عمران).

التعليم علي شاطيء البحر :

(متى ١٣ : ١) «فى ذلك اليوم خرج يسوع من البيت وجلس عند البحر فاجتمع إليه جموع كثيرة. حتى إذا دخل السفية وجلس والجمع كله وقف على الشاطىء فكلَّمهم كثيرا بأمثال». وقد عمد عيسى إلى هذه الطريقة عند مخاطبته للجموع الكثيرة بأن يركب قاربا يقف به قرب الساحل والجموع الغفيرة وقوف على الشاطىء حتى يكون مواجها لكل المستمعين فيرون تعبيرات وجهه وحركات يديه وهو يشرح وهذا لا يتحقق لو وقف في أرض منبسطة وتحلَّق الناس حوله إذ سيكون موليا ظهره نحو نصف الجموع. كما أن وجوده فى القارب يجعل بينه وبينهم مسافة تحقق انتشار الصوت بدرجة أكبر فيسمع الكل بوضوح وخاصة عند البعد عن المدن وضجيجها.

عيسى يُعلم الناس بالأمثال :

قلنا إن عيسى عليه السلام كان يدرك أن أكثر سامعيه هم من الناس البسطاء الذين قد يفوت عليهم إدراك المقصود مما يقول ولا يستطيعون استخلاص الحكمة التى يهدف إليها لذلك كان معظم تعليمه بالأمثال، ومن الأمثال التى ضربها ما يلى:

(١) مثل الزارع أو تأثير الكلمة حسب صدورها من القلب. (متى ١٣ : ٤): قال: «هو ذا الزارع قد خرج ليزرع. وفيما هو يزرع سقط بعض فى الطريق. فجاءت الطيور وأكلته. وسقط آخر على الأماكن المحجرة حيث لم تكن له تربة كثيرة فنبت حالا إذ لم يكن له عمق أرض. ولكن لما أشرقت الشمس احترق وإذ لم يكن له أصل جف. وسقط آخر على الشوك فطلع الشوك وخنقه. وسقط آخر على الأرض الجيدة فأعطى ثمرا. بعض مائة وآخر ستين وآخر ثلاثين. من له أذنان للسمع فليسمع. فتقدم التلاميذ وقالوا له لماذ تكلمهم بأمثال. فأجاب وقال لهم: لأنه قد أُعطِىَ لكم أن تعرفوا أسرار ملكوت السموات. وأما لأولئك فلم يُعطَ. فإن من له سيعُطى ويزُاد. وأما من ليس له فالذى عنده سيؤخذ منه من أجل ذلك أكلمهم بأمثال». والمعنى أن الأمثال تفتح عيون المتقين على أسرار الحكمة الإلهية فيستمتعون بها وتزيدهم تقوى وأما الذى يمر عليها مرًا سريعا دون تفكر وكأنها شيئ عديم القيمة فلن يفهمها. بل إنها تزيده شكا وجهلا. وهذا يشبه قوله تعالى:

«قل هو للذين آمنوا هدى وشفاء والذين لا يؤمنون فى آذانهم وقر وهو عليهم عمًى».

(٤٤ – فصلت).

واستمر عيسى عليه السلام قائلا: «من أجل ذلك أكلمهم بأمثال لأنهم مبصرون لايبصرون وسامعون لا يسمعون ولا يفهمون. فقد تمت فيهم نبوة إشعياء القائلة: تسمعون سمعاً ولا تفهمون. ومبصرين تبصرون ولا تنظرون. لأن قلب الشعب قد غلظ. وآذانهم قد ثقل سمعها وغمَّضوا عيونهم لئلا يبصروا بعيونهم ويسمعوا بآذانهم ويفهموا بقلوبهم ويرجعوا فأشفيهم. ولكن طوبى لعيونكم لأنها تبصر ولآذانكم لأنها تسمع. فإنى الحق أقول لكم. إن أنبياء وأبراراً كثيرين اشتهوا أن يروا ما أنتم ترون ولم يروا. وأن يسمعوا ما أنتم تسمعون ولم يسمعوا».

وهذا يشبه قوله تعالى: **«لهم قلوب لا يفقهون بها ولهم أعين لا يبصرون بها ولهم آذان لا يسمعون بها»**. (١٧٩ – الأعراف).

وقوله تعالى: **«أفلم يسيروا فى الأرض فتكون لهم قلوب يعقلون بها أو آذان يسمعون بها فإنها لا تعمى الأبصار ولكن تعمى القلوب التى فى الصدور»**. (٤٦ – الحج).

ثم بعد ذلك بدأ عيسى عليه السلام يشرح لهم معنى المثل فقال: «فاسمعوا أنتم مثل الزارع: كل من يسمع كلمة الملكوت ولا يفهم فيأتى الشرير ويخطف ما قد زرع فى قلبه. هذا هو المزروع على الطريق. والمزرع على الأماكن المحجَّرة هو الذى يسمع الكلمة وحالا يقبلها بفرح ولكن ليس له أصل فى ذاته بل هو إلى حين فإذا حدث ضيق أو اضطهاد من أجل الكلمة فحالا يعثر. والمزروع بين الشوك هو الذى يسمع الكلمة وهَمُّ هذا العالم وغرور الغنى يخنقان الكلمة فيصير بلا ثمر. وأما المزروع على الأرض الجيدة فهو الذى يسمع الكلمة ويفهم وهو الذى يثمر فيصنع بعض مائة وآخر ستين وآخر ثلاثين.

(٢) مثل الزوان (متى ١٣ : ٢٤) :

قدم لهم مثلا آخر قائلا: يشبه ملكوت السموات إنسانا زرع زرعا جيداً فى حقله وفيما هم نيام جاء عدو وزرع زوانا فى وسط الحنطة (الزوان عشب ضار شديد المرارة ينبت بين أعواد الحبوب وإذا طحنت بذوره مع الغلال فالدقيق الناتج يكون ساما - تفسير الكتاب المقدس، جـ ٥ ص ٥٢). فلما طلع النبات وصنع ثمرا حينئذ ظهر الزوان أيضا فجاء عبيد رب البيت وقالوا له يا سيد أليس زرعا جيدا زرعت فى حقلك فمن أين له زوان؟ فقال لهم: إنسانٌ عدوٌّ فعل هذا. فقال له العبيد أتريد أن نذهب ونجمعه. فقال لا. لئلا تقلعوا الحنطة مع الزوان وأنتم تجمعونه. دعوهم ينْميان كلاهما معا إلى الحصاد. وفى وقت الحصاد أقول للحصادين اجمعوا أولا الزوان واحزموه حزماً ليحرق وأما الحنطة فاجمعوها إلى مخزنى.

وتقدم إليه تلاميذة قائلين فسر لنا مثل الزوان فأجاب وقال لهم: الزارع الزرع الجيد هو الإنسان والحقل هو العالم والزرع الجيد هو بنو الملكوت (المؤمنون) والزوان هو بنو الشرير والعدو الذى زرعه هو إبليس. والحصاد هو انقضاء العالم. والحصادون هم الملائكة فكما.. يجمع الزوان ويحرق بالنار هكذا يكون فى انقضاء هذا العالم يرسل الرب ملائكته فيجمعون من ملكوته جميع المعاثر وفاعلى الإثم ويطرحونهم فى أتون النار هناك يكون البكاء وصرير الأسنان. حينئذ يضىء الأبرار كالشمس فى ملكوت أبيهم. من له أذنان للسمع فليسمع.

٣ - مثل حبة الخردل (متى ١٣ : ٣١) :

«قدّم لهم مثلا آخر قائلا: يشبه ملكوت السموات حبة خردل أخذها الإنسان وزرعها فى حقله. وهى أصغر جميع البذور ولكن متى نمت فهى أكبر البقول وتصير شجرة حتى إن طيور السماء تأتى وتأوى فى أغصانها».

ويُضرب المثل بحبة الخردل فى صغرها كما ورد فى القرآن الكريم: **«وإن كان مثقال حبة من خردل أتينا بها وكفى بنا حاسبين»** (٤٧ - الأنبياء).

ومع صغر حبة الخردل فإنها عندما تنمو قد يبلغ طول شجرها ثلاثة أمتار وكبر النبتة التى تنمو من هذه البذور الصغيرة يمثل تكاثر ملكوت السموات من بداية ضئيلة إلى نهاية فى غاية الكبر (قاموس الكتاب المقدس، دار الثقافة ص ٣٤١) أى أن من يفعل خيرا ولو صغيرا ابتغاء وجه الله يكون أجره كبيرا فى الآخرة.

٤ - مَثل الخميرة :

والمعروف أن العجين إذا اختمر يزيد حجمه، ويضرب كمثل للشيىء الصغير الذى يزيد إلى أضعاف حجمه. قال عيسى (متى ١٣ : ٣٣): «يشبه ملكوت السموات خميرة أخذتها امرأة وخبأتها فى ثلاثة أكيال دقيق حتى اختمر الجميع». ويرى بعض مفسرى الكتاب أن هذا المثل

القصير بشير إلى الكنيسة بفهمها الصحيح للإنجيل ستعمل على نشره فى جميع أنحاء المعمورة.

٥ – مَثل الكنز المخفى واللؤلؤة الثمينة (متى ١٣ : ٤٤) :

«أيضا يشبه ملكوت السموات كنزا مُخفَى فى حقل وجده إنسان فأخفاه ومن فرحه مضى وباع كل ما كان له واشترى ذلك الحقل (وحسب الشريعة اليهودية يصبح الكنز ملكا له). أيضا يشبه ملكوت السموات إنسانا تاجرا يطلب لآلىء حسنة فلما وجد لؤلؤة واحدة كثيرة الثمن مضى وباع ما كان له واشتراها».

ويرى بعض المفسِّرين أن المقصود بهذين المثلين هو ومضة الإيمان التى قد تنير فى القلب فيدرك الإنسان الواعى أن هذه هى الثروة الحقيقية فيبيع كل مباهج الدنيا وزينتها ويتبع ذلك النور. وقد تحدث هذه الومضة الإيمانية مصادفة مثل الكنز المخفى فى الحقل أو تحدث لباحث يبحث عن النفيس من العلم. وفى كلتا الحالتين يناله الخير الكثير والخلاص فى الدنيا والآخرة.

٦ – مَثل شبكة الصيد (متى ١٣ : ٤٧):

قال يسوع «أيضا يشبه ملكوت السموات شبكة مطروحة فى البحر وجامعة من كل نوع. فلما امتلأت أصعدوها على الشاطىء وجلسوا وجمعوا الجيد فى أوعية وأما الردىء فطرحوه بعيدا. هكذا يكون فى انقضاء العالم. يخرج الملائكة ويُفرِزون الإشرار من بين الأبرار ويطرحونهم فى أتون النار هناك يكون البكاء وصرير الأسنان». وهذا المثل يعنى أن الشر موجود مع الخير ومختلط به ويجب فرز الشر لتجنُّبه أما الذين يتبعون الشر فإن مصيرهم فى الآخرة إلى النار.

٧ – حوار مع الفريسيين حول النجاسة (متى ١٥ : ١) :

«جاء إليه (إلى يسوع) كتبة وفريسيون من أورشليم قائلين: لماذا يتعدى تلاميذك التقاليد فإنهم لا يغسلون أيديهم حينما يأكلون خبزا. فأجاب وقال لهم: وأنم أيضا لماذا تتعدون وصية الله فإن الله أوصى قائلا أكرم أباك وأمك ومن يشتم أبا أو أما فليمت موتا. وأما أنتم فتقولون من قال لأبيه أو أمه قربان هو الذى تنتفع به منى فلا يُكرِم أباه أو أمه فقد أبطلتم وصية الله. يامراءون. حسناً تنبأً عنكم إشعياء قائلا: يقترب إلى هذا الشعب ويكرمنى بشفتيه وأما قلبه فمبتعد عنى بعيدا». وهو هنا يشير إلى ما كان يفعله بعض اليهود – ويقرُّه بل ويشجعه الكهنة – من جعل ممتلكاتهم وقفا للهيكل وبذا يتجنب ضرورة إعالة والديه مع أنه يستطيع أن يتمتع بريعها. وهذا التصرف وإن كان يبدو فى ظاهره قانونيا إلا أنه مخالف لروح الشريعة التى تحضُّ على إكرام الوالدين. فنعى عليهم عدم استنكارهم لهذا التصرف وتمسكهم بالتافه من الأمور وهو غسل الأيدى قبل الأكل. ويستمر الإنجيل قائلا: «ثم دعا الجميع وقال لهم اسمعوا

وافهموا. ليس ما يدخل الفم يُنجِّس الإنسان، بل ما يخرج من الفم هذا يُنجِّس الإنسان. حينئذ تقدم تلاميذه وقالوا له أتعلم أن الفريسيين لما سمعوا القول نفروا. فأجاب وقال لهم: كل غرس لم يغرسه رب السموات يُقلع. اتركوهم. هم عميان قادة عميان. وإن كان أعمى يقود أعمى يسقطان كلاهما فى حفرة». فأجاب بطرس وقال له فَسِّر لنا هذا المثل. فقال يسوع: وهل أنتم أيضا حتى الآن غير فاهمين؟ ألا تفهمون بعدُ أن ما يدخل الفم يمضى إلى الجوف ويندفع إلى المخرج. وأما ما يخرج من الفم فمن القلب يصدر وذاك يُنجِّس الإنسان لأن من القلب تخرج أفكار شريرة: قتل. زنى. فسق. سرقة. شهادة زور. تجديف. هذه هى التى تُنجِّس الإنسان وأما الأكل بأيد غير مغسولة فلا يُنجِّس».

٨ – الفريسيون والصدوقيون يطلبون آية (متى ١٦ : ١):

«وجاء إليه الفريسيون والصدُّوقيون ليجربوه فسألوه أن يريهم آية من السماء فأجاب وقال لهم: إذا كان المساء قلتم صحو لأن السماء مُحمرَّة. وفي الصباح شتاء لأن السماء محمرَّة بعبوسة. يا مراءون. تعرفون أن تميزوا وجه السماء وأما علامات الأزمنة فلا تستطيعون. جيل شرير فاسق يلتمس آية. ولا تعطى لهم آية. ثم تركهم ومضى». يذكر إنجيل مرقس (٨ : ١١) هذه الحادثة باختصار هكذا: «فخرج الفريسيون وابتدأوا يحاورونه طالبين منه آية من السماء لكى يجربوه. فتنهَّد بروحه وقال: لماذا يطلب هذا الجيل آية. الحق أقول لكم. لن يعطى هذا الجيل آية».

واضح أن الفريسيين لم يطلبوا آية ليؤمنوا. ولكن لكى يمتحنوه ويقنعوا أنفسهم أنه ليس المخلص الذى ينتظره بنو إسرائيل وعلم عيسى بنيَّتهم هذه ورفض أن يأتيهم بآية وأفهمهم أنهم قادرون على استطلاع السماء من ناحية صفو الجو أو عبوسه فالأحرى – لو كانت نيتهم صادقة – أن يؤمنوا بالآيات الكثيرة التى أتى بها من شفاء المرضى وإحياء الموتى وغير ذلك من المعجزات.

٩ – التحذير من تعليم الفريسيين والصدوقيين (متى ١٦ : ٥) :

«ولما جاء تلاميذه إلى العبر (أى عبروا بحر الجليل) نسوا أن يأخذوا خبزا وقال لهم يسوع. انظروا وتحرَّزوا من خمير الفريسيين والصدوقيين. ففكرُّوا فى أنفسهم قائلين إننا لم نأخذ خبزا. فعلم يسوع وقال لهم: لماذا تفكِّرون فى أنفسكم يا قليلى الإيمان أنكم لم تأخذوا خبزا. أحتى الآن لا تفهمون أنى ليس عن الخبز قلت لكم أن تتحرَّزوا من خمير الفريسيين والصدوقيين. حينئذ فهموا أنه لم يقل أن يتحرَّزوا من خمير الخبز بل من تعليم الفريسيين والصدوقيين».

١٠ – قوة الإيمان تصنع المعجزات (متى ١٧ : ٢٠):

«فقال لهم يسوع. فالحق أقول لكم. لو كان لكم إيمان مثل حبة خردل لكنتم تقولون لهذا الجبل انتقل من هنا إلى هناك فينتقل ولا يكون شيء غير ممكن لديكم».

وهذا يشبه الحديث القدسي القائل: «عبدى أطعنى تكن ربَّانيا تقول للشيئ كن فيكون».

١١ – الإيمان الصادق :

فى هذا المثل يشبه المؤمن رقيق الحال بالولد الصغير البرىء الذى ليس فى إيمانه ذرة من رياء. جاء فى الإنجيل (متى ١٨ : ١): «تقدم التلاميذ إلى يسوع قائلين: فمن هو أعظم فى ملكوت السموات؟ فدعا يسوع إليه ولداً وأقامه فى وسطهم وقال: الحق أقول لكم. إن لم ترجعوا وتصيروا مثل الأولاد فلن تدخلوا ملكوت السموات. فمن وضع نفسه مثل هذا الولد فهو الأعظم فى ملكوت السموات. ومن أعثر أحد هؤلاء الصغار المؤمنين بى فخير له أن يُعلَّق فى عنقه حجرالرمى ويُغرق فى لجة البحر. ويل للعالَم من العثرات. فلابد أن تأتى العثرات ولكن ويل لذلك الإنسان الذى به تأتى العثرة. فإن أعثرتك يدك أو رجلك فاقطعها وألقها عنك. خير لك أن تدخل الجنة أعرج أو أقطع من أن تلقى فى النار الأبدية ولك يدان أو رجلان. وإن أعثرتك عينك فاقلعها وألقها عنك. خير لك أن تدخل الجنة أعور من أن تلقى فى نار جهنم ولك عينان لأن ابن الإنسان (أى عيسى نفسه) قد جاء لكى يخلِّص ما قد هلك (من ارتكب خطيئة). ماذا تظنون. إن كان لإنسان مائة خروف وضلَّ واحد منها. أفلا يترك التسعة والتسعين على الجبال ويذهب يطلب الضال وإن اتفق أن يجده فالحق أقول لكم إنه يفرح به أكثر من التسعة والتسعين التى لم تضل. هكذا ليست مشيئة أبيكم الذى فى السموات أن يهلك أحد هؤلاء الصغار (صادقى الإيمان)».

١٢ – إطاعة قوانين الجماعة :

كانت هناك ضريبة اسمها ضريبة صيانة الهيكل مفروضة على كل يهودى أكبر من ٢٠ سنة مقدارها درهمين يدفعها سنويا إعانة لصيانة الهيكل. وكان سلالة بيت داود معفيين منها. ولما كان عيسى من بيت داود لذلك لم يكن عليه أن يدفع الضريبة. ولكن لما قد يُساء فَهمُ امتناعه عن دفع هذه الضريبة وأنه يكسر القانون لذلك فإنه ارتضى لنفسه أن يدفع الضريبة مثل باقى الشعب. ولما لم يكن معه نقود فإنه أتى بمعجزة لدفع الضريبة. جاء فى إنجيل متى (١٧ : ٢٤): «ولما جاء إلى كفر ناحوم تقدم الذين يأخذون الدرهمين إلى بطرس وقالوا: أما يوفى معلمكم الدرهمين؟ قال بلى. فلما دخل البيت سبقه يسوع قائلا: اذهب إلى البحر وألق صنارة والسمكة التى تطلع أولا خذها ومتى فتحت فاها تجد عملة فضية فخذها وأعطهم عنى وعنك».

١٣ – فى الصلح بين المتخاصمين :

قال عيسى عليه السلام (متى ١٨ : ١٥): «وإن أخطأ إليك أخوك فاذهب وعاتبه بينك وبينه وحدكم. إن سمع منك فقد ربحت أخاك. وإن لم يسمع فخذ معك أيضا واحدا أو اثنين لكي تقوم كل كلمة على فم شاهدين أو ثلاثة. وإن لم يسمع منك فقل للكنيسة. وإن لم يسمع من الكنيسة فليكن عندك كالوثني أو العشَّار. حينئذ تقدم إليه بطرس وقال له: كم مرة يخطيء إليَّ أخي وأنا أغفر له هل سبع مرات؟ قال له يسوع: لا أقول لك إلى سبع مرات بل إلى سبعين مرة سبع مرات.

١٤ – مَثَل المدين عديم الرحمة (متى ١٨ : ٢٣) :

قال يسوع «يشبه ملكوت السموات إنسانا مَلِكا أراد أن يحاسب عبيده. فلما ابتدأ في المحاسبة قُدِّم إليه واحد مديون بعشرة آلاف وزنة (كناية عن أن الدين كان عظيما جداً). وإذ لم يكن له ما يوفى أمر سيده أن يُباع هو وامرأته وأولاده وكل ماله ويوفى الدين. فخرَّ العبد وسجد له قائلا يا سيد تمهَّل على فأوفيك الجميع. فتحنَّن سيد ذلك العبد وأطلقه وترك له الدين. ولما خرج ذلك العبد وجد واحدًا من العبيد رفقائه كان مديونا له بمائة دينار فأمسكه وأخذ يعنقه قائلا أوفنى ما عليك. فخرَّ العبد رفيقه على قدميه وطلب إليه قائلا: تمهَّل عليَّ فأوفيك الجميع. فلم يُرد بل مضى وألقاه في سجن حتى يوفى الدين. فلما رأى العبيد رفقاؤه ما كان حزنوا جدا وأتوا وقصوا على سيدهم كل ما جرى. فدعاه حينئذ سيده وقال له: أيها العبد الشرير. كل ذلك الدين تركته لك لأنك طلبت إليَّ. أفما كان ينبغى أنك أنت أيضا ترحم العبد رفيقك كما رحمتك أنا؟ وغضب سيده وسلَّمه إلى المعذِّبين حتى يوفى كل ما كان له عليه. فكهذا أبى السماوى يفعل بكم إن لم تتركوا من قلوبكم كل واحد لأخيه زلاته.

١٥ – تعليم عن الطلاق والزواج :

في هذا المثال أوضح عيسى للفريسيين تعاليم جديدة عن الطلاق. جاء في إنجيل متى (١٩ : ٣): «وجاء إليه الفريسيون ليجربوه (أى ليمتحنوه) قائلين له هل يحل للرجل أن يطلق امرأته لكل سبب (أى لأى سبب ولو تافه)؟». وفي ذلك الوقت كان هناك مذهبان فكريان بين اليهود. أحدهما لا يبيُح الطلاق إلا بسبب الخيانة الزوجية أو الفسق والثاني يجيزه لعلل تافهة. «فأجابهم وقال لهم. أما قرأتم أن الذى خلق من البدء خلقهما ذكرا وأنثى وقال من أجل هذا يترك الرجل أباه وأمه ويلتصق بامرأته ويكون الاثنان جسداً واحداً وإذاً ليس بعدُ اثنين بل جسد واحد، فالذى جمعه الله لا يفرِّقه إنسان. قالوا له فلماذا أوصى موسى أن يُعطى كتاب الطلاق فتطلَّق. قال لهم إن موسى من أجل قساوة قلوبكم أذن لكم أن تطلِّقوا نساءكم ولكن من البدء لم يكن هكذا. وأقول لكم. إن من طلَّق امرأته إلا بسبب الزنا وتزوج بأخرى فإنه يزنى. والذى يتزوج بمطلقة يزنى. قال له تلاميذه. إن كان هكذا أمر الرجل مع المرأة فلا يوافق أن يتزوج» وهم يشيرون إلى أن المرأة أحيانا تكون مشاغبة أو خائنة لزوجها ومادام لا يمكنه

الطلاق فإن الزواج فى هذه الحالة يكون نقمة وليس نعمة فالأولى تجنبه كلية. «فقال لهم: ليس الجميع يقبلون هذا الكلام بل الذين أعطى لهم» وراح يشرح لهم أنه يوجد أشخاص بطبيعتهم عزوفين عن النساء وهؤلاء يمكنهم العيش دون زواج. وهناك أشخاص عندهم غريزة طيِّعة يمكنهم كبتها. وهناك أشخاص لهم من قوة الإرادة ما يمكنهم من كبح غريزتهم لأجل ملكوت السموات «من استطاع أن يقبل فليفعل» وأغلب الظن أن فكرة الرهبنة وعدم الزواج للتفرُّغ كلية لعبادة الرب نبعت من هذه الفقرة. ولكن القاعدة هى الزواج اللازم لاستمرارية الجنس البشرى وهذا هو الغالب والمفروض ولكن هناك المسموح ولكل إنسان أن يختار حسب تكوينه الجسمانى وتركيبه النفسى.

١٦ – حب المال وحب الدنيا (متى ١٩ : ١٦) :

«وإذا واحد تقدم وقال له أيها المعلِّم الصالح: أى صلاح أعمل لتكون لى الحياة الأبدية. فقال له لماذا تدعونى صالحا. ليس أحد صالحاً إلا واحد وهو الله. ولكن إن أردت أن تدخل الحياة فاحفظ الوصايا. قال له أيَّةُ الوصايا؟ فقال يسوع: لا تقتل. لا تزن. لا تسرق. لا تشهد بالزور. أكرم أباك وأمك وأحب قريبك كنفسك. فقال له الشاب. هذه كلها حفظتها منذ حداثتى فماذا يُعوزنى بعدُ. قال له يسوع. إن أردت أن تكون كاملا فاذهب وبع أملاكك وأعط الفقراء فيكون لك كنز فى السماء وتعالى اتبعنى. فلما سمع الشاب الكلمة مضى حزينا لأنه كان ذا أموال كثيرة. فقال يسوع لتلاميذه. الحقَّ أقول لكم إنه يعسر أن يدخل غنى إلى ملكوت السموات. وأقول لكم إيضا إن مرور جمل من ثقب إبرة أيسر من أن يدخل غنى إلى ملكوت الله. فلما سمع تلاميذه بُهتوا جدا قائلين. إذا من يستطيع أن يخلُص. فنظر إليهم يسوع وقال لهم: هذا عند الناس غير مستطاع ولكن عند الله كل شيء مستطاع. فأجاب بطرس حينئذ وقال له: ها نحن قد تركنا كل شيء وتبعناك. فماذا يكون لنا؟ فقال لهم يسوع كل من ترك بيوتا أو إخوة أو أخوات أو أبا أو أما أو امرأة أو أولادا أو حقولا من أجل اسمى يأخذ مائة ضعف ويرث الحياة الأبدية».

١٧ – السابقون واللاحقون ومثل العُمَّال والأجر :

ظن بعض الحواريين أنهم باتباعهم المسيح قد صارت لهم مكانة مميزة فى السماء لن ينالها أحد ممَّن يأتى بعدهم. فأراد عيسى عليه السلام أن يوضح لهم خطأ هذا الاعتقاد فضرب لهم مَثَل العمال والأجر. فقال (متى ٢٠ : ١): «إن ملكوت السموات يشبه رجلا رب بيت خرج مع الصبح ليستأجر فعلة لكَرمْه فاتفق مع الفَعَلة على دينار فى اليوم وأرسلهم إلى كرمه. ثم خرج نحو الساعة الثالثة ورأى آخرين قياما فى السوق عاطلين فقال لهم اذهبوا أنتم أيضا إلى الكرم فأعطيكم ما يحق لكم فمضوا. وخرج أيضا نحو الساعة السادسة والتاسعة وفعل كذلك. ثم نحو الساعة الحادية عشر خرج ووجد آخرين قياما عاطلين فقال لهم لماذا وقفتم ههنا كل

النهار عاطلين. قالوا لأنه لم يستأجرنا أحد. قال لهم اذهبوا أنتم أيضا إلى الكرم فتأخذوا ما يحق لكم. فلما كان المساء قال صاحب الكرم لوكيله. ادع الفعلة وأعطهم الأجر مبتدئا من الآخرين إلى الأولين. فجاء أصحاب الساعة الحادية عشرة فأخذوا دينارا. فلما جاء الأولون ظنوا أنهم يأخذون أكثر فأخذوا هم أيضا دينارا. وفيما هم يأخذون تذمَّروا على رب البيت قائلين هؤلاء الآخرين عملوا ساعة واحدة وقد ساويتهم بنا نحن الذين احتملنا ثقل النهار والحر فأجاب وقال لواحد منهم. يا صاحبُ ما ظَلَمتُك. أما اتفقت معي على دينار فخذ الذي لك واذهب فإني أريد أن أعطي هذا الأخير مثلك. أوما يحل لي أن افعل ما أريد بمالي أم عينك شريرة لأني أنا صالح» (أي أنه يحقد على أخيه لما ناله من خير). والمعنى الاجمالي للمثل أن من دخل في ملكوت الله. أي تاب ورجع إلى الله – حتى لو كان ذلك في وقت متأخر ولم يعمل من الصالحات إلاَّ القليل فقد وقع أجره على الله ويُدخله الله الجنة بفضله وبرحمته.

ويزيد القرآن في أن ثواب التائب قد يكون أكثر مما عمل من الأعمال الصالحة **«إلا من تاب وآمن وعمل عملا صالحا فأولئك يبدِّل الله سيئاتهم حسنات وكان الله غفورا رحيما»** (٧٠ – الفرقان) وهناك أحاديث نبوية شريفة يضيق المقال عن ذكرها – توضح أن الأعمال بخواتيمها. وبصدق النية عند عملها.

١٨ – الراعي الصالح (يوحنا ١٠ : ١ – ٢١):

ضرب يسوع عليه السلام هذا المثل بعد أن شفى الأكمه (ص ٦٩) ليوضح للفريسيين أنهم ليسوا جديرين بأن يقودا الآخرين. ومعروف أن حظيرة الخراف عبارة عن حوش يحيط به سياج والدخول إليه يكون عن طريق باب تساق منه الخراف ليلا لحمايتها وفي الصباح يأتي الراعي فيفتح له البواب الباب. أما السارق فيحاول أن يتسلق السور. فطريقة الدخول تُبيِّن الراعي الحقيقي. وفوق ذلك فإن الخراف تعرف صوت صاحبها وتأنس إليه أما صوت السارق فإنه يسبب لديها ذعرا. والراعي الحقيقي يعرف خرافه لأنه قد أطلق عليها أسماء وهو يسير أمامها وهي تتبعه مطمئنة. قال عيسى:

«الحق الحق أقول لكم. إن الذي لايدخل من الباب إلى حظيرة الخراف بل يطلع من موضع آخر فذاك سارق ولص. وأما الذي يدخل من الباب فهو راعي الخراف. لهذا يفتح البواب والخراف تسمع صوته فيدعو خرافه الخاصة بأسماء ويخرجها ومتى أخرج خرافه الخاصة يذهب أمامها والخراف تتبعه لأنها تعرف صوته. وأما الغريب فلا تتبعه بل تهرب منه لأنها لا تعرف صوت الغرباء. هذا المثل قاله لهم يسوع. وأما هم فلم يفهموا ما هو الذي يكلمهم به. فقال لهم يسوع: أيضا الحقَّ أقول لكم: إني أنا باب الخراف. جميع الذين أتوا قبلي – الكتبة والكهنة – هم سراق ولصوص. ولكن الخراف لم تسمع لهم. أنا هو الباب. إن دخل بي أحد فيخلُص ويدخل ويخرج ويجد مرعىً. السارق لا يأتي إلا ليسرق ويذبح ويهلك. وأما أنا فقد

أتيت لتكون لهم حياة وليكون لهم أفضل. أنا هو الراعى الصالح. والراعى الصالح يبذل نفسه عن الخراف وأما الذى هو أجير وليس راعيا . الذى ليست الخراف له فيرى الذئب مقبلا يترك الخراف ويهرب فيخطف الذئب الخراف ويبددها . والأجير يهرب لأنه أجير ولا يبالى بالخراف. أما أنا فإنى الراعى الصالح وأعرف خاصتى وخاصتى تعرفنى. وأنا أضع نفسى عن الخراف ولى خراف أخرى ليست من هذه الحظيرة ينبغى أن آتى بتلك أيضا فتسمع صوتى وتكون رعية واحدة وراعٍ واحد. لهذا يحبُّنى الرب لأنى أضع نفسى لآخذها أيضا. ليس أحد يأخذها منى بل أضعها أنا من ذاتى. لى سلطان أن أضعها ولى سلطان أن آخذها أيضا. هذه الوصية قبلتُها من ربى».

ويقصد عيسى عليه السلام أنه هو باب الدخول إلى ملكوت السموات وعن طريق الإيمان به يكون الدخول إلى ملكوت الله. أما الهيئة الكهنوتية فهم مثل سُرَّاق ولصوص لأنهم حجبوا تعاليم الله وأبدلوا وصاياه. ولم تنقد لهم الخراف لأنهم ذئاب فى ثياب حملان. وهدفهم هو استغلال الشعب أما عيسى فقد جاء لكى تكون للناس حياة أفضل. وهو يدافع عن الشعب بأقصى ما يمكن حتى إنه ليبذل روحه طواعيه من أجله، ليس فقط أفراد الشعب اليهودى بل أفراد من الأمم الأخرى يرى لزاماً عليه أن يهديها إلى الله فتكون حظيرة واحدة. ورعية واحدة وراعٍ واحد.

ويختم الإنجيل هذا المثل بقوله: «فحدث أيضا انشقاق بين اليهود بسبب هذا الكلام. فقال كثيرون منهم: به شيطان وهو يهذى لماذا تسمعون له. آخرون قالوا: ليس هذا كلام من به شيطان ألعلَّ شيطانا يقدر أن يفتح أعين العميان!».

الفصل التاسع

المسيح فى أورشليم

استخلاف بطرس :

«قال يسوع . طوبى لك ياسمعان بن يونا . أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبنى كنيستى ،أبواب الجحيم لن تقوى عليها . أعطيك مفاتيح ملكوت السموات. فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطا فى السموات. وكل ما تُحِلُّه على الأرض يكون محلولا فى السموات».

المسيح يتنبأ بالقبض عليه ومحاولة قتله :

يقول الإنجيل (متى ٢١:١٦): «من ذلك ابتدأ يسوع يُظهر لتلاميذه أنه ينبغى أن يذهب إلى أورشليم ويعانى كثيرا من الشيوخ ورؤساء الكهنة والكتبة، ويُقتَل. وفى اليوم الثالث يقوم» ونلاحظ هنا أن كاتبى الإنجيل كانوا متأثرين بعقيدة الصلب – الأمر الذى لم يحدث حسب عقيدتنا نحن المسلمين – واستمر يسوع يقول لتلاميذه «إن أراد أحد أن يأتى ورائى فلينكر نفسه ويحمل صليبه (أى لا يهتم بحياته) ويتبعنى. فإن من أراد أن يخلِّص نفسه يُهلكها ومن يهلك نفسه من أجلى يجدها. لأنه ماذا ينتفع الإنسان لو ربح العالم كله وخسر نفسه. أو ماذا يُعطِى الإنسان فداء عن نفسه. فإن ابن الانسان سوف يأتى مع الملائكة (عودة المسيح فى آخر الزمان) وحينئذ يجازِى كل واحد حسب عمله .

ويتكرر التنبؤ بقتلة فى متى ٢٢:١٧: «وفيما هم يترددون فى الجليل قال لهم يسوع ابن الانسان سوف يُسلَّم إلى أيدى الناس فيقتلونه وفى اليوم الثالث يقوم».

التجلى الإلهى لعيسى (متى ١٧ : ١) :

«أخذ يسوع بطرس ويعقوب ويوحنا أخاه وصعد بهم إلى جبل عالٍ منفردين. وتغيرت هيئته قدامهم وأضاء وجهه كالشمس وصارت ثيابه بيضاء كالنور. وإذا موسى وإيليا قد ظهرا يتكلمان معه. وقال بطرس للمسيح. فإن شئت أن نصنع هنا ثلاث مظال. لك واحدة ولموسى واحدة ولإيليا واحدة (وهذا كناية عن رغبته فى أن يظلوا وسطهم). وفيما هم كذلك إذا سحابة نَيِّرة ظلَّلتهم وصوت من السحابة قائلا: هو ابنى الحبيب الذى به سررت. له اسمعوا. ولما سمع

التلاميذ سقطوا على وجوههم. ولمسهم يسوع وقال قوموا فرفعوا أعينهم ولم يروا أحداً إلاّ يسوع وحده. وفيما هم نازلون من الجبل أوصاهم يسوع قائلا: لا تخبروا أحداً بما رأيتم».

الدخول إلى أورشليم (متى ٢١ : ١) :

جاء فى الإنجيل (مت ٢١ : ١) «ولما قربوا من أورشليم وعند جبل الزيتون أرسل يسوع تلميذين قائلا لهما. اذهبا إلى القرية التى أمامكما تجدان أتانا وجحشا معها فحلاهما وأتيانى بهما. فكان هذا كله لكى يتم ما قيل بالنبى القائل. قولوا لابنة صهيون (أى أورشليم) هو ذا ملك يأتيك وديعا راكبا على أتان وجحش. فذهب التلميذان وفعلا كما أمرهما يسوع وأتيا بالأتان والجحش ووضعا عليهما ثيابهما فجلس عليها والجمع الأكثر فرشوا ثيابهم فى الطريق. وآخرون قطعوا أغصانا من الشجر وفرشوها فى الطريق. والجموع الذين تقدموا والذين تبعوا كانوا يصرخون قائلين: مبارك الآتى باسم الرب. مبارك ابن داود. وتساءل أهل أورشليم قالوا من هذا. فأجابتهم الجموع هذا المسيح نبى الناصرة من الجليل».

تطهير الهيكل :

يقول الإنجيل (متى ٢١ : ١٢): «ودخل يسوع إلى هيكل الله. وأخرج جميع الذين كانوا يبيعون ويشترون فى الهيكل وقلب موائد الصيارفة وكراسى باعة الحمام».

كانت الشريعة اليهودية تقضى أن كل من بلغ العشرين من عمره عليه أن يدفع نصف شاقل إلى خزينة الرب فدية عن نفسه. ثم صارت هذه الضريبة تدفع كل سنة. كذلك فإن الأتقياء من اليهود كانوا يبذلون من المال طوعا فيلقونه فى خزائن موضوعة فى الهيكل ويجب أن يكون هذا المال بالعملة الوطنية. وحيث أن جماهير كثيرة من اليهود كانت تفد من بلاد بعيدة حاملة معها عملة بلادها فقد كان لزاما عليها أن تحول هذا النقد الأجنبى إلى العملة الوطنية عند الصيارفة المنتشرين فى المدينة. ولكن عند اقتراب العيد كان الصيارفه يقيمون لأنفسهم مكاتب وموائد بجوار الهيكل. كذلك كان قربان ذبائح السلامة وذبائح الخطية (انظر الجزء الرابع ص ١٠٣٣ – ١٠٣٤) تختلف من شاة أو كبش إلى فرخى حمام حسب مقدرة مُقدِّمها وكان باعة المواشى والحمام لهم كراسى أيضا فى الهيكل بجانب الصيارفة. وكان هذا مع ما يثيرونه من ضوضاء وشغب لا يتفق مع قداسة الهيكل.

يقول الإنجيل (متى ١٣:٢١): «فقام يسوع بقلب موائد الصيارفة وكراسى باعة المواشى والحمام وقال لهم. مكتوب بيتى بيتَ الصلاة يدعى وأنتم جعلتموه مغارة لصوص. وتقدم إليه عُمى وعُرج فى الهيكل فشفاهم. فلما رأى رؤساء الكهنة والكتبة العجائب التى صنع والأولاد يصرخون فى الهيكل ويقولون مبارك ابن داود غضبوا وقالوا أتسمع مايقول هؤلاء. فقال لهم

يسوع: أما قرأتم قط «من أفواه الأطفال والرضَّع هيأت تسبيحا؟ ثم تركهم وخرج خارج المدينة إلى بيت عنيا وبات هناك» (وبيت عنيا كانت قرية على الكتف الشرقى من جبل الزيتون تبعد حوالى ٢كم إلى الشرق من أورشليم).

يسوع وشجرة التينة :

جاء فى الإنجيل (متى ٢١:١٨) . «وفى الصبح إذ كان راجعا إلى المدينة جاع فنظر شجرة تين على الطريق وجاء إليها فلم يجد شيئا إلاَّ ورقا فقط فقال لها: لا يكن منك ثمر بعد إلى الأبد. فيبست التينة فى الحال. فلما رأى التلاميذ ذلك عجبوا قائلين: كيف يبست التينة فى الحال. فأجاب يسوع وقال لهم: الحق أقول لكم. إن كان لكم إيمان ولا تَشكُّون فلا تفعلون أمر التينة فقط بل ان قلتم لهذا الجبل انتقل وانطرح فى البحر فيكون. وكل ما تطلبونه فى الصلاة مؤمنين تنالونه».

وهذا نفس معنى الحديث القدسى: «عبدى أطعنى تكن ربانيا تقول للشيىء كن فيكون» كما سبق أن ذكرنا فى ص ٧٩.

حوار مع رؤساء الكهنة حول سلطة يسوع :

«ولما جاء إلى الهيكل تقدم إليه رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب وهو يُعلِّم قائلين: بأى سلطان تفعل هذا ومن أعطاك هذا السلطان؟ فأجاب يسوع وقال لهم: وأنا أيضا أسألكم كلمة واحدة فإن قلتم لى عنها أقول لكم أنا أيضا بأى سلطان أفعل هذا. معمودية يوحنا من أين كانت. من السماء أم من الناس؟ ففكرُّوا فى أنفسهم قائلين. إن قلنا من السماء يقول لنا فلماذا لم تؤمنوا به وإن قلنا من الناس (أى من عند نفسه) نخاف من الشعب لأن يوحنا عند الجميع مثل نبى. فأجابوا يسوع وقالوا لا نعلم. فقال لهم هو أيضا. ولا أنا أقول لكم بأى سلطان أفعل هذا».

من كان منكم بلا خطيئة (يوحنا ٨ : ١) :

«ثم حضر أيضا إلى الهيكل فى الصبح وجاء إليه جميع الشعب فجلس يعلِّمهم وقدَّم إليه الكتبة والفريسيون امرأة أُمسكت فى زنا. ولما أقاموها فى الوسط قالوا له يا معلِّم هذه المرأة أُمسكت وهى تزنى فى ذات الفعل. وموسى فى الناموس أوصانا أنَّ مثل هذه تُرجم. فماذا تقول أنت؟ قالوا هذا ليجربُّوه لكى يكون لهم ما يشتكون به عليه. وأما يسوع فانحنى إلى أسفل وكان يكتب بإصبعه على الأرض. ولمَّا استمرُّوا يسألونه انتصب وقال لهم «من كان منكم بلا خطيئة فليرمها أولا بحجر» ثم انحنى أيضا إلى أسفل وكان يكتب على الأرض. وأما هم

فلما سمعوا وكانت ضمائرهم تُبكِّتهم خرجوا واحدا فواحدا مبتدئين من الشيوخ إلى الآخرين. وبقي يسوع وحده والمرأة واقفة في الوسط. فلما رفع يسوع رأسه ولم ينظر أحدا سوى المرأة قال لها يا امرأة أين هم أولئك المشتكون عليك. أما دانك أحد؟ فقالت لا أحد ياسيد. فقال لها يسوع ولا أنا أدينك اذهبى ولا تخطئى أيضا.

لقد أراد الكتبة والفريسيون أن ينصبوا له شركا. فقد كان يمكنهم أن يذهبوا بها إلى القاضى فيصدر عليها حكمه. لكنهم أرادوا إحراج عيسى. فإن قال ارجموها فقد جعل من نفسه قاضيا وادَّعى حق الولاية فيمكنهم أن يشتكوا عليه. وإن قال أطلقوها فقد خالف شريعة موسى فى قلب الهيكل! ولكنه خلَص إلى حل لا يدَّعى به السلطة ولا ينكر به الشريعة وفى نفس الوقت لا يجاملهم بل يشير إلى أن لهم هم أيضا خطاياهم ومستحقين إقامة الحد عليهم كما حرصوا على إقامة الحد على هذه المرأة.

يسوع يُعلِّم فى أورشليم بالأمثال

راح عيسى عليه السلام يناقش الكهنة والكتبة والفريسيين والصدوقيين وجميع الطوائف ويضرب لهم الأمثال ليوضح لهم ما يريد.

١ – مَثَل الابنين . والفريسيون والعشارون:

«ثم ضرب لهم مثلا فقال «ماذا تظنون؟ كان لإنسان ابنان. فجاء إلى الأول وقال يا ابنى اذهب اليوم اعمل فى كرمى فأجاب وقال لا أريد. ولكنه فيما بعد ندم ومضى (ليعمل فى الكرم). وجاء إلى الثانى وقال كذلك فأجاب وقال ها أنا يا سيد ولم يمضِ (أى أنه أظهر الموافقة بلسانه ولكنه لم يفعل) فأى الاثنين عمل إرادة الرب؟. قالوا الأول. قال لهم يسوع الحق أقول لكم إن العشارين يسبقونكم إلى ملكوت الله لأن يوحنا جاءكم فى طريق الحق فلم تؤمنوا به وأما العشارون فآمنوا به. وأنتم إذ رأيتم لم تندموا أخيرا لتؤمنوا».

ويرى أهل الكتاب (تفسير الكتاب المقدس جـ ٥ ص ٧١) أن الفريسيين كانوا بمثابة الابن الذى تظاهر بأنه مطيع ولكنه لم يُنفِّذ. وأن العشارين كالابن الذى لم يطع أولا ولكنه بعدئذ تاب ولذلك صاروا مقبولين عند الرب.

والعشَّارون جمع عشَّار. وهو ملتزم جمع ضريبة العشر فى الامبراطورية الرومانية. وكانوا عادة من الرومان الأثرياء الذين يتعهدون بجمع الضرائب أو تسديدها من جيوبهم فى حال عجزهم عن جمعها. ولكن أيضا كان هناك عشارون من اليهود الأغنياء وكانوا يقرضون المحتاجين بالربا. وكانوا يلجأون إلى العنف عند تحصيل ضريبة العشر أو عند استيفاء ديونهم ولذلك اشتُهروا بالقسوة والظلم حتى إن الشعب احتقرهم ومنعهم من دخول الهيكل أو من

الاشتراك في الصلاة. وقد بلغ من نقمة الشعب على العشّارين أن نعى الفريسيون على يسوع جلوسه ليأكل مع العشارين (متى ٩:١) «فلما نظر الفريسيون قالوا لتلاميذه لماذا يأكل مُعلّمكم مع العشارين والخطاة؟». والحقيقة أن يسوع قصد بهذا أن يحرر العشارين من الوصمة التي لحقت بهم. وقد آمن به عدد كبير من العشارين واتبعوه. وقد ذكرنا آنفا في مثل الابنين أن المشارين الذين تابوا عن المظالم قد قبلهم الله في ملكوت السموات.

٢ – مثل الكرّامين الأشرار :

قال يسوع (متى ٢١:٣٣) «اسمعوا مثلا آخر. كان إنسان رب بيت غرس كرما وأحاطه بسياج وحفر فيه معصرة وبنى برجا وسلّمه إلى كرّامين وسافر (الكَرْم العنب والكرّام العامل في الكرم وجمعها كرّامون). ولما قرب وقت الإثمار أرسل عبيده إلى الكرامين ليأخذ أثماره. فأخذ الكرامون عبيده وجلدوا بعضا وقتلوا بعضا ورجموا بعضا. ثم أرسل إليهم ابنه قائلا يهابون ابني. وأما الكرامون فلما رأوا الابن قالوا فيما بينهم هذا هو الوارث هلموا نقتله ونأخذ ميراثه. فأخذوه وأخرجوه خارج الكرم وقتلوه . فمتى جاء صاحب الكرم ماذا يفعل بأولئك الكرامين؟. قالوا له: أولئك الأشرار يهلكهم هلاكا ويُسلِّم الكرم إلى كرامين آخرين يعطونه الأثمار في أوقاتها. فقال: لذلك أقول لكم إن ملكوت الله يُنزع منكم ويعطى لأمة تعمل أثماره. ولما سمع رؤساء الكهنة والفريسيون أمثاله عرفوا أنه تكلّم عليهم وأرادوا أن يمسكوه ولكنهم خافوا من الجموع لأنه كان عندهم مثل نبي» وواضح من المثل أن عيسى عليه السلام شبّه اليهود بالكرامين الأشرار الذين استؤمنوا على الشريعة فلم يعملوا بها فكان عدلا أن تنزع الخلافة منهم وتُعطى إلى أمة جديدة أمينة هم أتباع المسيح.

٣ – مثل وليمة الملك ولباس العرس :

كانت العادة الشرقية قديما لاحتفلات العرس أن يعقد الاحتفال في بيت العريس الذي يتحمل تكاليفه وليس في بيت العروس كما يحدث في أيامنا هذه. وإذا كان العريس غنيا عليه أن يُجَهِّز ألبسة يوزعها على الضيوف ويلبسونها أمامه ومن لم يفعل ذلك من المدعوين اعتبر عمله إهانة للعريس (قاموس الكتاب المقدس. دار الثقافة ص ٦١٨). وقد شبّه الكتاب المقدس علاقة يهوه (الله) مع شعبه ثم علاقة المسيح مع كنيسته بالأعراس وبعلاقة العريس بالعروس. ومن ذلك جاء ما نقرأ في صفحة الوفيات عن فلان «عريس السماء» وفلانة «عروس السماء».

قال عيسى عليه السلام (متى ٢٢:١): «يشبه ملكوت السموات إنسانا ملكا صنع عرسا لابنه وأرسل عبيده ليدعوا المدعوين إلى العرس. فلم يريدوا أن يأتوا. فأرسل أيضا عبيداً آخرين قائلا قولوا للمدعوين هو ذا غذائي أعددته. ثيراني ومسمّناتي قد ذبحت وكل شيئ مُعَدّ. تعالوا إلى العرس. ولكنهم تهاونوا ومضوا واحد إلى حقله وآخر إلى تجارته والباقون أمسكوا عبيده وشتموهم وقتلوهم. فلما سمع الملك غضب وأرسل جنوده وأهلك أولئك القتلة وأحرق

مدينتهم. ثم قال لعبيده: أما العرس فمستعد وأما المدعوين فلم يكونوا مستحقين. فاذهبوا إلى مفارق الطرق وكل من وجدتموه فادعوه إلى العرس. فخرج أولئك العبيد إلى الطرق وجمعوا كل الذين وجدوهم. أشراراً وصالحين. فامتلا العرس بالمدعوين. فلما دخل الملك ينظر رأى هناك إنسانا لم يكن لابسا لباس العرس فقال له ياصاحب كيف دخلت إلى هنا وليس عليك لباس العرس؟ فسكت. فحينئذ قال الملك للخدم: اربطوا رجليه ويديه وخذوه واطرحوه في الظلمة الخارجية. هناك يكون البكاء وصرير الأسنان لأن كثيرين يُدعَوْن وقليلون يُنتخبون».

وفي هذا المثل يُشَبِّه عيسى عليه السلام طريق الله القويم وملكوت السموات بعُرس أقيم ودُعِيَ إليه الشعب – وهم اليهود – بواسطة الأنبياء العديدين الذين أرسلوا إليهم ولكن اليهود انصرفوا عنهم وكذّبوهم بل إنهم قتلوا بعضا منهم. فكان جزاؤهم أن سلط الله عليهم الأمم المجاورة من أشوريين وبابليين وروما فقتلوا منهم الكثير وسبوهم وأحرقوا مدينتهم (أورشليم). ثم أعاد الملك الدعوة إلى العرس وملكوت السموات بإرسال المسيح وأمر بدعوة الناس كلهم وامتلأ العرس بالمدعوين وكل واحد ناله من النفحة الإلهية والإشراقة السماوية. وتطهَّر الأشرار بما أسبغه الله على الجميع من نعمة الإيمان بالمسيح. وهو ما شُبِّه بلباس العرس. وأما القلة التي لم تنل لباس العرس فهم اليهود الذين لم يؤمنوا بالمسيح وجحدوه فكان جزاؤهم أن تُقَيَّد أيديهم وأرجلهم ويطرحوا بعيدا في الظلمات خارج رحمة الله.

وجاء القرآن الكريم يصدِّق على هذا في قوله تعالى : **«إذ قال الله ياعيسى إني متوفيك إليَّ ومُطهِّرك من الذين كفروا وجاعل الذين اتبعوك فوق الذين كفروا إلى يوم القيامة. ثم إليَّ مرجعكم فأحكم بينكم فيما كنتم فيه تختلفون. فأما الذين كفروا فأعذِّبهم عذابا شديدا في الدنيا والآخرة ومالهم من ناصرين».** (٥٥ – ٥٦ – آل عمران).

٤ – سؤال حول دفع الجزية لقيصر (متى ٢٢ : ١٥) :

«حينئذ ذهب الفريسيون وتشاوروا لكي يصطادوه بكلمة فأرسلوا إليه تلاميذهم مع الهيروديسيين (حزب يرأسه سلالة هيرودس وكان الحزب – مثل هيرودس – مشايعا للرومان) قائلين: يا مُعلِّم. تعلم أنك صادق وتعلِّم طريق الله بالحق ولا تبالي بأحد لأنك لا تنظر إلى وجوه الناس. فقل ماذا تظن. أيجوز أن نعطي جزية لقيصر أم لا؟» وكان القصد من سؤالهم أن يأخذوا عليه كلمة تُدِينه. فإذا قال «نعم» يمكنهم أن يُشهِّروا به أمام الشعب على أنه موالي الرومان وخائن اليهود. وإن قال «لا» يشتكون عليه لدى الرومان بتهمة التمرد على سلطانهم «فعلم يسوع خبثهم وقال: لماذا تُجرِّبونني يا مراءون. أروني معاملة الجزية. فقدموا له ديناراً. فقال لهم: لمن هذه الصورة والكتابة. قالوا له لقيصر. فقال لهم. **أعطوا ما لقيصر لقيصر وما لله لله.** فلما سمعوا تعجبوا وتركوه ومضوا.

٥ – مجادلة الصدوقيين حول قيامة الأموات :

وكما سبق أن قلنا (جـ ٥ ص ٤٩٠) إن الصدوقيين ينكرون البعث ولا يعتقدون في يوم القيامة. وحول هذه النقطة راحوا يجادلون عيسى عليه السلام. يقول الإنجيل (متى ٢٢:٣٢) «في ذلك اليوم جاء إليه صدوقيون الذين يقولون ليس هناك قيامة فسألوه قائلين. يا مُعلِّم. قال موسى. إن مات أحد وليس له أولاد يتزوج أخوه بامرأته ويُقم نسلا لأخيه (كانت شريعة موسى تقضي بأن من مات ولم يكن له ولد يتزوج أخوه من امرأته وينسب الأولاود منها إلى الزوج المتوفى وبذلك تكون له سلالة). فكان عندنا سبعة إخوة وتزوج الأول ومات وإذ لم يكن له نسل ترك امرأته لأخيه. وكذلك الثاني والثالث إلى السبعة. وآخر الكل ماتت المرأة أيضا. ففي القيامة لمَن مِنَ السبعة تكون زوجة فإنها كانت للجميع؟ فأجاب يسوع وقال لهم. تَضِلُّون إذ لا تعرفون الكتب ولا قوة الله. لأنهم في القيامة لا يُزوِّجون ولا يتزوَّجون بل يكونون كملائكة الله في السماء. وأما من جهة قيامة الأموات أفما قرأتم ما قيل لكم من قِبَل الله القائل: أنا إله إبراهيم وإله إسحق وإله يعقوب ليس الله إله أموات بل إله أحياء. فلما سمع الجموع بُهتوا من تعليمه».

أما الفريسيون فلما سمعوا أنه أبكم الصدوقيين اجتمعوا معا وسأله واحد منهم وهو ناموسي (أي من معتنقي ناموس موسى) ليجربه قائلا: يا مُعلِّم. أية وصية هي العظمى في الناموس. فقال له يسوع. تحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل فكرك. هذه هي الوصية الأولى والعظمى. والثانية مثلها. تحب قريبك كنفسك. بهاتين الوصيتين يتعلق الناموس كله والأنبياء».

«حينئذ خاطب يسوع الجموع وتلاميذه قائلا : على كرسي موسى جلس الكتبة والفريسيون. فكل ما قالوا لكم أن تحفظوه فأحفظوه وافعلوه. ولكن حسب أعمالهم لا تعملوا لأنهم يقولون ولا يعملون. فإنهم يحزمون أحمالا ثقيلة عَسِرة الحمل ويضعونها على أكتاف الناس وهم لا يريدون أن يحركوها بإصبعهم». والمعنى أنهم ينصحون الناس ولا يطبقون هذا النصح على أنفسهم. ويتشددون في تطبيق الشريعة فكأنهم يُحمِّلون الناس أحمالا ثقيلة ولا يخففون عنهم. واستمر عيسى عليه السلام يفضح مراءاة الفريسيين قائلا: «وكل أعمالهم يعملونها لكي تنظرهم الناس. فيُعرِّضون عصائبهم ويُعظِّمون أهداب ثيابهم ويحبون المتكأ الأول في الولائم والمجالس الأولى في المجامع والتحيات في الأسواق وأن يدعوهم الناس سيدي سيدي! وأما أنتم فلا تُدعوا سيدي لأن مُعلِّمكم واحد هو المسيح. ولا تُدعوا مَعلِّمين لأن معلمكم واحد هو المسيح. وأكبركم يكون خادما لكم. فمن يرفع نفسه يتَّضع ومن يضع نفسه يرتفع» (أي من تواضع لله رفعه).

ونعود لشرح قول عيسى عليه السلام «فيُعرِّضون عصائبهم» وكانت العصابة عبارة عن

شريط من جلد رقيق مكتوب عليه أجزاء من الأسفار الخمسة ويوضع داخل علبة من الجلد يربطها اليهود بسير من الجلد على جباههم وعلى ظهر اليد اليمنى متّبعين فى ذلك حرفية ما جاء فى خطبة موسى الثانية من خطب الوداع حيث قال (تثنية ٦:٤) اسمع يا إسرائيل. الرب إلهنا رب واحد فتحب الرب إلهك من كل قلبك ومن كل نفسك ومن كل قوتك. ولتكن هذه الكلمات التى أنا أوصيك بها اليوم على قلبك واربطها علامة على يدك ولتكن عصائب بين عينيك».

والمعنى أن تكون كلماته هذه حاضرة فى الذهن على الدوام. إلاّ أنهم حوّلوها إلى ما يشبه «الحجاب» يلبس على اليد وتربط على الجبهة وعادة كانت تلبس فقط أثناء الصلاة. ولكن الفريسيين كانوا يلبسونها فى كل الأوقات ويجعلونها ظاهرة بشكل واضح علامة على تديّنهم. وكانت المراءاة أيضا تظهر فى إطالتهم لأهداب ثيابهم. والعُجب بأنفسهم يتضح من سرورهم بمناداة الناس لهم «سيدى سيدى».

الويلات :

بعد هذا راح عيسى عليه السلام ينذر الكتبة والفريسيين ويحذّرهم من غضب الله وعقابه فقال:

١ – ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون لأنكم تُغلقون ملكوت السموات قدّام الناس. فلا تدخلون أنتم ولا تدعون الداخلين يدخلون.

٢ – ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون لأنكم تأكلون بيوت الأرامل وتتذرّعون بإطالة صلواتكم لذلك تأخذون دينونة أعظم.

٣ – ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون لأنكم تطوفون البر والبحر لتكسبوا متهوّدًا واحدا فإذا تهوّد جعلتموه أهلا لجهنم ضعف ما أنتم عليه.

٤ – ويل لكم أيها القادة العميان. تقولون من أقسم بالهيكل فقَسَمُه غير مُلزِم وأما من أقسم بذهب الهيكل فقَسَمه ملزِم! أيها الجهال والعميان. أى الاثنين أعظم الذهب أم الهيكل الذى يجعل الذهب مُقدسًا؟ وتقولون من أقسم بالمذبح فقسمه غير ملزم أما من أقسم بالقربان الذى على المذبح فقَسَمه ملزِم! أيها العميان أى الاثنين أعظم. القربان أم المذبح الذى يجعل القربان مقدسًا! فإن من أقسم بالمذبح فقد أقسم به وبكل ما عليه ومن أقسم بالهيكل فقد أقسم به وبالساكن فيه. ومن أقسم بالسماء فقد أقسم بعرش الله والجالس عليه.

٥ – ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون. فإنكم تؤدّون حتى عشور النعنع والشبث والكمون وقد أهملتم أهم ما فى الشريعة: العدل والرحمة والأمانة. كان يجب أن تفعلوا هذه ولا تفعلوا تلك. أيها القادة العميان. إنكم تُصفّون الماء من البعوضة ولكنكم تبلعون الجمل!

٦ – ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون. فإنكم تنظفون الكأس والصحفة من الخارج وهما من داخل مملوءان اختطافا ودعارة. أيها الفريسي الأعمى نقِّ أولا داخل الكأس والصحفة لكي يكون خارجها أيضا نقيا.

٧ – ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون فإنكم كالقبور المطلية بالكلس تبدو جميلة من الخارج ولكنها من الداخل ممتلئة بعظام الموتى وكل نجاسة. كذلك أنتم تبدون للناس أبرارا ولكنكم من الداخل ممتلئون بالريا والفسق.

٨ – ويل لكم أيها الكتبة والفريسيون المراءون. فإنكم تبنون قبور الأنبياء وتزيِّنون مدافن الأبرار وتقولون لو عشنا في زمن آبائنا لما شاركناهم سفك دم الأنبياء. فبهذا تشهدون على أنفسكم بأنكم أبناء قاتلي الأنبياء. فاكملوا ما بدأه آباؤكم ليطفح الكيل!

أيها الحيات أولاد الأفاعي. كيف تفلتون من عقاب جهنم. لذلك ها أنا أرسل إليكم أنبياء وحكماء ومعلِّمين. فبعضهم تقتلون وتصلبون وبعضهم تجلدون في مجامعكم وتطاردونهم من مدينة إلى أخرى. وبهذا يقع عليكم كل دم زكي سُفِك على الأرض. من دم هابيل البار إلى دم زكريا بن برخيا الذي قتلتموه بين الهيكل والمذبح. الحقَّ أقول لكم. إن عقاب ذلك كله سينزل بهذا الجيل.

يا أورشليم يا أورشليم يا قاتلة الأنبياء وراجمة المرسلين إليها. كم مرة أردت أن أجمع أولادك كما تجمع الدجاجة فراخها تحت جناحها فلم تريدوا. ها إن بيتكم يُترك خرابا. فإني أقول لكم إنكم لن تروني من الآن حتى تقولوا مبارك الآتي باسم الرب!

المسيح ينبئ بخراب الهيكل ويظهور المسيح الدجّال :

«ثم خرج يسوع من الهيكل. ولما غادره تقدم إليه تلاميذه ولفتوا نظره إلى مباني الهيكل فقال لهم: أما ترون هذه المباني كلها؟ الحق أقول لكم. لن يُتركَ حجر فوق حجر إلا ويُهدم». وبينما كان جالسا على جبل الزيتون تقدم إليه التلاميذ على انفراد وقالوا له: أخبرنا متى يحدث هذا وما هي علامة رجوعك وانتهاء الزمان. فأجاب يسوع. انتبهوا. لا يُضللكم أحد. فإن كثيرين سيأتون باسمي قائلين إني أنا هو المسيح فيضلون كثيرين وسوف تسمعون بحروب وأخبار حروب فإياكم أن ترتعبوا. فلابد أن يحدث هذا كله ولكن ليست النهاية بعدُ. فسوف تنقلب أمة على أمة. ومملكة على مملكة. وتحدث مجاعات وزلازل في عدة أماكن ولكن هذه كلها ليست إلا أول المخاض. عندئذ يسلمكم الناس إلى العذاب ويقتلونكم وتكونون مكروهين لدى جميع الأمم من أجل اسمي فيرتد كثيرون ويُسلمون بعضهم بعضا ويُبغضون بعضهم بعضا. ويظهر كثير من الأنبياء الدجالين ويُضلُّون كثيرين. وإذ يعم الإثم تبرد المحبة لدى الكثيرين

ولكن الذى يثبت حتى النهاية فهو يَخلُص. فسوف ينادى ببشارة الملكوت هذه فى العالم كله شهادة لى لدى الأمم جميعا وبعد ذلك تأتى النهاية.

علامات قرب نهاية الزمان :

ذكر عيسى عليه السلام عدة علامات تحدث قرب نهاية زمان هذا العالم:

١ – الضيق العظيم (متى ٢٤:١٥): «فمتى نظرتم رجسة الخراب التى قال عنها دانيال النبى قائمة فى المكان المقدس ليفهم القارئ. فحينئذ ليهرب الذين فى اليهودية إلى الجبال. والذى على السطح فلا ينزل ليأخذ من بيته شيئا. والذى فى الحقل فلا يرجع إلى ورائه ليأخذ ثيابه. وويل للحبالى والمرضعات فى تلك الأيام. وصلُّوا لكى لا يكون هربكم فى شتاء ولا فى سبت لأنه يكون حينئذ ضيق عظيم لم يكن مثله منذ ابتداء العالم إلى الآن ولن يكون. ولو لم تُقَصَّر تلك الأيام لما كان أحد من البشر ينجو. ولكن لأجل المختارين تُقَصَّر تلك الأيام».

٢ – تحذير من المسيح الدجال: «فإن قال لكم أحد عندئذ: ها إن المسيح هنا أو هناك فلا تصدِّقوا. فسوف يبرز أكثر من مسيح دجال ونبى دجال ويُقدِّمون آيات عظيمة وأعاجيب ليُضلُّوا حتى المختارين لو استطاعوا. ها أنا قد أخبرتكم بالأمر قبل حدوثه. فإذا قال لكم الناس: ها هو المسيح فى البرية لا تخرجوا إليها. أو ها هو فى الغرف الداخلية فلا تصدِّقوا. فكما أن البرق يومض فى الشرق فيضئ فى الغرب هكذا يكون رجوع ابن الإنسان (المسيح).

وهناك أحاديث نبوية تُحذِّر من المسيح الدجال. روى مسلم فى صحيحه عن ابن عباس أن رسول الله صلى الله عليه وسلم كان يُعلِّمهم هذا الدعاء:

اللهم إنى أعوذ بك من عذاب جهنم.

وأعوذ بك من عذاب القبر.

وأعوذ بك من فتنة المسيح الدجال.

وأعوذ بك من فتنة المحيا والممات.

عودة المسيح في آخر الزمان:

واستمر عيسى عليه السلام مُحدِّثا تلاميذه (متى ٢٤:٢٩): وللوقت بعد ضيق تلك الأيام تظلم الشمس. والقمرُ لا يعطى ضوءه. والنجوم تسقط من السماء وقُوَّات السموات تتزعزع وحينئذ تظهر علامة ابن الانسان فى السماء. فتنتحب قبائل الأرض كلها. ويرون ابن الانسان آتيا على سحب السماء بقُدرةٍ ومجدٍ عظيم. فيرسل ملائكة ببوق عظيم الصوت فيجمعون مختاريه من الجهات الأربع من أقاصى السموات إلى أقصائها.

ويستدل بعض علماء المسلمين على عودة المسيح بقوله تعالى: **«وإن من أهل الكتاب إلاَّ ليؤمِنَنَّ به قبل موته ويوم القيامة يكون عليهم شهيدا»** (١٥٩ – النساء). والمعنى أنه لا يبقى أحد من أهل الكتاب الموجودين عند نزول عيسى عليه السلام إلا ليؤمننَّ به قبل أن يموت وتكون الأديان كلها دينا واحداً. كما أخرج أحمد عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: ينزل عيسى ابن مريم فيقتل الخنزير ويمحو الصليب وتجمع له الصلاة ويعطى المال حتى لا يقبل ويضع الخراج وينزل الروحاء فيحج منها أو يعتمر أو يجمعهما.

أمثــال أخــرى

١ – يوم القيامة :

وقال عيسى عليه السلام (متى ٣٢:٢٤) «وتعلَّموا هذا المثل من شجرة التين عندما تلين أغصانها وتطلع ورقا تعلمون أن الصيف قريب. هكذا أيضا حين ترون هذه الأمور جميعا تحدث فاعلموا أنه قريب. بل على الأبواب. الحق أقول لكم. لا يزول هذا الجيل أبداً حتى تحدث هذه الأمور كلها. إن السماء والأرض تزولان ولكن كلامى لا يزول أبداً. أما ذلك اليوم وتلك الساعة فلا يعرفهما أحد. ولا ملائكة السموات. إلا الرب وحده وكما كان الحال فى زمن نوح. كذلك ستكون عند رجوع ابن الإنسان (أى رجوع المسيح) فقد كان الناس فى الأيام السابقة للطوفان يأكلون ويشربون ويتزوجون ويُزوِّجون حتى فاجأهم اليوم الذى دخل فيه نوح السفينة. ونزل الطوفان وهم لاهون فأخذ الجميع. هكذا سيكون الحال عند رجوع ابن الإنسان. عندئذ يكون رجلان فى الحقل فيُؤخذ أحدهما ويُترك الآخر وامرأتان تطحنان على الرحى فتؤخذ إحداهما وتُترك الأخرى. فاسهروا إذن لأنكم لا تعرفون فى أى ساعة يرجع المسيح واعلموا أنه لو علم رب البيت فى أى ربع من الليل يدهمه اللص لظلَّ ساهرا ولم يدع بيته ينقب. فكونوا أنتم أيضا على استعداد لأن ابن الإنسان سيرجع فى ساعة لا تتوقَّعونها.

٢ – مثل العذارى الحكيمات والجاهلات وضرورة الاستعداد :

ضرب عيسى عليه السلام هذا المثل ليبين الفرق بين المسيحيين الحقيقيين والمسيحيين بالاسم وينبه على المقدمات التى أُعطيت بضرورة الاستعداد لعودة المسيح. وكانت العادة فى تلك الأيام أنه بعد أن يسود الظلام فى عشية يوم العرس كان العريس يقود العروس إلى بيته مصحوبا بأصدقاء الطرفين وينضم إليهما فى الطريق آخرون يحملون مصابيح تكريما للعريس والعروس. وكانت الاحتفالات فى بعض الأحيان تدوم سبعة أيام.

قال عيسى (متى ١:٢٥) «يشبه ملكوت السموات بعشر عذارى أخذن مصابيحهن وانطلقن لملاقاة العريس. وكانت خمس منهن حكيمات وخمس جاهلات. فأخذت الجاهلات مصابيحهن

دون زيت. وأما الحكيمات فأخذن مع مصابيحهن زيتا وضعنه فى أوعية. وإذ أبطأ العريس نعسن جميعا ونمن . وفى منتصف الليل دوّى الهتاف: ها هو العريس آت. فانطلقن لملاقاته. فنهضت العذارى جميعا وجهّزن مصابيحهن. وقالت الجاهلات للحكيمات أعطيننا بعض الزيت من عندكن فإن مصابيحنا تنطفئ. فأجابت الحكيمات: ربما لا يكفى لنا ولَكُنّ فاذهبن بالأحرى إلى بائعى الزيت واشترين لَكُنّ. وبينما الجاهلات ذاهبات للشراء وصل العريس فدخلت المستعدات معه إلى قاعة العرس وأغلق الباب. وبعد حين رجعت العذارى الأخريات وقلن ياسيد افتح لنا فأجاب العريس: الحق أقول لكُنّ إنى لا أعرفكن فاسهروا إذن لأنكم لا تعرفون اليوم ولا الساعة التى يأتى فيها ابن الإنسان».

٣ - مَثَل الوزنات وضرورة العمل الجاد فى الدنيا :

ثم ضرب عيسى عليه السلام مثلا آخر (متى ٢٥ : ١٤) ليوضّح لسامعيه ضرورة العمل الجاد فى الدنيا فقال: «وكأنما إنسان مسافر دعا عبيده وسلّمهم أمواله. فأعطى واحدا خمس وزنات وآخر وزنتين وآخر وزنة. كل واحد على قدر طاقته ثم سافر. وفى الحال مضى الذى أخذ الوزنات الخمس وتاجر بها فربح خمس وزنات أخرى. وعمل مثله الذى أخذ الوزنتين فربح وزنتين أخريين. ولكن الذى أخذ الوزنة الواحدة مضى وحفر حفرة فى الأرض وطمر مال سيده. وبعد مدة طويلة رجع سيد أولئك العبيد واستدعاهم ليحاسبهم. فجاء الذى أخذ الوزنات الخمس وقدّم الوزنات الخمس الأخرى وقال يا سيد. أنت سلمتنى خمس وزنات فهذه خمس وزنات غيرها ربحتها! فقال له سيده حسنا فعلت أيها العبد الصالح والأمين. كنت أمينا على القليل فسأقيمك على الكثير ادخل إلى فرح سيدك. ثم جاءه أيضا الذى أخذ الوزنتين وقال ياسيد أنت سلمتنى وزنتين. فهاك وزنتان غيرهما ربحتهما. فقال له سيده. حسنا فعلت أيها العبد الصالح والأمين. كنت أمينا على القليل فسأقيمك على الكثير. ادخل إلى فرح سيدك. ثم جاءه أيضا الذى أخذ الوزنة الواحدة وقال ياسيد عرفتك رجلا قاسيا تحصد من حيث لم تزرع وتجمع من حيث لم تبذر. فخفت. فذهبت وطمرت وزنتك فى الأرض فهذا مالك. فأجابه سيده أيها العبد الشرير الكسول. عرفتَ أنى أحصد من حيث لم أزرع وأجمع من حيث لم أبذر فكان يحسن بك أن تودع مالى عند الصيارفة لكى أسترده لدى عودتى مع فائدته. ثم قال لعبيده خذوا منه الوزنة وأعطوها لصاحب الوزنات العشر. فإن كل من عنده يعطى المزيد فيفيض. ومن ليس عنده فحتى الذى عنده يُنتزع منه. أما هذا العبد الذى لا نفع منه فاطرحوه فى الظلمة الخارجية. هناك يكون البكاء وصرير الأسنان».

فالعبدان الأول والثانى يحبان سيدهما ويوقّرانه فى داخلهما وظهر ذلك خارجيا على أفعالهما. فعملا على إرضائه بزيادة ماله ولا يهم إن كان الأول أعطى كثيرا والثانى أعطى

قليلا. فكل واحد أعطى على حسب مالمس فيه سيده من مقدرة. وكل واحد منهما اجتهد بقدر ما يستطيع فضاعف ما أُعطِي له. أما الأخير الذى أعطى وزنة واحدة فقد عرف سيده كسله فأعطاه وزنة واحدة وكان المتوقع أن يعمل بهذا القليل ولكنه لشدة كسله لم يرد أن يعمل وراح يتُّهم سيده بأنه قاس ولذلك خاف لو تاجر بها يفقدها فأخفاها فى الأرض للمحافظة عليها.
ويرى بعض مفسرى أهل الكتاب أن هذا رمز لبعض المسيحيين الذين خافوا من الاختلاط بغيرهم فحبسوا أنفسهم فى البرية وفى الكهوف بعيدا عن الناس وعن الحياة التى يمكنهم فيها العمل ومساعدة الآخرين واكتفوا بإيمانهم. هم فقط فكأنهم أصبحوا أشرارا بعدم مساعدة الآخرين ومادموا قد اتهموا أو ظنوا فى سيدهم القسوة وأرادوا النجاة بتقديم الحد الأدنى من العمل فسيكون عند ظنهم به وسيكون قاسيا معهم ناسين أن حُب الآخرين والعمل لما فيه خير المجموع هو خير ما يقدمونه لسيدهم الرحيم بعبيده. ومن يفيض حبا لغيره يُعطى أكثر ليعُمَّ الخير. وسيبارك الرب هؤلاء الذين يعملون لا الذين يقفون ساكنين وفقط منتظرين عودة المسيح.

٤ – الرب يحكم بين العباد :

استمر عيسى عليه السلام يُعلِّم الناس بالأمثال فقال (متى ٢٥:٣١): «يجلس الرب على عرش مجده وتجتمع أمامه الشعوب كلها فيفصل بعضهم عن بعض كما يفصل الراعى الغنم عن الماعز فيوقف الغنم عن يمينه والماعز عن يساره. ثم يقول الملك للذين عن يمينه: تعالوا يا من باركتهم لترثوا الملكوت الذى أُعِدَّ لكم منذ إنشاء العالم لأنى جعت فأطعمتمونى. عطشت فسقيتمونى. كنت غريبا فآويتمونى. سجينا فأتيتم إلىَّ . فيرد الأبرار قائلين: يارب متى رأيناك جائعا فأطعمناك أو عطشانا فسقيناك؟ ومتى رأيناك غريبا فآويناك أو عريانا فكسوناك ومتى رأيناك مريضا أو سجينا فزرناك؟ فيجيبهم الملك. الحق أقول لكم. بما أنكم فعلتم ذلك بأحد إخوتكم هؤلاء الصغار فبى فعلتم.

«ثم يقول للذين عن يساره. ابتعدوا عنى يا ملاعين إلى النار الأبدية المُعدَّة لإبليس وأعوانه. لأنى جعت فلم تطعمونى. وعطشت فلم تسقونى. كنت غريبا فلم تأوونى عريانا فلم تكسونى. مريضا وسجينا فلم تزورونى! فيرد هؤلاء قائلين: يارب متى رأيناك جائعا أو عطشانا أو غريبا أو عريانا أو مريضا أو سجينا ولم نخدمك؟ فيجيبهم. الحق أقول لكم. بما أنكم لم تفعلوا ذلك بأحد إخوتكم هؤلاء الصغار فبى لم تفعلوا. فيذهب هؤلاء إلى العقاب الأبدى والأبرار إلى الحياة الأبدية».

ونفس هذا المعنى جاء فى الحديث القدسى (الاتحافات السنية فى الأحاديث القدسية. محمد المدنى. ص ١٤٤): إن الله تعالى يقول يوم القيامة: يا ابن آدم مرضت فلم تَعُدنى. قال يارب كيف أعودك وأنت رب العالمين؟ قال أما علمت أن عبدى فلانا مرض فلم تَعُدْه. أما علمت

أنك لو عُدتَه لوجدتني عنده؟ يا ابن آدم استطعمتك فلم تطعمني، قال يارب كيف أُطعمك وأنت رب العالمين؟ قال أما علمت أنه استطعمك عبدي فلان فل تطعمه، أما علمت أنك لو أطعمته لوجدت ذلك عندي؟ يا ابن آدم استسقيتك فلم تسقني قال يارب كيف أسقيك وأنت رب العالمين؟ قال استسقاك عبدي فلان فلم تسقه، أما أنك لو أسقيته لوجدت ذلك عندي. أخرجة مسلم عن أبي هريرة.

رؤساء الكهنة يتآمرون لقتل المسيح (متى ٢٦ : ٣) :

«حينئذ اجتمع رؤساء الكهنة والكتبة وشيوخ الشعب إلى دار رئيس الكهنة الذي يدعى «قيافا» وتشاوروا لكي يمسكوا يسوع بمكر ويقتلوه. ولكنهم قالوا ليس في العيد لئلا يكون شغب في الشعب.

وقد تنبأ عيسى عليه السلام بأن أحد تلاميذه سيخونه وسيسلمه إلى أعدائه فقال لتلاميذه «تعلمون أنه بعد يومين يكون الفصح وابن الإنسان (أي يسوع) يُسلَّم ليُصلب».

ونلاحظ في هذه الفقرة أن عيسى نفسه لم يكن يعرف أنه سيُرفع إلى السماء فكان إيحاء الله له أنه سيُسلَّم إلى أعدائه يعني له أنه سيُقتل، وكانت وسيلة القتل الشائعة وقتئذ هي الصلب. ولعل ذلك كان امتحانا لعيسى عليه السلام حتى يُثبت أنه من أولي العزم من الرسل ولن يتراجع عن أقواله.

«حينئذ ذهب واحد من الاثني عشر الذي يدعى «يهوذا الإسخريوطي» إلى رؤساء الكهنة وقال ماذا تريدون أن تعطوني وأنا أُسلِّمه إليكم؟ فجعلوا له ثلاثين من الفضة، ومن ذلك الوقت كان يطلب فرصة ليُسلِّمه».

عشاء الفصح مع الحواريين (متى ٢٦ : ١٧)

«وفي اليوم الأول من أيام الفطير تقدم التلاميذ إلى يسوع يسألون: أين تريد أن نجهز لك الفصح لتأكل؟ أجابهم، ادخلوا المدينة واذهبوا إلى فلان وقولوا له المعلِّم يقول إن ساعتي قد اقتربت، وعندئذ سأعمل الفصح مع تلاميذي. ففعل التلاميذ ما أمرهم به يسوع وجهَّزوا الفصح هناك».

ويذكر القرآن الكريم هذا العشاء بشيء من التفصيل، إذ ما إن اجتمعوا في البيت الذي حدده يسوع حتى بادره تلاميذه قائلين:

«إذ قال الحواريون يا عيسى ابن مريم هل يستطيع ربك أن يُنزِّل علينا مائدة من السماء، قال اتقوا الله إن كنتم مؤمنين، قالوا نريد أن نأكل منها وتطمئن قلوبنا ونعلم أن قد صدقتنا

ونكون عليها من الشاهدين. قال عيسى ابن مريم اللهم ربنا أنزل علينا مائدة من السماء تكون لنا عيداً لأولنا وآخرنا وآية منك وارزقنا وأنت خير الرازقين. قال الله إني منزلها عليكم فمن يكفر بعدُ منكم فإني أعذبه عذابا لا أُعَذِّبه أحدا من العالمين». (١١٢ - ١١٥ - المائدة)

ويقول الإنجيل (متى ٢٦ : ٢٠) «وعند المساء اتكأ مع الاثنى عشر. وبينما كانوا يأكلون قال الحق أقول لكم: إن واحدا منكم سيسلِّمنى. فاستولى عليهم الحزن الشديد وأخذ كل منهم يسأله: هل أنا يا معلِّم؟ فأجاب: الذى يغمس يده معى فى الصحفة هو الذى سيُسلِّمنى. إن ابن الإنسان (أى عيسى) لا بد أن يمضى كما قد كُتب عنه ولكن الويل لذلك الرجل الذى على يده يُسلَّم ابن الإنسان. كان خيرا لذلك الرجل لو لم يولد. فسأله يهوذا: هل أنا هو يا معلِّم؟ أجابه أنت قلت.

يسوع ينبيء بإنكار بطرس له:

«عندئذ قال لهم يسوع. فى هذه الليلة ستشكُّون فىَّ كلكم لأنه قد كُتب: سأضرب الراعى فتتشتت خراف القطيع. فردَّ عليه بطرس قائلا: ولو شك فيك الجميع فأنا لن أشك. أجابه يسوع. الحقَّ أقول لك إنك فى هذه الليلة - قبل أن يصيح الديك - تكون قد أنكرتنى ثلاث مرات. فقال بطرس ولو كان علَّى أن أموت معك لا أنكرك أبداً وقال التلاميذ كلهم مثل هذا القول».

وصية عيسى الأخيرة لتلاميذه:

ونختصر هنا ما جاء فى إنجيل يوحنا إصحاح ١٤، ١٥، ١٦.

«لا تضطرب قلوبكم. أنتم تؤمنون بالله فآمنوا بى. فى بيت أبى منازل كثيرة أنا أمضى لأعد مكانا وإن مضيت وأعددت لكم مكانا آتى أيضا وآخذكم إلى حتى حيث أكون تكونون أنتم أيضا وتعلمون حيث أنا أذهب. وتعلمون الطريق. إن كنتم تحبونى فاحفظوا وصاياى. وأنا أطلب من الآب (الرب) فيعطيكم مُعَزِّياً آخر ليمكث معكم إلى الأبد».

ويرى علماء المسيحية أن المعزى الآخر هو المسيح نفسه عند عودته إلى الدنيا أما علماء المسلمين فيرون فيها البشارة بمحمد صلى الله عليه وسلم. والتى أشار إليها القرآن الكريم فى قوله تعالى: **«وإذ قال عيسى ابن مريم يا بنى إسرائيل إنى رسول الله إليكم مصدقا لما بين يدى من التوراة ومبشِّرا برسول يأتى من بعدى اسمه أحمد. فلما جاءهم بالبينات قالوا هذا سحر مبين»** (٦ - الصف). ويرى خبراء اللغات أن عيسى عليه السلام كان يتكلم باللغة الآرامية. وتُرجمت أقواله إلى اليونانية وضاع الأصل الآرامى. ويرون أن لفظ «بيركليت» الوارد فى الترجمة اليونانية هو صيغة «أفعل» من فعل الحمد أى «أحمد» إلا أن آخرين قالوا إن

اللفظ هو پاركليت والتى أقر المؤتمر اليهودى المسيحى الذى عقد عام ١٤٠٠م أنه اسم من أسماء المسيا أو المسيح. فيكون إشارة إلى نزوله قرب آخر الزمان. وتمت الترجمة فى العربية إلى لفظ «المعزّى» (تفسير إنجيل يوحنا لمتى هنرى جـ ٣ ص ٣٠٨). إلاَّ أن هذا التفسير لا يؤيده قول المسيح (فى الصفحة التالية) «ومتى جاء المعزى الذى سيرسله لكم الآب فهو يشهد لى» وقوله «ذاك يمجدنى» يفيد أنه يتكلم عن المعزّى كشخص آخر غير المسيح نفسه.

واستمر عيسى عليه السلام فى وصيته لتلاميذه فقال: «إن أحبنى أحد يحفظ كلامى ويحبه أبى وإليه نأتى وعنده نصنع منزلا. الذى لا يحبنى لا يحفظ كلامى. والكلام الذى تسمعونه ليس لى بل للآب الذى أرسلنى. بهذا كلمتكم وأنا عندكم. وأما المعزى. الروح القدس الذى سيرسله الآب فهو يعلِّمكم كل شيئ ويذكِّركم بكل ما قلته لكم.

«سلاما أترك لكم. سلامى أعطيكم. ليس كما يُعطِى العالم أعطيكم أنا. لا تضطرب قلوبكم ولا ترهب. سمعتم أنى قلت لكم أنا أذهب ثم آتى إليكم. لو كنتم تحبوننى لكنتم تفرحون لأنى قلت أمضى إلى الآب. لأن أبى أعظم منى.

«أنا الكرمة الحقيقية. وأبى الكرَّام. كل غصن فىَّ لا يأتى بثمر ينزعه وكل ما يأتى بثمر ينقيِّه ليأتى بثمر أكثر. أنتم الآن أنقياء بسبب الكلام الذى كلمتكم به. اثبتوا فى الكرمة. كذلك أنتم أيضا إن لم تثبتوا فىَّ. أنا الكرمة وأنتم الأغصان. الذى يَثبُتَ فىَّ وأنا فيه هذا يأتى بثمر كثير. لأنكم بدونى لا تقدرون أن تفعلوا شيئا. إن ثبتُّم فىَّ وثبت كلامى فيكم تطلبون ما تريدون فيكون لكم.

«هذه هى وصيتى. أن تحبوا بعضكم بعضا كما أحببتكم. ليس لأحد حب أعظم من هذا أن يضع أحد نفسه لأجل أحبائه. أنتم أحبائى إن فعلتم ما أوصيكم به. قد سميتكم أحبَّاء لأنى أعلمتكم بكل ما سمعته من أبى. إن كان العالم يبغضكم فاعلموا أنه قد أبغضنى قبلكم. اذكروا الكلام الذى قلته لكم. ليس عبد أعظم من سيده. إن كانوا قد اضطهدونى فسيضطهدونكم وإن كانوا قد حفظوا كلامى فسيحفظون كلامكم. ومتى جاء المعزى الذى سيرسله لكم الآب روح الحق الذى من عند الحق ينبثق فهو يشهد لى وتشهدون أنتم أيضا لأنكم معى من الابتداء.

«قد كلمتكم بهذا لكى لا تعثروا. سيخرجونكم من المجامع. بل تأتى ساعة فيها يظن كل من يقتلكم أنه يقدم خدمة لله. وسيفعلون هذا بكم لأنهم لم يعرفوا الآب ولا عرفونى لكنى قد كلمتكم بهذا حتى إذا جاءت الساعة تذكرون أنى أنا قلته لكم. ولم أقل لكم من البداية لأنى كنت معكم. وأمَّا الآن فأنا ماضٍ إلى الذى أرسلنى وليس أحد منكم يسألنى أين تمضى. لكنى أقول لكم الحق إنه خير لكم أن أنطلق . لأنه إن لم أنطلق لا يأتيكم المعزِّى. ولكن إن ذهبت يُرسَل لكم. وأما متى جاء ذاك روح الحق فهو يرشدكم إلى جميع الحق لأنه لا يتكلم من نفسه. بل كل ما يسمع يتكلَّم به ويخبركم بأمور آتية. ذاك يمجدنى لأنه يأخذ مما لى ويخبركم.»

يسوع يُصلّي :

«ثمّ ذهب يسوع وتلاميذه إلى بستان وقال لهم: اجسلوا هنا ريثما أذهب إلى هناك وأصلي. وقد أخذ معه بطرس وابني زبدى. وبدأ يشعر بالحزن والكآبة فقال لهم: نفسى حزينة جدا حتى الموت. ابقوا هنا واسهروا معى. وابتعد عنهم قليلا وارتمى على وجهه يصلى قائلا: يارب إن كان ممكنا فلتعبر عني هذه الكأس. ولكن لا كما أريد أنا بل كما تريد أنت. ورجع إلى التلاميذ فوجدهم نائمين. فقال لبطرس: أهكذا لم تقدروا أن تسهروا معى ساعة واحدة؟ اسهروا وصلُّوا لكى لا تدخلوا فى تجربة. إن الروح نشيط. أما الجسد فضعيف. وذهب ثانية يصلى فقال: ياربى. إن كان لا يمكن أن تعبر عنى هذه الكأس إلا بأن أشربها. فلتكن مشيئتك! ورجع إلى التلاميذ فوجدهم نائمين أيضا لأن النعاس أثقل أعينهم فتركهم وعاد يصلى مرة ثالثة وردد الكلام نفسه ثم رجع إلى تلاميذه. وقال: ناموا الآن واستريحوا. حانت الساعة وسوف يُسلَّم ابن الإنسان إلى أيدى الخاطئين. قوموا لنذهب. ها قد اقترب الذى يُسلِّمنى». ونستنتج من هذا أن عيسى عليه السلام كان قد أوحى إليه من الله أن أحد تلاميذه سيُسلمه إلى أعدائه فيقبضون عليه وحتما سيقتلونه فهم لم يتورّعوا أن يقتلوا أنبياء قبله. لم يكن يدرى أن الله سيرفعه وينجيه من القتل ولذلك كان دعاؤه كمن يقول: اللهم هوِّن على سكرات الموت!

القبض علي عيسي عليه السلام (متى ٢٦ : ٤٧) :

«وفيما هو و يتكلم إذا يهوذا – أحد الاثنى عشر – قد وصل ومعه جمع عظيم يحملون السيوف والعصى وقد أرسلهم رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب. وكان يهوذا قد أعطاهم علامة قائلا الذى أُقبِّله فهو هو اقبضوا عليه. فتقدم فى الحال إلى يسوع وقال: سلام ياسيدى وقبَّله. فقال له يسوع. ياصاحبي لماذا أنت هنا؟ فتقدم الجمع وألقوا القبض على يسوع. وإذا واحد من الذين كانوا مع يسوع قد مدَّ يده واستل سيفه وضرب عبد رئيس الكهنة فقطع أذنه. فقال له يسوع: ردَّ سيفك إلى غمده فإن الذين يلجأون إلى السيف بالسيف يَهلِكون. أم تظن أنى لا أقدر الآن أن أطلب إلى ربى فيرسل لى أكثر من اثنى عشر جيشا من الملائكة؟ ولكن كيف يتم الكتاب حيث يقول إن ما يحدث الآن لابد أن يحدث! ثم وجَّه يسوع كلامه إلى الجموع قائلا: أكما على لص خرجتم بالسيوف والعصىِ لتقبضوا علىَّ. ولكن قد حدث هذا كله لتتم نبوءات الأنبياء! عندئذ تركه التلاميذ كلهم وهربوا».

متى حدث الرفع ؟

جاء فى القرآن الكريم: **«وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبِّه لهم وإن الذين اختلفوا فيه لفى**

شك منه. مالهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا بل رفعه الله إليه وكان الله عزيزا حكيما» (١٥٧- النساء). وقد اجتهد المفسرون فى بيان كيفية حدوث هذا الشبه ووقته. وكلهم أجمعوا على أنه حدث لحظة إلقاء القبض على المسيح فلم يقبض عليه هو نفسه بل قُبِضَ على شبيهه.

جاء فى تفسير ابن كثير (جـ ١ ص ٥٧٤) قال ابن أبى حاتم عن ابن عباس أن عيسى لما أُخبر من الله سبحانه وتعالى أنه سيرفعه إلى السماء خرج على أصحابه وفى البيت اثنا عشر رجلا من الحواريين وقال أيكم يلقى عليه شبهى فيقتل مكانى ويكون معى فى درجتى فقام شاب من أحدثهم سنا فقال له اجلس وكرر عيسى قوله ثلاث مرات فلا يقوم إلا هذا الشاب فقال هو أنت ذاك. وجاء الطلب من اليهود فأخذوا الشبيه وقتلوه وصلبوه. وروى ابن جرير عن ابن إسحق مثل هذا القول مع اختلاف بسيط هو أنه قال: وهو رفيقى فى الجنة بدلاً من «ويكون معى فى درجتى».

كما يروى ابن كثير روايات عن ابن اسحق مفادها أن الشبه ألقى على الحوارى الذى خان عيسى ودلَّ جنود الرومان عليه إذ لم يكونوا يعرفونه وفى ذات اللحظة رفع عيسى فدخل الجنود وقبضوا على الخائن ظانين أنه عيسى.

ويرى هذا الرأى الأستاذ رؤوف أبو سعدة (من إعجاز القرآن. جـ ٢ ص ٢٢٨) ويتفق مع ما جاء فى الأناجيل من أن يهوذا الإسخريوطى هو الذى خان المسيح ودلَّ جنود الرومان عليه ونختصر هنا ما ذكره عن تصوُّره لما حدث إذ يقول: إن الشيطان أغوى يهوذا فشك فى نُبوَّة معلِّمه وزين له الشيطان أن يمتحن صدق المسيح فى دعواه النبوة فدل عليه خصومه وطالبى دمه قائلاً فى نفسه: إن كان نبيا فلن يمكِّنهم الله منه ويخلِّصه وإن كان دعيًا محتالاً فبئس جزاء المحتال المدَّعى. وعند لحظة إلقاء القبض على يسوع فوجئ يهوذا بالجند يقبضون عليه هو. فيُدرك أن الله عاقبة على خيانته بأن ألقى صورة المسيح عليه. وهنا استيقظ ضميره ورأى أن يكفِّر عن خطيئته بأن يستسلم للصلب حتى ينجو عيسى فلم يجادل عن نفسه ويقول إنه ليس عيسى. ويُكمِل الأستاذ رؤوف التصوُّر بأن مرقس رأى شابا عريانا إلا من إزاء ائتزر به يتبع يهوذا المقبوض عليه ويفترض أن هذا الشاب كان عيسى نفسه إذ أن الملائكة أخذوا لباس عيسى ووضعوه على يهوذا ثم اختفى هذا الشاب لأن الله رفعه.

وهذا السيناريو المتخيَّل لا يتفق مع المنطق فى عدة نقاط:

١ – خيانة يهوذا لم تكن مجرد «شك» فى نبوة عيسى بل كانت – كما ذكرت الأناجيل – صفقة تقاضى عنها يهوذا ثلاثين من الفضة.

٢ – لو أن الشبه ألقى على يهوذا وهو يُقبِّل المسيح لرأى الناس مسيحان ويلزم حينئذ أن

يُلقى شبه يهوذا على المسيح ثم يختفى المسيح لأنه رفع إلى السماء فيرى الحاضرون أن يهوذا هو الذى اختفى أو رُفع وليس المسيح!

٣ – افتراض أن الملائكة أخذت ملابس عيسى وألقتها على يهوذا ليخرج عيسى من الموقف وهو يكاد يكون عاريا. افتراض بالغ الغرابة.

٤ – الثابت فى الأناجيل أن يهوذا بعد القبض على يسوع ندم وذهب ليعيد الفضة للكهنة فلما رفضوها ألقى بها فى صندوق الهيكل ثم راح وانتحر كما سيجئ ذكره فى الصفحة التالية.

حاصل هذا أن المنطق يؤدى إلى أن الشبه لم يلق على يهوذا وإلا لراح يجادل عن نفسه ويعترض بأنه ليس المسيح. كما أن الجند كانوا يتابعونه بأعينهم متابعة جيده ليروا من سيُقَبِّل فيلقوا القبض عليه لأنهم لم يكونوا يعرفون شكل المسيح فحتى لو ألقى شبه المسيح على يهوذا فى هذه اللحظة لما اهتم الجند بذلك لأنهم سيلقون القبض على من «ينال القبلة» وكانت هذه هى العلامة المتفق عليها لتدلهم على شخص المسيح.

وما نراه هو أن الشبه لم يلق على يهوذا ولم يحدث فى لحظة القبض هذه بل حدث فيما بعد كما سيأتى ذكره ويكون من قبض عليه هو عيسى عليه السلام.

بطرس ينكر يسوع (متى ٢٦ : ٦٩) :

فى تلك الأثناء كان بطرس جالسا فى الدار الخارجية فتقدمت إليه جارية قائلة: وأنت كنتَ مع يسوع الجليلى. فأنكر قدام الجميع قائلا لست أدرى ما تقولين. ثم إذ خرج إلى الدهليز رأته أخرى فقالت للذين هناك: وهذا كان مع يسوع الناصرى. فأنكر أيضا بقَسَم إنى لست أعرف الرجل. وبعد قليل جاء الواقفون هناك إلى بطرس وقالوا له: بالحق إنك واحد منهم فإن لهجتك تدل عليك. فابتدأ بطرس يلعن ويحلف قائلا إنى لا أعرف الرجل وللوقت صاح الديك. فتذكر بطرس كلام يسوع الذى قال له إنك قبل أن يصيح الديك تنكرنى ثلاث مرات، فخرج إلى الخارج وبكى بكاء مُرّاً.

تسليم يسوع إلى بيلاطس :

ولما طلع الصبح عقد رؤساء الكهنة وشيوخ الشعب اجتماعا آخر وتآمروا على يسوع لينزلوا به عقوبة الموت ثم قيدوه وساقوه وسلموه إلى بيلاطس النبطى الوالى الرومانى.

انتحار يهوذا :

فلما رأى يهوذا أن الحكم على يسوع بالموت قد صدر ندم وردّ الثلاثين من الفضة إلى رؤساء الكهنة والشيوخ وقال: قد أخطأت إذ سلّمتكم دما بريئا. فأجابوه: ليس هذا شأننا نحن. بل هو شأنك أنت. فألقى قطع الفضة فى الهيكل وانصرف ثم ذهب وخنق نفسه (متى ٢٧ : ٥). «فأخذ رؤساء الكهنة قطع الفضة وقالوا: هذا المبلغ ثمن دم. فلا يحل لنا إلقاؤه فى صندوق الهيكل. وبعد التشاور اشتروا بالمبلغ حقل الفخارى ليكون مقبرة للغرباء. عندئذ تم ما قيل بلسان النبى إرميا القائل: وأخذوا الثلاثين قطعة من الفضة ثمن الكريم الذى ثمّنه بنو إسرائيل ودفعوها لقاء حقل الفخارى كما أمرنى الرب».

بيلاطس يستجوب يسوع ويحكم عليه بالموت :

ووقف يسوع أمام بيلاطس فسأله: أأنت ملك اليهود؟ أجابه أنت قلت. وكان رؤساء الكهنة والشيوخ يوجّهون ضده الاتهامات وهو صامت لا يرد. فقال له بيلاطس: أما تسمع ما يشهدون به عليك؟ لكن يسوع لم يجب الحاكم ولو بكلمة.

وكان من عادة الحاكم فى كل عيد أن يطلق لجمهور الشعب أى سجين يريدونه. وكان عندهم وقتئذ سجين مشهور اسمه «باراباس». فقيما هم مجتمعين سألهم بيلاطس: من تريدون أن أطلق لكم. باراباس أم يسوع الذى يُدعى المسيح؟ إذ كان يعلم أنهم سلّموه عن حسد. وفيما هو جالس على منصة القضاء أرسلت إليه زوجته تقول: إياك وذلك البار! فقد تضايقت اليوم كثيرا فى حلم بسببه. ولكن رؤساء الكهنة والشيوخ حرّضوا الجموع أن يطالبوا بإطلاق سراح باراباس وقتل يسوع. فسألهم بيلاطس: أىّ الاثنين تريدون أن أطلق لكم؟ أجابوا: باراباس. فعاد يسأل: فماذا أفعل بيسوع الذى يُدعى المسيح؟ أجابوا جميعاً: ليصلب. فعاد يسأل: وأى شر فعل؟ فازدادوا صخبا: ليصلب. فلما رأى بيلاطس أنه لا فائدة وأن فتنة تكاد تنشب. أخذ ماء وغسل يديه أمام الجميع وقال: أنا برىء من دم هذا البار. فانظروا أنتم فى الأمر. فأجاب الشعب بأجمعه: ليكن دمه علينا وعلى أولادنا. فأطلق لهم باراباس. وأما يسوع فجلده وسلّمه إلى الحراس فى انتظار الصلب.

الرفع والصلب:

فاقتاد الجنود يسوع إلى السجن وجرّدوه من ثيابه وألبسوه رداء قرمزيا وجدلوا إكليلا من شوك وضعوه على رأسه ووضعوا قصبة فى يده اليمنى وركعوا أمامه يسخرون منه وهم يقولون: «سلام يا ملك اليهود». وبصقوا عليه وأخذوا القصبة منه وضربوه بها على رأسه.

وبعدما أوسعوه سخرية وضعوا القيود فى يديه ورجليه وتركوه فى حجرة السجن منفرداً إلى الصباح حتى يتم الصلب.

وفى السجن تضرع عيسى إلى الله من كل قلبه قائلا «إيلى إيلى لماذا شبقتنى؟» أى «إلهى إلهى لماذا تركتنى»؟

ورأينا فيما حدث بعد ذلك أن الله استجاب لاستغاثته وجاءته النجدة الإلهية لتنجيه من المكر الذى أوقعوه فيه **«ومكروا ومكر الله والله خير الماكرين. إذ قال الله يا عيسى إنى متوفيك ورافعك إلىّ ومُطهرك من الذين كفروا»**. (٥٤ - آل عمران).

وهكذا رُفع عيسى عليه السلام بجسده وروحه إلى السماء. ودخل الحارس الموكل به فلم يجد أحداً فى زنزانته. ووجد القيود ملقاة على الأرض. ففزع وخاف أن يُتّهم بتدبير هربه فيصلب عقابا على ذلك. فذهب إلى باقى حجرات السجن وتخيّر سجينا محكوما عليه بالإعدام فى مثل طول يسوع وعجب أشد العجب إذ وجد أيضا أن له مثل هيئته فأدخله الزنزانة ووضع القيود فى يديه ورجليه.

وجاء الجند فى الصباح وساقوا الشبيه إلى الصلب وحدّث القرآن الكريم عن ذلك ونفى صلب المسيح **«وما قتلوه وما صلبوه ولكن شُبّه لهم. وإن الذين اختلفوا فيه لفى شك منه. مالهم به من علم إلا اتباع الظن وما قتلوه يقينا»** (١٥٧ - النساء) واقتيد لصان للصلب معه واحد عن يمينه وواحد عن يساره. ومن بعيد كانت نساء كثيرات يراقبن ما يجرى وكن قد تبعن يسوع من الجليل ليخدمنه والكل يظن أن من على الصليب هو يسوع نفسه. وكما جاء فى الأناجيل لَفظَ البديل أنفاسه الأخيرة حوالى الساعة الثالثة بعد الظهر.

ولما حل المساء جاء رجل من بلدة «الرامة» اسمه يوسف وكان أيضا تلميذا ليسوع. فتقدم إلى بيلاطس يطلب الجثمان المصلوب فأمر بيلاطس أن يُعطى له. فأخذ يوسف الجثمان وكفنه بكتان نقى ودفنه فى قبر جديد كان قد حفره فى الصخر ودحرج حجرا كبيرا على باب القبر ثم ذهب.

حراسة القبر:

جاء فى الإنجيل (متى ٢٧ : ٦٢): «وفى الغد اجتمع رؤساء الكهنة والفريسيون إلى بيلاطس قائلين: يا سيد. قد تذكرنا أن ذلك المضِلّ قال وهو حى إنى بعد ثلاثة أيام أقوم. فمر بحراسة القبر إلى اليوم الثالث لئلا يأتى تلاميذه ويسرقوه ويقولوا للشعب إنه قام من الأموات فتكون الضلالة الأخيرة أشرّ من الأولى. فقال لهم بيلاطس. عندكم حراس. اذهبوا واحرسوا كما تعلمون. فمضوا وضبطوا القبر بالحراس وختموا الحجر».

وفى اليوم الثالث حدث زلزال عنيف ضرب المنطقة كلها فتدحرج الحجر الذى كان يسد القبر. وكانت مريم المجدلية ومعها زميلة لها قد جاءتا تتفقدان القبر. ولما سكت الزلزال دخلتا مع الحراس إلى القبر فلم يجدوا به جثة فتأكد لديهم أنه قد قام.

وتفسيرنا لما حدث أن الزلزال قد نتج عنه شق فى الأرض ابتلع جثة الشبيه الذى صلب. وهكذا لم يجدوا جثة فى القبر. فظنوا أن من صلب فعلا هو المسيح وأنه قد قام.

وانطلقت المرأتان من القبر مسرعتين وقد استولى عليهما خوف شديد وفرح عظيم وركضتا إلى التلاميذ تحملان البشرى. وفيما هما منطلقتان لتبشرا التلاميذ إذا يسوع نفسه قد التقاهما وقال: سلام! لا تخافا! اذهبا قولا لإخوتى أن يوافونى إلى الجليل وهناك يروننى.

وبينما كانت المرأتان ذاهبتين إذا بعض الحراس قد ذهبوا إلى المدينة وأخبروا رؤساء الكهنة بكل ما جرى. بالزلزال وباختفاء الجثة من القبر. فاجتمع رؤساء الكهنة والشيوخ وتشاوروا فى الأمر ثم رشُوا الجنود بمال كثير وقالوا لهم: قولوا إن تلاميذه جاءوا ليلاً وسرقوه ونحن نائمون فإذا بلغ الخبر الحاكم فإننا ندافع عنكم فتكونون فى مأمن من أى عقاب. فأخذ الجنود المال وعملوا كما لُقِّنوا.

المسيح يظهر لتلاميذه :

يقول الإنجيل (متى ٢٨ ١٦) : «وأمَّا التلاميذ الاثنا عشر فذهبوا إلى منطقة الجليل إلى الجبل الذى عينه لهم يسوع. فلما رأوه سجدوا ولكن بعضهم شكُّوا. فتقدم يسوع وكلَّمهم قائلا: اذهبوا وعلِّموا جميع الأمم أن يعملوا كل ما أوصيتكم به. أنا معكم».

ويقول أهل الكتاب (أعمال الرسل ١:٢) إن عيسى عليه السلام ظل يظهر لحوارييه مدة ٤٠ يوما ويتكلم معهم فى الأمور المختصة بملكوت الله. وفيما هو مجتمع معهم أوصاهم أن لا يبرحوا من أورشليم. أما المجتمعون فسألوه قائلين: هل فى هذا الوقت (وقت عودته الثانية) تَرُدُّ الملك إلى إسرائيل. فقال لهم: ليس لكم أن تعرفوا الأزمنة والأوقات التى جعلها الرب فى سلطانه لكنكم ستنالون قوة متى حل الروح القدس عليكم وتكونون لى شهودا فى أورشليم وفى كل اليهودية والسامرة وإلى أقصى الأرض. ولما قال هذا ارتفع وهم ينظرون وأخذته سحابة عن أعينهم. فكان هذا هو الرفع النهائى.

من هذا يمكننا أن نفترض أن رفع المسيح عليه السلام تم على مرحلتين: المرحلة الأولى رفع فيها إلى السماء الدنيا ومنها كان ينزل إلى الأرض فيراه تلاميذه ويوالى توجيههم كما كان يفعل وهو بينهم قبل رفعه وهذه الفترة امتدت إلى ٤٠ يوما. ثم المرحلة الثانية وفيها رفع إلى السماء الثانية - حسبما جاء فى حديث الإسراء - وفيها يبقى إلى أن ينزل مرة ثانية إلى الأرض فى الوقت الذى يحدده الله سبحانه وتعالى.

«إنى متوفيك» :

جاء فى سورة آل عمران (الآية ٥٥) **«إذ قال الله ياعيسى إنى متوفيك ورافعك إلىّ»** (٥٥ - آل عمران) وقد فهم البعض من هذه الآية أن عيسى قد صلب فعلا ولكن قبل أن يموت من الصلب توفاه الله ثم رفعه. وكأن المعنى لم يقتلوه ولم يصلبوه وإنما أماته الله كى لا ينالوه حيًا! ثم رفعه الله بروحه أو بروحه وجسده معا. وإن كان الرفع بالروح فقط فلا معجزة فى هذا. فأرواح كل البشر تُرفع إلى الله بعد موتها. **«الله يتوفى الأنفس حين موتها والتى لم تمت فى منامها»** (٤٢ - الزمر). فالتوفِّى فى اللغة هو الاستيفاء. تقول وفَّيته حقه. وتوفَّى هو حقه يعنى أخذه كاملا. وتوفِّى الأنفس يترتب عليه الإماتة وعليه سمى الموت وفاة مجازا. وعليه فقوله تعالى «إنى متوفيك ورافعك إلىّ» لو فُهمت بمعنى إنى مميتك ورافعك إلىَّ. تصبح غير ذات معنى إذ أن الله لا يرفع جسداً ميتا. وهو أيضا لا يرفع نفسا أميت جسدها بالتوفى. واستيفاء النفس فى هذه الحالة لا يسمى رفعا بل قبضا. وهو يسرى على كل البشر. ويكون الله عز وجل قد قبض نفس عيسى كما يقبض أنفس جميع البشر! ثم نأتى إلى قوله تعالى **«ومكروا ومكر الله. والله خير الماكرين»** (٥٤ - آل عمران) هم أرادوا صلبه وأراد الله بالمسيح شيئا آخر. ولا يصحّ أن يكون هذا الشيئ الآخر هو أن يميت الله عيسى كيلا ينالوه حيا إذ ليس فى هذا إنجاء وتخليص كما هو المفهوم من «مكرهم» وفى مقابله «مكر الله». ولما كان «الله خير الماكرين» فلابد أن عيسى قد أنجى من الموت - صلبا أو وفاة - ورفع بجسده حياً.

بعض من فهموا التوفى فى هذه الآية بالموت قالوا إن هناك تقديم وتأخير والمعنى أن الله رافعه بجسده ونفسه ثم يعيده إلى الأرض ليستوفى عمره كاملا ثم يُتَوفَّى كما يتوفى سائر البشر. وفى تفسير الآية بهذه الطريقة افتعال لا يليق بجلال القرآن الكريم. فضلا عن أن المفعول فيه فى «متوفيك» هو المسيح نفسه لا عمره. وأخيرا فإن تكملة الآية «ومطهِّرك من الذين كفروا» لا تعنى إلا الاستخلاص سليما وكاملا ونقيًا كما يُطهَّرُ الثوب من الوسخ ولا يكون ذلك إلا برفع الجسد والنفس معًا.

عـودة المسيح :

إن الأديان الثلاثة تؤمن بعودة المسيح:

أ - فاليهود لم يؤمنوا بعيسى مسيحًا. ولذلك فهم ينتظرون مجيء المسيح الذى سيعيد لهم دولتهم فى فلسطين. ويعملون على بناء الهيكل الذى يؤمنون بأن المسيح سينزل عليه.

ب - والمسيحيون ينتظرون عودة المسيح بعد أن رفع إلى السماء بعد قيامته من الصلب.

جـ - والمسلمون بدورهم يؤمنون بعودة المسيح قرب آخر الزمان ويستدلُّون على ذلك بكتاب الله وبأحاديث نبوية عديدة:

١ – «وإن مّن أهل الكتاب إلا ليؤمننّ به قبل موته ويوم القيامه يكون عليهم شهيدا» (١٥٩ – النساء). أى أن عيسى عليه السلام سينزل إلى الأرض ويؤمن به كل أهل الكتاب الموجودون فى زمانه قبل أن يموت عيسى الميتة التى حكم الله بها على جميع بنى آدم. وعن ابن عباس: عند نزول عيسى لا يكون أحد من أهل الكتاب إلا آمن به ثم يموت عيسى. وبهذا قال جميع المفسرين.

٢ – «ويكلم الناس فى المهد وكهلا» (٤٦ – آل عمران). وهو قد كلّم الناس فى المهد عقب ولادته. ويرى المفسرون أنه سيعود ليكلم الناس «كهلا» لأنه مات قبل الكهولة. وفى اللغة الكهل هو من وخطه الشيب وجاوز الثلاثين أو أربعة وثلاثين إلى إحدى وخمسين (القاموس المحيط جـ ٤ ص ٤٧). وقد ذكر الألوسى (تفسيره جـ ٣ ص ١٦٢) أن الشباب هو ما بين الثلاثين والأربعين والكهل بعد الأربعين إلى أن يستوفى الستين. ولما كان عيسى عليه السلام قد رفع وعمره ٣٣ عاما فإنه سيعود ليبلغ الأربعين وما بعدها ليكون كهلا.

٣ – روى الشيخان عن أبى هريرة قوله: قال رسول الله صلى الله عليه وسلم: والذى نفسى بيده ليوشكنّ أن ينزل فيكم ابن مريم حكما عدلا فيكسر الصليب (أى يوضّح للمسيحيين أنه لم يُصلب) ويقتل الخنزير (أى يُحرِّم على المسيحيين أكل لحم الخنزير) ويضع الجزية (أى لا يقبل من أحد إلا أن يؤمن به) ويفيض المال حتى لا يقبله أحد حتى تكون السجدة الواحدة خيراً من الدنيا وما فيها.

٤ – وروى الشيخان أيضا عن أبى هريرة قول رسول الله صلى الله عليه وسلم: كيف أنتم إذا نزل ابن مريم فيكم وإمامكم منكم.

٥ – روى مسلم فى صحيحه عن الزبير أنه سمع جابر بن عبد الله يقول سمعت النبى صلى الله عليه وسلم يقول: لاتزال طائفه من أُمّتى يقاتلون على الحق ظاهرين إلى يوم القيامة. قال فينزل عيسى ابن مريم عليه السلام فيقول أميرهم تعال صلِّ لنا فيقول لا. إن بعضكم على بعض أمراء. تكرمة الله هذه الأمة.

٦ – عن أبى هريرة أن رسول الله صلى الله عليه وسلم قال: والذى نفسى بيده ليهلّنَّ ابن مريم بفجِّ الروحاء حاجا أو معتمرا أو ليثنيّنهما. وهناك العديد من الأحاديث – يضيق المجال عن ذكرها – تؤكد على نزول عيسى عليه السلام قرب آخر الزمان فيَقتل المسيح الدجَّال ويعم العدل والسلام الأرضَ ليس بين اثنين عداوه لمدة سبع سنين (أو أربعين سنة) ثم يموت.

وبهذا تنتهى قصة عيسى عليه السلام. ومنها يتضح أنه لم يدَّع لنفسه الألوهية ولا بُنوَّة لله وحتى عندما كان يقول «أبى الذى فى السموات» فإنه كان يقصد «ربى الذى فى السموات» كما سبق أن ذكرنا (ص ٥٢).

وقد برأه القرآن الكريم من ادعاء الألوهية فى قوله تعالى:

«وإذ قال الله يا عيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذونى وأمىَّ إلهين من دون الله. قال سبحانك ما يكون لى أن أقول ما ليس لى بحق. إن كنت قلته فقد علمته. تعلم ما فى نفسى ولا أعلم ما فى نفسك إنك أنت علام الغيوب. ما قلت لهم إلا ما أمرتنى به. أن اعبدوا الله ربى وربكم. وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم. فلما توفيتنى كنتَ أنتَ الرقيب عليهم. وأنت على كل شيئ شهيد. إن تعذِّبهم فإنهم عبادك. وإن تغفر لهم فإنك أنت العزيز الحكيم».

(١١٦ – ١١٨ – المائدة).

وقوله تعالى : **«لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم . وقال المسيح يابنى إسرائيل اعبدوا الله ربى وربكم. إنه من يشرك بالله فقد حرَّم الله عليه الجنة ومأواه النار. وما للظالمين من أنصار».** **(٧٢ – المائدة).**

الفصل العاشر

الرسل أو خلفاء المسيح

كان آخر ظهور للمسيح عليه السلام لتلاميذه على جبل الزيتون القريب من أورشليم وبعد أن رفع رجع الرسل من جبل الزيتون وهو من أورشليم على مسافة قصيرة يجوز قطعها يوم سبت. وصعدوا إلى العليَّة التي كان الحواريون الاثنا عشر يقيمون فيها وظلوا مواظبين على الصلاة. ويقول الإنجيل (أعمال الرسل ٢ : ١) «ولما حضر يوم الخمسين كان الجميع معا بنفس واحدة. وصار بغتة من السماء صوت كما من هبوب ريح عاصفة وملأ كل البيت حيث كانوا جالسين وظهرت لهم ألسنة منقسمة كأنها من نار واستقرت على كل واحد منهم. وامتلأ الجميع من الروح القدس وابتدأوا يتكلمون بألسنة أخرى كما أعطاهم الروح أن ينطقوا». وقد كانت اللهجة الجليلية مميزة وصعبة على غير الجليليين فلا يفهمونها جيدا. فكانت مقدرة التلاميذ الفجائية على أن يتكلموا بألسنة مفهومة لدى الجمهور فضلا عن لغة أجنبية إضافية: فهذا يعرف لغة الماديين وآخر لغة العيلاميين وثالث اللغة الهيروغليفية التي يتكلم بها المصريون وهكذا. مثار تعجب الجمهور «واجتمع الجمهور وتحيروا لأن كل واحد كان يسمعهم يتكلمون بلغته. فبهت الجميع وتعجبوا قائلين بعضهم لبعض: أتُرى ليس جميع هؤلاء المتكلمون جليليين. فكيف نسمع نحن كل واحد منا لغته التي ولد فيها: ماديون وعيلاميون وفريجيةٌ ومصر ونواحي ليبية والرومانيون وكريتيون وعرب. فتحيَّر الجميع وارتابوا». ووقف بطرس وأوضح لهم أن ذلك حدث لأن الرب سكب من الروح القدس عليهم فتنبأوا. ومن الواضح أن تلك كانت معجزة إلهية حتى يُرسل كل واحد منهم إلى قوم من الأقوام متكلما بلغتهم يدعوهم إلى الإيمان بالله وبأن المسيح كان مُرسلا من عند الرب.

وأهم اثنين من خلفاء المسيح هما: بطرس الرسول وبولس الرسول. وسنتكلم عنهما بشيء من التفصيل وخاصة الأخير منهما إذ أنه أضاف إلى تعاليم المسيحية الكثير وأحدث فيها مالم يكن موجودا أيام المسيح نفسه حتى إنه ليعتبر لدى علماء الغرب هو مؤسس المسيحية وواضع شرائعها.

بطرس الرسول

بطرس اسم يوناني معناه «صخرة أو حجر». وكان هذا الرسول يُسمَّى أولا سمعان واسم أبيه يونا واسم أخيه أندراوس وهم من مدينة بيت صيدا. فلما تبع يسوع سَمَّاه «كيفا» وهي

كلمة أرامية معناها صخرة، والصخرة باليونانية بيتروس Petros ومنها بطرس العربية.

وكان بطرس – قبل اتباعه لعيسى – تلميذا ليوحنا المعمدان، وقد جاء به إلى عيسى أخوه أندراوس الذى كان أيضا تلميذًا من تلاميذ يوحنا، وعن ذلك يقول إنجيل يوحنا (١ : ٣٥): «كان يوحنا واقفا مع إثنين من تلاميذه (كان أحدهما أندراوس) ونظر إلى يسوع ماشيا فقال: هُوَ ذا حَمَل الله. فسمعه التلميذان يتكلم فتبعا يسوع. فالتفت يسوع ونظرهما يتبعانه فقال لهما ماذا تطلبان. فقالا يا معلِّم أين تمكث. فقال لهما تعاليا وانظرا. فأتيا ونظرا أين كان يمكث ومكثا عنده ذلك اليوم. وتأكد أندراوس أن عيسى هو المسيا أو المسيح الذى جاء ذكره فى نبوءات العهد القديم. وأحضر أندراوس أخاه سمعان إلى المسيح فنظر إليه يسوع وقال: أنت سمعان بن يونا. أنت تُدعى صفا الذى تفسيره بطرس».

وكانت دعوة عيسى لبطرس على ثلاث مراحل:

١ – دعاه ليكون تلميذا يتعلَّم منه.

٢ – ثم دعاه ليكون رفيقا ملازما له باستمرار أى ليكون من الحواريين. إذ لما وجده هو وأخاه أندراوس يصطادان بالشبكة فى بحر الجليل قال لهما: هلم ورائى فأجعلكما تصيران صيادى الناس (أى تقودان الناس إلى طريق الرب) فللوقت تركا شباكهما وتبعاه كما سبق ذكره (ص ٥١).

٣ – ثم دعاه ثالثا ليكون أحد الرسل: «وأنا أقول لك أيضا أنت بطرس وعلى هذه الصخرة أبنى كنيستى وأبواب الجحيم لن تقوى عليها وأعطيك مفاتيح ملكوت السموات. فكل ما تربطه على الأرض يكون مربوطا فى السموات. وكل ما تُحِلُّه على الأرض يكون محلولا فى السموات».

وقد ساعد حماس بطرس ونشاطه على أن يبرز بين الحواريين فيذكر اسمه دائما فى الأول. وبالرغم من محبَّته ليسوع فإن الضعف البشرى هو الذى جعله ينكره فى ليلة المحاكمة ثلاث مرات كما سبق أن أوضحنا (ص ١٠٢) وكانت نظرة العتاب من عيسى هى التى جعلته يخرج من القاعة ويبكى بكاء مُراً.

أول تبشير لبطرس بالمسيحية:

وقف بطرس وسط الشعب اليهودى وقال: أيها الرجال الإسرائيليون. اسمعوا هذه الأقوال. يسوع الناصرى رجل قد تبرهن لكم من قِبَل الله بقوات وعجائب وآيات صنعها الله بيده فى وسطكم كما أنتم تعلمون. هذا أخذتموه مسلَّماً بمشورة الله المحتومة وعلمه السابق. وبأيدى أثمة صلبتموه وقتلتموه (هو هنا يتكلم بحسب ما ظهر لهم وما حدث أمامهم من صلب

الشبيه). فلما سمعوا قالوا لبطرس ولسائر الرسل: ماذا نصنع أيها الرجال الإخوة. فقال لهم بطرس: توبوا وليعتمد كل واحد منكم على اسم يسوع المسيح لغفران الخطايا فتقبلوا عطية الروح القدس. ويقول الإنجيل (أعمال الرسل ٢ : ٤١) إنه فى ذلك اليوم انضم ٣٠٠٠ نفس إلى أتباع المسيحية.

بطرس يشفى الأعرج (أعمال الرسل ٣):

وصعد بطرس ويوحنا (أحد الحواريين. وهو غير يوحنا المعمدان) معا إلى الهيكل فى ساعة الصلاة. وكان رجل أعرج منذ ولادته ولايستطيع المشى يُحمل ويضعونه كل يوم عند باب الهيكل ليسأل صدقة من الذين يدخلون الهيكل. ولما رأى بطرسَ ويوحنا وهما يَهُمَّان بدخول الهيكل سألهم صدقة. فتفرَّس فيه بطرس مع يوحنا وقال انظر إلينا. فلاحظهما منتظرا أن يأخذ منهما شيئا. فقال بطرس. ليس لى فضة ولا ذهب ولكن الذى لى فإياه أعطيك. باسم يسوع المسيح الناصرى قم وامش. وأمسكه بيده اليمنى وأقامه. وفى الحال شفى الرجل ووقف وأصبح قادرا على المشى ودخل معهما إلى الهيكل وهو يمشى ويُسبِّح الله. وأبصره جميع الشعب وهو يمشى ويسبِّح الله ولما كانوا قد عهدوه مُقعدا لا يستطيع المشى فإنهم تعجبوا وامتلأوا دهشه وحيرة مما حدث له واجتمع جمهور كبير فى رواق سليمان بالمعبد ليشهدوا هذه المعجزة. وكان شفاؤه آية على صدق رسالة المسيح.

وقد أشار إشعياء إلى هذه المعجزة حين قال: «حينئذ تنفتح عيون العمى وآذان الصم. حينئذ يقفز الأعرج كالأيل ويترنَّم لسان الأخرس» (إشعياء ٣٥ : ٦).

وانتهز بطرس الفرصة وراح يدعو إلى الإيمان بالمسيح فقال: أيها الرجال الإسرائيليون. مالكم تتعجبون من هذا ولماذا تشخصون إلينا كأننا بقُوَّتنا أو تقوانا قد جعلنا هذا يمشى؟ إن إله إبراهيم وإسحق ويعقوب إله آبائنا مجَّد عبده يسوع الذى أسلمتوه أنتم وأنكرتموه أمام وجه بيلاطس وهو ينوى الحكم بإطلاقه. ولكن أنتم أنكرتم القدُّوس البار وطلبتم أن يوهب لكم رجل قاتل ورئيس الحياة قتلتموه وأقامه الله من الأموات ونحن شهود لذلك. وبالإيمان باسمه أُعطِى هذا الصحة أمامكم جميعا. والآن أيها الإخوة أنا أعلم أنكم بجهالة عملتم كما أمر رؤساؤكم. فتوبوا وارجعوا لتُمحى خطاياكم لكى تأتى أوقات الفرج من وجه الرب ويرسل يسوع المسيح المُبشَّر به لكم قبل. الذى ينبغى أن السماء تقبله إلى أزمنة رد كل شىء (أى أنه حى فى السماء حتى الزمن الذى يحدده الله لردِّه إلى الأرض). ثم راح يشرح لهم أن الله تكلم عن هذا «بفم جميع أنبيائه القدِّيسين منذ الدهر».

بـدء الاضطهاد :

ولم يرق هذا الأمر للكهنة. وتزايد أعداد المستمعين لبطرس وازداد المؤمنون به وبأقواله. فحرّض الكهنة والصدّوقيون الجند فألقوا القبض على بطرس ويوحنا ووضعوهما في الحبس. وكان أتباع المسيحية قد ازدادوا إلى خمسة آلاف. وفي اليوم التالي جاء الرؤساء والشيوخ والكتبة وأحضروا السجينين وجعلوا يسألونهما بأي قوة وبأي اسم صنعا هذا الأمر. ورد عليهم بطرس بجرأة وقال لهم «يا رؤساء الشعب وشيوخ إسرائيل. إن كنا نتهم اليوم لأننا أحسنّا إلى إنسان مريض. فبماذا شفي هذا. وليكن معلوما عندكم جميعا وجميع شعب إسرائيل أنه باسم يسوع المسيح الناصري شُفِيَ هذا الأعرج ووقف أمامكم صحيحا. إن الحجر الذي احتقرتموه أيها البناءون (أي المسيح) قد صار رأس الزاوية وليس بأحد غيره الخلاص». وعجب الجميع من كلام بطرس ويوحنا لأنهما لم يتعلما في مدارس الربّيين ولكنهما كانا من أتباع المسيح. ولكن الكهنة نبّهوا عليهما أن يكفّا عن الدعوة للمسيحية وأن يتوقّفا عن التبشير باسم يسوع. ولكن بطرس أجابهم بأنه يجب أن يستمراً في إبلاغ كلام الله. ولم يجد الكهنة ما يمكن أن يؤخذ عليهما. كما أنهم خافوا من الشعب إن هم اتخذوا أي إجراء ضدهما فأطلقوا سراحهما فعادا إلى رفاقهما وقصّا عليهم ما حدث لهما. فلما سمعوا رفعوا صلاة جماعية شكرا لله.

التبشير بالمسيحية في السامرة:

وكان بطرس ورفاقة قد أوتوا من الله القدرة على شفاء المرضى كما كانت للمسيح. فكان الناس يحملون مرضاهم ويضعونهم على فرش في الشوارع حتى إذا جاء بطرس وباركهم كانوا جميعا يبرأون من أمراضهم. وكان في مدينة السامرة رجل اسمه سيمون يستعمل السحر ويدهش شعب السامرة وافتتن به أناس كثيرون معتقدين أنه مؤيد من الله. ولما جاء بطرس ومعه يوحنا إلى السامرة أراد سيمون أن ينال روح القدس «فقدّم دراهم قائلا أعطياني أنا أيضا هذا السلطان حتى يحل روح القدس على من أضع يدي عليه». وعلى ما يبدو كان يريد هذا ليشفي المرضى لقاء أجر فيصيب من وراء ذلك مالا كثيراً وأدرك بطرس ذلك فقال له: لتكن فضتك معك للهلاك لأنك ظننت أن تقتني موهبة الله بدراهم. ليس لك نصيب ولا قرعة في هذا الأمر لأن قلبك ليس مستقيما أمام الله. فتب من شرّك هذا واطلب إلى الله أن يغفرلك فكر قلبك لأني أراك في مرارة المر ورباط الظلم.

وعاد بطرس ويوحنا إلى أورشليم وفي الطريق كانا يبشران قرى كثيرة للسامرين فاعتنق المسيحية عدد كبير من الناس. وفي أورشليم قابلا – ومعهما فيلبس (أحد الرسل الصغار) – وزير مملكة النوبة التي كانت تحكم مصر في هذه الفترة وكان قد جاء حاجًا إلى أورشليم.

فبشروه بيسوع فاعتنق المسيحية. ولما عاد إلى بلاده عمل على نشر المسيحية حتى وصلت إلى الحبشة التى أصبحت معقلا هاما للمسيحية.

اشتراكية المسيحيين الأوائل :

يقول سفر أعمال الرسل (٢ : ٤٣) إن المسيحيين الأوائل كانوا يواظبون على تعاليم الرسل. وكانوا يشتركون فى الصلوات. ويواظبون فى الهيكل بنفس واحدة. وكانوا يكسرون الخبز ويقتسمونه فيما بينهم «وكانوا يتناولون الطعام بابتهاج وبساطة قلب مسبِّحين الله. وكان الشعب ينظر إليهم بإعجاب وكانت أعداد المؤمنين تزداد كل يوم.

وكان كل شيء عندهم مشتركا. لأن أصحاب الحقول أو البيوت كانوا يبيعونها ويأتون بأثمان المبيعات ويضعونها عند أقدام الرسل الذين كانوا يوزِّعونها على الأتباع كلٌ حسب احتياجاته.

جزاء الخيانة: على أن الأمور في مجتمع مثل هذا لا يمكن أن تكون مثالية تماما بل لابد أن يكون هناك بعض ضعاف النفوس وضعاف الإيمان الذين يحيدون عن هذه المشاركة التامة. فقد كان هناك رجل اسمه حنانيا باع حقلا له وأخذ نصف الثمن لنفسه وأحضر النصف الثانى للرسل. وأعلم الله بطرس بما فعل الرجل فقال بطرس: «ياحنانيا. لماذا ملأ الشيطان قلبك لتكذب على الروح القدس وتختلس من ثمن الحقل. أليس ما تقدمه هو باقٍ لك؟ أنت لم تكذب على الناس بل على الله». فلما سمع حنانيا هذا الكلام وقع ميتا من شدة شعوره بجسامة ما اقترف في حق الله فقام إخوانه بتكفينه ودفنه. وبعد ساعات جاءت امرأته ولم تكن تدرى بموت زوجها. وسألها بطرس: «أبهذا المقدار بعتما الحقل فقالت نعم بهذا المقدار فقال لها بطرس: ما بالكما اتفقتما على تجربة روح الرب وهؤلاء الذين دفنوا زوجك سيقومون بدفنك أنت أيضا». فعلمت أن اختلاسهما من الثمن قد انكشف وأن زوجها قد نال جزاء كذبه على الرب واستعظمت هى أيضا ما حدث منها ومن زوجها وسقطت ميتة هى الأخرى فحملوها ودفنوها بجانب زوجها.

محاكمة الرسل :

تضايق الكهنة والصدوقيون من تزايد أعداد المؤمنين بالمسيح فقبضوا على الرسل ووضعوهم فى السجن. ويقول سفر أعمال الرسل (٥ : ١٧) إن ملاك الرب جاء فى الليل وأخرجهم من السجن وقال لهم «اذهبوا قفوا وكلِّموا الشعب فى الهيكل وادعوا الناس إلى الإيمان بالرب وبمسيحه». وجاء رئيس الكهنة فى الصباح وعلم خبر اختفاء المساجين بالرغم

من أن أبواب السجن مغلقة والحراس واقفون خارجها. ثم علم أن الرسل واقفون فى الهيكل يعلمون الشعب. فأحضرهم وسألهم رئيس الكهنة: «أما أوصيتكم أن لا تعلّموا باسم يسوع. وها أنتم قد ملأتم أورشليم بتعليمكم وتريدون أن تجلبوا علينا دم هذا الإنسان. فأجاب بطرس والرسل وقالوا: ينبغى أن يطاع الله أكثر من الناس. إله آبائنا أقام يسوع الذى أنتم قتلتموه معلّقين إياه على خشبة. هذا رفعه الله بيمينه رئيسا ومخلّصا ليعطى إسرائيل التوبة وغفران الخطايا ونحن شهود له بهذه الأمور. والروح القدس أعطاه الله أيضا للذين يطيعونه. فلما سمعوا هذه الإجابة اغتاظوا وراحوا يتشاورون أن يقتلوهم».

وقام حاخام يهودى من الفريسيين وعضو فى السنهدريم (وهو المحكمة العليا للأمة اليهودية وعدد أعضائه ٧٠ عضوا) ونصح باقى أعضاء المحكمة برفع القيود عن رسل المسيح والكف عن اضطهادهم استنادا على أنه إذا كان الرسل مُدَّعين فلن يقدُر لهم النجاح وإن كانوا مؤيدين من الله فلن تقدروا أن تقفوا فى وجوههم. فاستجابوا لدعوته واكتفوا بجلد الرسل وأطلقوا سراحهم ونبّهوا عليهم أن لا يتكلموا باسم يسوع. ولكن الرسل استمروا فى إبلاغ دعوتهم وظلوا يبشِّرون بيسوع كل يوم فى الهيكل وفى البيوت.

كان يعقوب قد أخذ مكان القيادة الدينية فى أورشليم وكان من دعاة المسيحية. وكان بولس الرسول قد أخذ على عاتقه الدعوة للمسيحية بين الأمم غير اليهودية. وتولى فيلبس التبشير فى السامرة. وكان بطرس يرى أنه لابد للأُمَمِى أن يختتن ويتهوَّد قبل أن يدخل فى المسيحية ومن هنا كان خلافه مع بولس الذى كان يرى أنه لا ضرورة للختان ولذلك سمى بطرس «رسول إنجيل الختان» وسُمِّى بولس «رسول إنجيل الغرلة» وسيجيء تفصيل ذلك فيما بعد (ص ١٢٠).

وسافر بطرس إلى أنطاكية وكورنثوس. وانتهى به المطاف إلى روما حيث سجن. ومن سجنه فى روما أرسل رسالتين إلى المسيحيين الأوائل:

١ – كانت **رسالة بطرس الأولى** موجهة إلى المسيحيين فى بابل وهى المدينة فى وسط العراق وإن كان البعض يرى أنها مدينة بابلون بمصر القديمة الآن. وأهم النقاط التى تضمَّنتها هى:

أ – دعوة إلى الأمن والاطمئنان بالرغم من الاضطهاد.

ب – الإيمان بقيامة المسيح بعد صلبه.

حـ – الحث على المحبَّة للإخوة المسيحيين.

د – احترام قواعد المجتمع عملا بقول المسيح «اعطوا ما لقيصر لقيصر».. إلاَّ أنه حبَّذ المقاومة عند ادعاء القياصرة لأنفسهم حقا من حقوق الله.

هـ – كان العالم القديم يضع النساء والعبيد فى صف «الكائنات المرؤوسة». وراح بطرس

يُشَدِّد على المساواة الروحية بين الرجل والمرأة بوصفهما وارثين معا للبركات الإلهية ولكنه يحافظ على وجوب خضوع المرأة لزوجها وفى نفس الوقت يدعو كل زوج لمعاملة زوجته «بكرامة وبرحمة».

٢ – أمَّا رسالة بطرس الثانية فقد كانت موجَّهة إلى المسيحيين فى آسيا الصغرى. وأهم النقاط التى جاءت بها هى:

أ – وجوب أن يتسلح المبشِّر بالإيمان حتى يستطيع أن يرد على التعاليم الكاذبة التى يروِّجها أعداء المسيحية. ومن هذا الإيمان يصل إلى التقوى ويستزيد نُمواً روحيا مما يعطيه قوة ضبط النفس والتعفف.

ب – تنبأ بطرس بقرب نهايته ولكنه أوضح أن الموت ماهو إلا خروج من هذا الوجود للدخول فى ملكوت السموات.

جـ – حذَّرهم من الأنبياء الكذبة.

د – التذكير بعودة المسيح.

هـ – عدم استعجال وعود الرب. وقال لهم: «إن يوما واحدا عند الرب كألف سنة وألف سنه كيوم واحد. لا يتباطأ الرب عن وعده كما يحسب قوم التباطؤ لكنه يتأنَّى علينا. وهو لا يشاء أن يَهلك أناس. بل أن يُقبل الجميع إلى التوبة».

ثم بدون تفاصيل تذكر المراجع التاريخية أن بطرس بعد أن سُجن فى روما تم صلبه.

بولـس الرسـول

يُعتبر بولس الرسول من أشهر رجالات الكنيسة المسيحية على الإطلاق إذ عمل على نشر رسالة السيد المسيح وتعاليمه فى كافة أرجاء الامبرطورية الرومانية فى القرن الأول الميلادى. وينتمى بولس إلى سبط بنيامين الذى اشتهر بتعصبه. وقد ولد من أبوين يهوديين فى مدينة طرسوس التى تقع فى مقاطعة كليكيليا بآسيا الصغرى أيام حكم الإمبراطور الرومانى أوغسطس قيصر وكان متمتعا بالرعوية الرومانية.

كان اليهود تحت حكم الرومان ينتظرون مجىء المسيح الموعود أو «المسيا المنتظر» الذى أشارت إليه نبوءات العهد القديم. وكان الاعتقاد السائد عند اليهود أن المسيا (المسيح) المنتظر سيكون ملكا أرضيا يملك عليهم ويخلِّصهم من ظلم الرومان ويمنحهم الغلبة والانتصار على أعدائهم.

وُلد بولس – أو شاول كما كان اسمه الأصلى – تقريبا فى نفس الوقت الذى ولد فيه المسيح. وكان شاول ابن رجل يهودى ينتمى إلى طائفة الفريسيين المعروفة بتعصبها والمتمسكة بتعاليم وتقاليد الشريعة اليهودية. وكانت هذه الطائفة تنظر باحتقار لغير اليهود ولكل من لا ينتمى إليها. ونذرته أمه لخدمة الهيكل وعليه فقد تعلّم من صغره أن يركع ووجهه فى اتجاه أورشليم وأن يتلو صلاة الصبح والمساء التى اعتاد المتدينون من الشعب العبرى تلاوتها. وبعد الدراسة المبدئية درس الشريعة اليهودية وتفقه في الدين حتى أصبح عضوا فى المجلس الدينى المعروف بمجلس السنهدريم.

وفى سن الثالثة عشرة أُرسل شاول فى صحبة الحجاج الذين اعتادوا الذهاب إلى أورشليم لحضور عيد الفصح بها. وأكمل تعليمه فى مدارس أورشليم. ودرس العهد القديم دراسة وافية وتخرج من المدرسة واجتاز الامتحان الخاص ونال لقب «مُعلّم» أو «ربّى». ولا شك أن شاول قد تعلم أيضا اليونانية وبذلك أتيح له أن يتسلّح بحكمة اليونان وفلسفتهم وكذلك ألمَّ بتاريخ أمته. ثم عاد شاول إلى طرسوس حيث أصبح صانعا للخيام يتكسَّب من هذه المهنة معيشته وفى نفس الوقت يقوم بالتعليم.

كان شاول يعتبر الشعب اليهودى شعبا مُمَيَّزاً ومختارا. ووعى العذابات التى عاناها فى مختلف العصور. كما كان يضيق بالاحتلال الرومانى لبلاده ويترقب مجىء المسيَّا الموعود الذى بشَّرت به نبوءات العهد القديم وتصور – كما تصور غيره من اليهود – أنه سيأتى كملك. مُلكه أرضى. يعطى الغلبة لشعب إسرائيل ويعيد لملكة إسرائيل أمجادها السابقة. وعندما بلغ مبلغ الشباب كان المسيح قد بدأ دعوته وسمع عن معجزاته ولكنه بشَّر بمُلك سماوى ومملكة روحانية. ومن هنا أنكر عليه شاول – كما فعل معظم اليهود – أن يكون هو المسيَّا المنتظر وامتلأ بغضا له وكرها لأتباعه المسيحيين. وبعد أن صُلِب المسيح وقام – حسب ما ظهر لهم – وسمع أن بطرس – أحد تلاميذ المسيح – قد حل عليه الروح القدس وراح يعظ الجماهير وأن ٣٠٠٠ شخصا قد اهتدوا به فى يوم واحد. لم يزده ذلك إلا بُغضا لهذا الدين الجديد.

وبعد أن بدأ عدد المسيحيين يزداد ازداد اضطهاد اليهود لهم وألقى القبض على الرسل – كما سبق أن ذكرنا (ص ١١٢) وتمت محاكمتهم أمام مجلس السنهدريم وتم جلدهم والتنبيه عليهم بعدم التبشير باسم المسيح أو الدعوة لتعاليم المسيحية. وكان استفانوس – أحد الشمامسة السبعة – قد بدأ يدعو للمسيحية وحوكم وتم رجمه حتى مات فكان بذلك الشهيد الأول للمسيحية. وكان شاول راضيا عن إعدام استفانوس بل إنه كان على رأس مضطهدى المسيحيين وتشريدهم وقتلهم. وكان يلاحقهم من مدينة إلى أخرى للقضاء عليهم وتهديد أو قتل كل من يؤمن بالمسيح أو يبشِّر به.

وتابع شاول ملاحقته للمسيحيين لقتلهم. وأزمع مطاردتهم فى دمشق فقد بلغه أن عددهم

هناك يتزايد. ولكي يُكسب أفعاله صفة قانونية فإنه طلب من رؤساء الكهنة في أورشليم أن يُزوِّدوه برسائل إلى رؤساء الجاليات اليهودية في دمشق تُخوِّل له القبض على من آمنوا بالمسيح وسوقهم إلى أورشليم.

إشراقة الإيمان:

وبينما كان ذاهبا إلى دمشق – وحسبما روى هو بعد ذلك – حدث أن أبرق حوله نور عظيم من السماء – وسمع صوتا يناديه – شاول . لماذا تضطهدني؟ عندئذ قال شاول وهو يرتعد، وماذا تريد أن أفعل؟ فقال له يسوع. قم وادخل المدينة (أي دمشق) فيقال لك ماذا ينبغي أن تفعل. ويقول الإنجيل إن الرجال المسافرين معه وقفوا صامتين يسمعون الصوت ولا ينظرون أحداً. فنهض شاول عن الأرض وكان مفتوح العينين ولكن لا يُبصر لأن الضوء الشديد قد أعمى بصره (أعمال الرسل ٩ : ٤). وسأل شاول الرب: من أنت وماذا تريد أن أفعل؟ فأجابه يسوع: قم وقف على رجليك لأني لهذا ظهرت لك لأنتخبك خادما وشاهدا بما رأيتَ وبما سأظهر لك به منقذا إياك من الشعب ومن الأمم الذين أنا أرسلك إليهم لتفتح عيونهم كي يرجعوا من ظلمات إلى نور ومن سلطان الشيطان إلى الله حتى ينالوا بالإيمان بي غفران الخطايا ونصيبا مع المقدّسين (أعمال الرسل ٢٦ : ١٦).

يعتنق بعض المفكرين الغربيين فكرة أن شاول – الذي تسمّى باسم بولس – اختلق هذا الحوار مع يسوع وادعى اعتناق المسيحية ليدخل في الدين الجديد ويسعى إلى تخريبه من الداخل بتحريف تعاليمه ويستدلون على ذلك بأنه هنا قد نصَّ صراحة على أن المسيح هو الرب نفسه مع أن المسيح لم يقل ذلك أبداً. وإن كان قد قال «أبي الذي في السموات» فقد كان يعني «ربي الذي في السموات» كما كان يقول أبوكم الذي في السموات بمعنى «ربكم» كما أن شاول – أي بولس – هو الذي أدخل التثليث في العقيدة المسيحية الأمر الذي أثار الخلافات العديدة بين المسيحيين وتحزَّبوا بسببه إلى طوائف عدة كما سيأتي ذكره فيما بعد (ص ١٣٦). بينما يرى فريق آخر أن كل ما أحدثه في الدين الجديد كان «وحيا» له من الله وأنه كان استكمالا للدين لم يتمكن يسوع من القيام به بنفسه.

نعود إلى شاول الذي تابع سيره إلى دمشق بمساعدة رفقائه لأنه كان فاقد البصر كما ذكرنا. ودخل إلى دمشق – ليس ليضطهد المسيحيين ويقتلهم كما كان يأمل – بل دخلها – كما يقول مفسِّرو الكتاب المقدس – ذليلا أعمى وطلب من مرافقيه أن يقودوه إلى بيت يهوذا وهو أحد المؤمنين بالمسيحية في دمشق ومكث في بيته ثلاثة أيام.

وكلَّم الرب أحد المؤمنين بالمسيح في دمشق واسمه «حنانيا» وأمره بأن يذهب إلى بيت

يهوذا ويضع يده على عين شاول لكي يبُصر. وخاف حنانيا لما كان يسمعه من عداوة شاول للمسيحيين، ولكن الرب أخبره أن شاول سيصبح واحدا من المؤمنين بيسوع والمبشرين به. فمضى إليه في بيت يهوذا ووضع يديه عليه وقال (أعمال الرسل ٩ : ١٣): أيها الأخ شاول قد أرسلني الذى ظهر لك في الطريق الذى جئت فيه لكي تبُصر وتمتلىء من الروح القدس. فللوقت وقع من عينيه شيىء كأنه قشور فأبصر في الحال وقام واعتمد ودخل في المسيحية. ويعتقد المسيحيون أن اهتداء شاول يعد ثاني حدث هام بعد قيامة المسيح. وبعد أن أصبح شاول مسيحيا تغير اسمه إلى «بولس» وبدأ يمهد نفسه للتبشير بالمسيح.

رأى بولس – بعد أن اهتدى إلى المسيح – أنه لابد أن يقضى فترة من الوقت في خلوة روحية يُعدّ نفسه فيها للمهمة العظيمة الملقاة على عاتقه، لذلك ذهب إلى «أرابيا» أي العربية وهى المنطقة الممتدة من شبه الجزيزة العربية حتى الفرات شمالا – وهى حاليا صحراء العراق – وأمضى هناك ٣ سنوات عاد بعدها إلى دمشق ليواجه اتهام اليهود له بأنه مارق عن الدين اليهودى وتآمروا عليه ليقتلوه ولكن الجماعة المسيحية ساعدته على الهرب من دمشق. وسافر بولس إلى أورشليم وقابل بطرس الرسول ومكث عنده ١٥ يوما.

بعد ذلك حاول بولس الاتصال بباقي الرسل ولكنهم خافوا منه ولم يصدّقوا أنه أصبح مسيحيا وظنوا أنه يتظاهر بالمسيحية ليندس بين المسيحيين ويتعرف عليهم لينكّل بهم فيما بعد. ولكن برنابا – أحد المؤمنين – أحضره إلى الرسل وأكد لهم صدق إيمانه. وراح بولس يجاهر ويبشر باسم يسوع وكان يناقش اليهود اليونانيين الذين ساءهم اعتناقه للمسيحية فحاولوا قتله ولكن المسيحيين هربوه إلى ميناء قيصرية ومن هناك سافر إلى طرسوس مسقط رأسه.

بولس ومبادىء المسيحية :

يرى بعض علماء الغرب أن بولس لما بدأ تبشيره بالمسيحية ولس عدم إيمان اليهود بأن المسيح هو المسيا المنتظر ورغبة منه في نشر الدين المسيحي ولأجل فتح الباب أمام جميع الشعوب لتدخل في المسيحية فإنه أدخل الى المسيحية بعض الأفكار التى استمدَّها – كما يقول «ويلز» – «من الثقافات الأجنبية والديانات المجاورة» فقال إن عيسى لم يكن المسيح الموعود فحسب بل إنه «ابن الله» نزل إلى الأرض ليقدم نفسه قربانا ويصلب تكفيرا عن خطيئة البشر. فموته كان تضحية. ويقول «بيرى» إن بولس هو مؤسس المسيحية وقد أدخل على الديانة بعض تعاليم اليهود ليجذب له العامة من اليهود. كما أدخل صورا من فلسفة الإغريق ليجذب أتباعا له من اليونان. فبدأ يذيع أن عيسى منقذ ومخلِّص وسيد استطاع الجنس البشرى بواسطته أن ينال النجاة (الأديان والمذاهب. العميد محمد عبد الرزاق محمد أسود،

ص ٢٠٩). وبهذا أدخل بولس إلى المسيحية المبادىء الأساسية التالية:

١ – التثليث : ألوهية الآب وألوهيه المسيح وألوهية الروح القدس.

٢ – فداء المسيح بنفسه للتكفير عن خطيئة البشر.

٣ – عدم ضرورة الختان إذ لا يشترط للأممي (غير اليهودى) أن يتهوّد قبل أن يصبح مسيحيا بل يمكنه أن يصبح مسيحيا مباشرة.

وبهذه المبادىء أصبحت المسيحية «ديانة جديدة» تختلف كلية عما نادى به المسيح، ولكنها فى هذه الصورة لاقت قبولا لدى الأمم (غير اليهود) وبدأ الكثيرون – وخاصة فى الغرب – فى اعتناقها. واستمر بولس بعد ذلك ١٤ سنه يدعو للمسيحية وشيّد عددا من الكنائس.

بولس ينشر المسيحية في آسيا الصغرى :

بدأ بولس يكرز بالمسيح فى بلدة طرسوس، ثم جاءه برنابا موفدامن قبل الرسل فى أورشليم ليذهبا معا إلى أنطاكية لنشر المسيحية فيها وكانت فى ذلك الوقت تضم عددا غفيرا من السكان قُدِّر بنصف مليون نسمة وبذلك كانت ثالث مدينة فى تعداد السكان بعد روما والإسكندرية، وكان أهلها من الوثنيين، وكان الدين المسيحى قد بدأ ينتشر بينهم عن طريق الأفراد المسيحيين الذين هربوا من الاضطهاد فى فلسطين، ولما وصل بولس وبرنابا خطبوا فى الجموع حاثين على زيادة الخضوع للرب والولاء للمسيح ومكث بولس وبرنابا فى أنطاكية مدة سنة تزايد فيها عدد المؤمنين زيادة كبيرة، ورأى برنابا أن بولس هو خير من يرعى هذه الجماعة المسيحية ويقوم على شؤونهم فعينه راعيا لهم، وحدث أن حلت مجاعة كبيرة فى إقليم اليهودية بفلسطين لقلة الأمطار، فأسرع أهل أنطاكية بتقديم المعونات الغذائية لإخوانهم فى فلسطين.

بعد أن انتشرت المسيحية بين الأمميين (غير اليهود) فى أنطاكية عاد بولس وبرنابا إلى أورشليم وكرّزهم باقى الرسل بأن وضعوا أيديهم عليهم وكانت هذه طريقتهم فى أخذ العهد عليهم لنشر الدين الجديد، بعد ذلك سافر بولس وبرنابا إلى قبرص ونزلا فى مدينة سلاميس الواقعة على الطرف الشرقى للجزيزة وبشرا هناك، ثم انتقلا إلى بافوس فى غرب الجزيرة، وهى مركز السلطة الرومانية فى الجزيرية، ورغب الوالى الرومانى سرجيوس فى سماع ما يبشران به فدعاهما إلى قصره، وكان هناك يهودى ساحر ادَّعى النبوة وكان يفتن الناس بسحره، فلما رآه بولس عرف كذبه وقال له (أعمال الرسل ١٣ : ١٠): أيها الممتلىء كل غش وكل خبث، يا ابن إبليس، يا عدو كل برّ، ألا تزال نفسك تُفسد سبل الله المستقيمة؟ فالآن هو ذا يد الرب عليك فتكون أعمى لا تبصر الشمس، وفى الحال فقد الساحر بصره، ولما رأى

الوالى الرومانى هذه المعجزة تحدث أمامه آمن واعتنق المسيحية وانتشرت المسيحية فى الجزيرة كلها.

بعد ذلك سافر بولس وبرنابا إلى مدينة أنطاكية بيسيديه فى آسيا الصغرى ثم إلى إيقونية ثم لسترة ثم دربة (شكل ١٣) وفى كل مكان كان كثيرون يؤمنون بالمسيحية ولكن اليهود كانوا يحرِّضون غير المؤمنين على إيذاء الرسل وإهانتهم فيضطرون إلى ترك البلدة إلى بلدة أخرى. وأخير عادا إلى أنطاكية فى سوريا وأمضيا فيها حوالى العام.

بعد عودة بولس وبرنابا إلى أنطاكية نشط الداعون لليهودية فى جلاطيا وراحوا يحثون الأمميين الذين اعتنقوا المسيحية على ضرورة الختان وممارسة الناموس الطقسى الموسوى ليكون إيمانهم بالمسيح كاملاً. وبدأ عدد من المسيحيين يستجيب لهذه الدعوة. وجاءت الأنباء إلى بولس فى أنطاكية بأن هؤلاء اليهود يخلعون على دعوتهم صفة «إنجيل الناموس». أو «إنجيل البشارة» لمحاربة الإنجيل الذى ينادى به وهو «إنجيل النعمة» أو «إنجيل المسيح» أو «إنجيل الله» الذى يدور حول نعمة المسيح. فكتب بولس رسالة عاجلة إلى أهل جلاطيا تعتبر من الوثائق الهامة فى إرساء تعاليم المسيحية كما فهمها بولس أو كما قال إنه تلقاها وحيا من الرب أى من المسيح مباشرة وليس عن طريق الرسل الذين اختارهم المسيح فى حياته. وفى هذه الرسالة أكَّد على ألوهية المسيح وأوضح أن الآب أرسل ابنه المسيح فى صورة بشرية حتى يصلب فيكون صلبه كفَّارة عن خطيئة آدم الأولى التى وصمت البشرية منذ نشأتها. ومن خلال الإيمان بهذا الفداء يتطهَّر الإنسان من الخطايا. وطلب منهم أن لا يستجيبوا بل ويلعنوا كل من يبشرهم بغير هذه المبادئ. ثم شرح لهم خلافه مع بطرس. ذلك أن بطرس ينادى بضرورة الختان لأنه أؤتُمِن على «إنجيل الختان» أما بولس فقد أؤتمن على ما أسماه «إنجيل الغرلة».

نقطة أخرى من نقاط الخلاف بين الرسولين كانت حول مشاركة الأمميين فى المائدة الواحدة وكان اليهود يضعون الكثير من القيود فى مسألة مشاركة الطعام مع الأمميين غير اليهود. فاليهودى المختتن يرفض مشاركة الأممى الأغلف الطعام. لأن الختان كان علامة على الطاعة للناموس الموسوى. ولكن جاءت المسيحية ودعا الإنجيل إلى أن الإنسان يخلص بالخضوع لناموس المسيح وأن الأمميين الذين يعتنقون المسيحية ينالون إيمانا واحدا مساويا لإيمان إخوتهم فيكون الكيان المسيحى جسداً واحدا. وهكذا راح بولس يدعو إلى مشاركة الأمميين لطعامهم.

شكل ١٣ – مسيرة بولس فى آسيا الصغرى.

المؤتمر الكنسى الأول :

وحدثت منازعات ومخاصمات بين الفريقين. وعقد اجتماع فى أورشليم بين بولس الرسول وبين الكهنة اليهود وشيوخهم ونادى الفريسيون بأنه يجب على المسيحيين أن يختتنوا ويحفظوا ناموس موسى ورد بولس بأن أركان الشريعة الموسوية وطقوسها كانت عبئا على المؤمنين لم يستطع الناس أن يتحملوها وجاء المسيح ليخفف عن الناس ويمنحهم الخلاص وانتهى الرأى بالموافقة على ما قال به بولس. وفقط على المسيحيين من الأمم أن يمتنعوا عما ذبح للأصنام وعن الدم والمخنوق والزنا.

وبعد هذا المؤتمر ثبت مركز بولس كمبشر بالمسيحية بين الأمميين أى غير اليهود وعاد بولس وبرنابا إلى أنطاكية يقويان إيمان المسيحيين بها ويحثانهم على عدم الاستماع إلى الدعاة اليهود.

بولس ينشر المسيحية فى اليونان :

بعد أن عاد بولس وبرنابا إلى أنطاكية افترقا. فسافر برنابا إلى قبرص آخذا معه ابن أخته «مرقس» بينما أخذ بولس معه رسولا آخر هو «سيلا» وخرج من إنطاكية فى رحلته الثانية قاصدا بلاد اليونان لنشر المسيحية بها (شكل ١٤).

فى الطريق إلى اليونان كان عليه أن يعبر آسيا الصغرى فزار المدن التى كان قد بشَّر فيها بالمسيحية فى رحلته الأولى - ليُقوِّى من إيمان المسيحيين بها ويشد من أزرهم. فزار مدن دربة ولسترة وأنطاكية بيسيدبه ثم ميسيا ثم تراوس (وهى جنوب مدينة طروادة بمسافة قليلة). ثم عبر البسفور إلى بلاد اليونان. وكان يرافقه أيضا لوقا (كاتب إنجيل لوقا) وزارا سامو تراكى ثم نيابوليس وهى ميناء مدينة فيلبى وكلها مدن فى مقدونيا التى كانت مقاطعة رومانية.

وفى فيلبى أمسك الأهالى ببولس وسيلا وأحضروهما أمام الحاكم الرومانى ووجَّهوا إليهما الاتهام بأنهما يهوديان يزعجان المدينة ويناديان بتعاليم غريبة وأنهما يدعوان إلى دين جديد. فأمر الوالى الرومانى بضربهما بالعصى وألقاهما فى السجن ووُضعت أرجلهما فى قالب ثقيل من الخشب حتى لا يهربا. وحدث فى الليل زلزال شديد فخاف السجَّان ولجأ إلى بولس يسأله عما يفعل لكى يخلُص لما لاحظه عليه من صلاح وتقوى. فدعاه بولس إلى الإيمان بالمسيح ربًا ومُخلصا. فآمن هو وأهل بيته. وأخرج بولس من قيده ومن السجن وأخذه إلى بيته وأكرمه وأطعمه. وأخبر الحاكم أن بولس ورفيقه يتمتعان بالرعوية الرومانية فأطلق سراحهما وطلب منهما الخروج من المدينة بعد أن آمن عدد كبير من أهل فيلبى.

بعد ذلك سار بولس إلى تسالونيكى. وهى تقع بالقرب من جبل أوليمبس وكان بها مجمَّع

شكل ١٤ – بولس ينشر المسيحية في اليونان.

لليهود. وذهب بولس إلى المجمع وتناقش مع اليهود وبيَّن لهم أن المسيح الذى من الناصرة والذى صُلب كان هو المسيًا المنتظر والموعود. فآمن عدد كبير من اليهود. ولكن الذين لم يؤمنوا ألَّبوا عليه الجموع فاضطر هو ورفيقه لوقا إلى ترك المدينة وذهبا إلى بيرية وهناك آمن كثير من الأمميين. ثم توجَّها إلى أثينا.

كانت أثينا هى العاصمة الفكرية للعالم القديم وفيها المذابح والهياكل وتماثيل الآلهة المختلفة منتشرة فى كل مكان. فغضب بولس ودخل المجمَّع اليهودى وأخذ يوبِّخ الكنهة على تركهم الناس فى هذا الضلال واحتج على وضع بعض الأصنام فى الهيكل وراح يدعو الجميع إلى المسيحية. فآمن به عدد كبير من اليهود وغير اليهود.

ثم توجَّه بولس إلى كورنثوس وكانت المدينة يؤمها تجار وجنود مسافرون إلى مختلف البلدان وكانت مملوءة بالرذائل والفساد منتشر وتنشط بها تجارة الرقيق من أسرى الحروب والمخطوفين. وكان الظلم منتشرا والربا هو القاعدة فى التعامل. وتوجَّه بولس إلى المجمَّع اليهودى فى كورنثوس وراح يجادل زعماء اليهود وشيوخهم على مسمع من الشعب. فآمن بالمسيحية عدد كبير من اليهود ومنهم رئيس المجمَّع ولكن باقى اليهود قاوموا دعوته فتركهم وراح يبشِّر بين الكورنثيين فآمن به عدد كبير. وتضايق اليهود من انتشار المسيحية فى البلدة فاشتكوا إلى الوالى الرومانى الذى قال لهم: «لو كان الأمر ظلما أو خبثاً ردياً لكنت بالحق قد حكمت بينكم. ولكن إذا كان مسألة عن كلمة وأسماء وناموسكم فأنتم أبصر بها لأنى لست أشاء أن أكون قاضيا لهذه الأمور». وحتى عندما ضرب اليهود رئيس المجمَّع الذى اعتنق المسيحية لم يشأ الوالى الرومانى أن يتدخل فى الأمر.

بعد ذلك ترك بولس كورنثوس وذهب إلى إفسس. ولم يمكث بها طويلاً. ثم عاد إلى أنطاكية ماراً بها وهو فى طريقة إلى أورشليم ليحضر عيد العنصرة بها.

رحلة بولس التبشيرية الثالثة والأخيرة :

قام بولس بهذه الرحلة فى عام ٥٣م. فقد توجَّه من أنطاكية إلى إفسس. وراح يُقوِّى من إيمان المسيحيين بها. وكان بالمدينة رجل يصنع تماثيل من الفضة للإلهة «ديانا» المعبودة فى هذه المنطقة. وخشى من انتشار المسيحية فتبور تجارته. فاشتكى على المبشرين بالمسيحية وألقى القبض على اثنين من تلاميذ بولس الذى كان قد ترك المدينة. ودافع كاتب المدينة عن المقبوض عليهما بأنهما لم يسرقا الهيكل ولا جدَّفا على الآلهة فتركوهما.

كان بولس قد توجه إلى كورنثوس والتى كان قد بشَّر فيها أثناء رحلته الثانية فراح يشدُّ من عزائم المسيحيين بها. ومن كورنثوس أرسل رسالة إلى أهل روما يشرح لهم فيها مبادىء

المسيحية ويدعوهم إلى الإيمان بالمسيح ربًا وفاديا ومخلِّصا. وأوضح أن البشر جميعا متساوون لا فرق بين يهودى وأممى وسيد وعبد وشجب نظرة التعالى لدى اليهود. وتعتبر رسالة بولس إلى «رومية» أى روما من الوثائق الهامة فى الفكر المسيحى لما بها من شرح لمبادىء المسيحية وفلسفتها.

بعد ذلك سافر بولس إلى مالطة يبشر بها ثم عاد إلى فيلبى ثم إلى تراوس فى آسيا الصغرى، ثم زار أفسس ثانية. ثم سافر إلى جزيرة رودس. وبعد أن بشَّر بها استقل سفينة متجهة إلى الساحل الشرقى للبحر المتوسط ونزل فى صور بهدف السفر برا إلى أورشليم. وحاول المسيحيون فى صور أن يثنوه عن السير إلى أورشليم حتى لا يتعرَّض لمؤامرات اليهود. ولما مر على ميناء قيصرية حاول المسيحيون بها أيضا إثناءه عن الذهاب أورشليم ولكنه قال لهم: «إنى مستعد لأن أوثق فى أورشليم وأموت هناك لأجل اسم الرب يسوع» وكان جوابهم «لتكن مشيئة الرب» فسار بولس ورفاقه إلى أورشليم (شكل ١٥).

بولس فى أورشليم :

فى أورشليم التقى بولس بيعقوب راعى الكنيسة المسيحية بها والتقى أيضا بشيوخها وحدثهم بكل ما فعله وبأن كثيرا من الأمم قد اعتنقوا المسيحية.

وبدأ اليهود يهيجون المشاعر ضده قائلين إن بولس يحرِّض اليهود الذين يعيشون خارج فلسطين على أن يعصوا شريعة موسى. ودبَّروا مؤامرة للإيقاع به. وكانت الحيلة هى أن طلبوا منه أن يأخذ أربعة من المسيحيين اليهود ويرافقهم إلى الهيكل ويدفع عنهم النفقات المترتبة عليهم للوفاء بنذور كانوا قد نذروها حسب الشريعة الموسوية. وحتى يُبعد عن نفسه تهمة أنه ضد الشريعة الموسوية فإنه اصطحب الرجال الأربعة إلى الهيكل. ولما رآه اليهود أهاجوا عليه الشعب قائلين إنه أدخل يونانيين إلى الهيكل فدنَّسه. وهجم عليه جمهور كبير فأخرجوه من الهيكل وسط فوضى كبيرة وهرج عظيم. وعلم القائد العام للحامية الرومانية فى أورشليم بالشغب الذى حصل فأسرع رجاله لإخماد الثورة والقبض على المشاغبين. وتم القبض على بولس ووُضعت القيود فى يديه ونُقل إلى قلعة الحامية العسكرية. وفيما هو على سلم القلعة وقف وراح يبشر بالمسيح فهاج المحتشدون وراحوا يلقون الغبار فى الجو علامة على عدم الرضا. فأمر القائد الرومانى بأخذ بولس إلى السجن وبدأوا يضربونه. وهنا احتج بولس بأنه يتمتع بالرعوية الرومانية ولا يجوز ضربه دون محاكمة فأمر القائد بإخلاء سبيله.

وأمر القائد الرومانى بعمل مناظرة بين أعضاء مجلس السنهدريم وبين بولس وراح بولس يشرح تعاليم المسيحية. واتهم المجلس بولس بأنه يُجدِّف ويدعو إلى إلغاء ناموس موسى.

شكل ١٥ – رحلة بولس التبشيرية الثالثة.

وضاق اليهود ببولس وأزمعوا قتله. وعلم القائد الرومانى بما ينتويه اليهود فقام بنقله تحت حراسة مشددة إلى ميناء قيصرية وهناك سُلِّم إلى الوالى الرومانى. وتعقبه اليهود واتهموه فى المحكمة بتهمة الفساد وتهييج الشعب وإحداث فتنة طائفية بدعوته إلى يسوع الناصرى وبتدنيس الهيكل. وظل بولس سجينا فى سجن قيصرية إرضاء لليهود لمدة سنتين . ثم تولى والى جديد فى قيصرية فأعاد محاكمة بولس. وفى النهاية طلب بولس رفع دعواه إلى قيصر روما. فقرر الوالى إحالة القضية إلى مجلس القضاء الأعلى فى روما.

النهاية فى روما :

استغرق الوصول إلى روما عدة أشهر إذ كان البحر هائجا واضطروا إلى النزول فى مالطا وقضاء أشهر الشتاء الثلاثة بها ثم أقلعوا إلى صقلية ثم نزلوا فى إيطاليا وساروا برا إلى روما. وفى روما قابله المسيحيون بالترحاب والتعظيم وظل مقيما فى بيت فى روما. ولكنه فى الحقيقة كان سجينا إذ كان مربوطا بسلسلة طويلة تنتهى بأحد الحراس. ولكنه حر فى مقابلة من يشاء. وظل بولس هكذا مدة سنتين داوم فيها على الدعوة للإيمان بالمسيح ربا ومخلِّصا.

كان الرقيق فى الإمبراطورية الرومانية قد وصل إلى أسوأ حالاته. فكان ما يربو على نصف سكان الامبراطورية من العبيد المحرومين من حقوقهم الشرعية وقد وجدت المسيحية فى العبيد أرضا خصبة إذ أن تعليم بولس كان يقول: «ليس يهودى ولا يونانى. ليس عبد ولا حر. ليس ذكر أو أنثى.لأنكم جميعا واحد فى المسيح يسوع».

ومن روما أرسل بولس رسائل إلى المسيحيين فى البلاد المختلفة التى بشَّر بها. ولكن رسالته الأخيرة كانت إلى العبرانيين – وهم اليهود الذين اعتنقوا المسيحية لأنهم كانوا على وشك الارتداد والرجوع إلى الديانة اليهودية. وكان اليهود نشطين فى الدعوة المضادة للمسيحية فى كنائس روما. وأخيرا نجح اليهود فى تقديم بولس إلى المحاكمة كمجرم. وكان قيصر روما فى ذلك الوقت هو نيرون. وشب حريق هائل أحرق روما واتُّهم المسيحيون بأنهم هم الذين قاموا بإشعال الحريق وبدأت سلسلة من التنكيل بالمسيحيين وقتلهم وحكم على بولس بالإعدام. وأُخذ خارج أسوار المدينة ونُفذ فيه الحكم بفصل رأسه عن جسده بضربة سيف. كان ذلك حوالى عام ٦٧م.

الفصل الحادى عشر

اليهود والمسيحيون تحت حكم الرومان

ذكرنا سابقا (ص ٨) أن الرومان كانوا يتبعون سياسة محايدة بين الطوائف اليهودية المتصارعة فى فلسطين، رغبة من الرومان فى النأى بأنفسهم عن التدخل فى الأمور الدينية. إلا أنه عندما دخل يسوع مع أتباعه أورشليم فى شبه مظاهرة كبيرة ومع انتشار النبوءة بأن المسيح المنتظر سيعيد لليهود دولتهم – فإن الرومان خضعوا لتحريض الكهنة اليهود فقبضوا على يسوع وتمت محاكمته وصلبه أو فى الحقيقة صلب شبيهه كما سبق أن ذكرنا (ص ١٠٤).

وعمت القلاقل والفوضى فلسطين من كل جهة: صراعات بين طائفة اليهود المتعاونة مع الرومان وهم الصدوقيون، والطبقة العامة من اليهود الداعين إلى التمسك بالسُنَّة الموسوية وعدم الخضوع للدول الوثنية. فضلا عن الصراع بين اليهود من ناحية والفلسطينيين من ناحية أخرى. وظهرت أعمال لصوصية فدائية. ومن أشهر هؤلاء الإرهابيين اللصوص باراباس الذى أُطلق سراحه بدلاً من يسوع بناء على طلب اليهود والذى قاد ٤٠٠ من أتباعه إلى نهر الأردن مُدَّعيا أنه سوف يشق النهر إلى قسمين مثل ما فعل موسى. وآخر كان يهوديا مصريا جمع أتباعه فوق جبل الزيتون معلنا أن أسوار أورشليم سوف تنهار فوق رؤوس اليهود. وكان الهدف هو إثارة الذعر وإفساد السلام. وحتى هذه الأعمال لم تبلغ الدرجة التى تثير مخاوف الدولة الرومانية إذ نظروا إليها على أنها خلافات محلّية.

وكان أتباع المسيح قلة مستكينة لا يشكلون أى خطورة. ولكن عندما بدأ الرسل يبشرون بالمسيحية، وخاصة بولس الذى بشر بها بين الشعوب غير اليهودية وأنشأ الكنائس فى آسيا الصغرى واليونان، بدأ عدد المسيحيين يتزايد ولكن مبادئهم المسالمة لم تثر قلقا لدى السلطات الرومانية.

ولما تولى الإمبراطور كاليجولا السلطة فى روما أدى إصراره على إلزام الشعوب الخاضعة له على اعتباره ربا فى صورة البشر إلى نشوب الخلاف بينه وبين اليهود الذين كانوا قد أعفوا من هذا الإلتزام. وقامت حوادث شغب فى مدينة الاسكندرية حيث كانت تعيش جالية يهودية كبيرة كانت – لنشاطها الاقتصادى – مستولية على اقتصاد المدينة ولذلك كانت مكروهة من المصريين الذين أرادوا إظهار عدم ولاء اليهود بطريقة عملية، إذ دعوهم لتنفيذ أمر الإمبراطور بعبادته فلما رفض اليهود اقتحمت الغوغاء معابد اليهود وأقاموا فيها تماثيل الامبراطور بالقوة

ولما قاومهم اليهود اتهموهم بعدم الولاء للإمبراطور ومن ثم راحوا يهاجمون منازلهم وينهبون متاجرهم وأحياءهم. وأسقط في يد الوالي الروماني واضطر إلى مجاراة المصريين بأن أصدر منشورا نزع من اليهود كافة الامتيازات التي كانوا يتمتعون بها فبدأ اليهود يتركون الاسكندرية. ولجأ اليهود إلى إرسال وفد إلى الإمبراطور كاليجولا. ولكن صادف حظ اليهود التعس أن قام بعض اليهود بتدمير معبد أقيم للإمبراطور في قيصرية فاستشاط الامبراطور غضبا وبعث إلى حاكم سوريا يأمره بتنصيب تمثال له في قلب المعبد الكبير في أورشليم.

وفي عام ٤١م تم اغتيال كاليجولا وعُيِّن أوغسطس امبراطوراً. وتوفي هذا الأخير عام ٥٤م وتولى بعده الحكم نيرون.

اضطهاد المسيحيين :

كانت أعداد المسيحيين تتزايد بفضل رحلات التبشير التي قام بها بولس ورسائله التي كان يبعث بها إلى أهالي البلدان المختلفة. وأدرك الأباطرة أن المسيحيين يؤمنون بإله في السموات وأن يسوع هو ابن الله ولذلك فهم يرفضون دعاوى تأليه الأباطرة وهذا ما أثار حفيظة الرومان عليهم. وفي عام ٦٤م شب في روما حريق مروع استمر ستة أيام وأتى على شطر كبير من المدينة. وكان نيرون في ذلك الوقت في قصر له في إحدى ضواحي روما وبعد أن توقفت النيران في اليوم السادس شب حريق جديد أتى على البقية الباقية من بيوت روما القديمة. وقد اتُّهم الإمبراطور نفسه بأنه هو الذي أشعل الحريق الثاني ليتخلص من هذه الأحياء الفقيرة القذرة. وبدوره فإن نيرون وأعوانه ألصقوا تهمة إشعال الحريق الأول بالمسيحيين. ويرى البعض أن اليهود كانوا وراء إلصاق هذه التهمة بالمسيحيين. وقُدِّم المئات من المسيحيين إلى المحاكمة وأنزلت بهم عقوبات قاسية وصلت إلى حد الإعدام. وقد سبق أن ذكرنا أن بولس الرسول كان في روما في ذلك الوقت وقد تم إعدامه في موجة اضطهاد المسيحيين هذه. وكذلك أعدم القديس مرقس الذي كان قد وصل إلى الإسكندرية ليبشر بها.

ثورة اليهود الكبرى في فلسطين :

في عام ٦٦ ميلادية صادر الحاكم الروماني لفلسطين ١٧ تالنتا من خزائن المعبد الكبير في أورشليم (التالنت أكبر وحدة موازين في ذلك الوقت وكانت تستعمل لوزن الذهب والفضة والحديد والبرونز. وقدَّرها البعض بأنها تساوي ٩٣,٥ رطلا. وإن كان البعض قرَّبها إلى ١٠٠ رطل – قاموس الكتاب المقدس، أونجر، ص ٨٤٤). مقابل متأخرات الضرائب المفروضة على اليهود. وعارض اليهود هذا الإجراء وتمثلت معارضتهم في رفض تقديم الأضاحي في هيكل

أورشليم من أجل سلامة الإمبراطور. ثم سرعان ما تحول هذا الرفض إلى ثورة ضد الرومان تولى قيادتها كهنة اليهود وأحبارهم. وفى عام ٦٧م أرسل نيرون الجنرال ڤاسباسيانوس لإخماد الثورة. فبدأ فى تطهير جيوب المتمردين واحدا بعد الآخر ثم حاصر أورشليم. وجاءته الأنباء بأن نيرون قد انتحر وأن جنرالات روما يتنازعون على العرش. إذ تولى الحكم جاليا ٨ أشهر ثم أوتو ٤ أشهر ثم ڤيتلليوس ٨ أشهر. وعاد ڤسباسيانوس وعُيِّن امبراطورا وفوَّض ابنه تيتوس لوضع حد لثورة اليهود فى فلسطين. وفى عام ٧٠ ميلادية قام تيتوس بتشديد الحصار حول قلعة أورشليم ودمَّر الأسوار الثلاثة التى كانت حولها واقتحم المدينة وهجم على الهيكل وأحرقه ودمَّره تماماً وأمر بحل التنظيمات السياسية والدينية وفرض على اليهود ضريبة الرأس السنوية ومقدارها ديناران رومانيان تدفع لحساب معبد چوبيتر الكابيتولى رب الرومان إمعاناً فى إذلال اليهود. وحمل كنوز معبد أورشليم لتعرض فى روما بمناسبة هذا الانتصار. وحرَّم الرومان على اليهود الاقتراب من أورشليم أو من أطلال معبدها وظل هذا الحظر قائماً لمدة ستين عاما لكن بعض اليهود كانوا يتسللون خفية للبكاء على قدس الأقداس.

ثورة اليهود الثانية :

قرر الامبراطور هادريانوس بناء مدينة رومانية مكان أورشليم تقام للإله چوبيتر الكابيتولى ويتوسطها معبد كبير يوضع فيه تمثال كبير لچوبيتر وقد أثارت هذه النية غضب اليهود فقاموا عام ١٣٣م بثورة ثانية تزعمها حاخام يهودى ادعى أنه المسيح المنتظر وأنه جاء ليحرِّر اليهود من الرومان الوثنيين. وانتشرت الثورة إلى يهود قبرص ومصر وبلاد ما بين النهرين أيضا. وأرسل الامبراطور جيشا تمكَّن فى عام ١٣٥م من قمع الثورة بعنف دموى إذ بلغ عدد اليهود الذين لقوا حتفهم فى هذه الحرب ما يقرب من ١/٢ مليون يهودى وأسر ما يقرب من هذا العدد أيضا (تاريخ الإمبراطورية الرومانية سيد أحمد على الناصرى. ص٥٢٤). ودُمِّر ما كان قد بقى من أطلال أورشليم وتفرق اليهود تاركين فلسطين وهاجر بعضهم إلى الحجاز واليمن ومصر وتناقص عدد اليهود فى فلسطين كثيرا حتى كاد أن ينقرض تماما.

كتابة الأناجيل :

الإنجيل هو اسم الكتاب المقدس الذى أنزل على عيسى عليه السلام. وقد ورد ذكره فى القرآن الكريم عدة مرات:

«يُعلِّمه الكتاب والحكمة والتوراة والإنجيل». (٤٨ – آل عمران).

«وقفينا على آثارهم بعيسى ابن مريم مصدِّقًا لما بين يديه من التوراة وآتيناه الإنجيل فيه هدى ونور ومصدقًا لما بين يديه من التوراة وهدى وموعظة للمتقين» . (٤٦ – المائدة).

«ثم قفينا على آثارهم برسلنا وقفينا بعيسى ابن مريم وآتيناه الإنجيل». (٢٧ – الحديد).

وقالوا إن الإنجيل وفى الانجليزية Gospel مشتق من دمج كلمتى Good spell ومن ثَّم قالوا إن تعريف الإنجيل هو «الأخبار السارة» أى «البشارة» وهو يتحدث عن «أقوال يسوع وأفعاله». ويرى بعض العلماء أن الأناجيل عبارة عن تجميعات لموضوعات متواترة تناقلها المسيحيون الأوائل شفاها ثم كتبت فيما بعد وصُنِّفت لتحقيق مطلب الكنيسة فى التهذيب والعبادة والدفاع عن معتقداتها.

وقد كتبت أناجيل عديدة. ولما أريد التمييز بينها كان يُكتب «إنجيل مرقس» أى حسب رواية مرقس أو «إنجيل متى» حسب رواية متى وهكذا. وأقدم الأناجيل لم يكتب أثناء حياة المسيح ولا عقب رفعه مباشرة ولكنه كتب بعد حوالى ٣٥ عاما بعد رفع المسيح. ولعل ذلك يرجع إلى أن المسيحيين الأوائل أو الغالبية العظمى منهم لم يكونوا متعلمين فلم يهتموا بكتابة أقوال المسيح أو أفعاله فور صدورها. كما أن تكاليف الكتابة كانت عائقا بالنسبة للمسيحيين الأوائل الذين كانوا معدمين تقريبا. ويرى بعض العلماء أن ثمة عامل آخر كان له أثره فى عدم كتابة حياة المسيح وتعاليمه فى وقت مبكرٍ ألا وهو تفشّى فكرة المجئ الثانى أى عودة المسيح ثانية إلى الأرض فى مجده فى وقت قريب. ومن ثَمَّ كان المزاج النفسى يتركز على انتظار هذا المجئ وتسجيله بدقة أكثر بدلا من التركيز على تسجيل «الماضى». وأخيرا فإن الاضطهاد الذى نزل بالمسيحيين الأوائل على أيدى اليهود الذين حاولوا منعهم من نشر هذه الدعوة الجديدة لم يترك لهم الفرصة لتدوينٍ كامل ودقيق لحياة المسيح وأقواله وأفعاله.

ولكن لما أوشك الجيل الأول الذى عاصر المسيح على الانقراض وتباعَدَ الأمل فى تحقيق المجئ الثانى ظهرت الحاجة ماسة إلى تدوين سيرة المسيح. فقام بهذا العمل الجيل الثانى. وهكذا لم تبدأ كتابة الأناجيل إلا بعد عشرات السنين من رفع المسيح وبعد تشريد أو قتل أغلب تلاميذه أو وفاتهم. وقد ظهرت أناجيل عديدة أحصى أحد الباحثين عددها فوجدها تبلغ ٣٥ إنجيلا. وقد اختير منها أربعة هى ما تتداوله كنائس اليوم. إنجيل متى ومرقس ولوقا ويوحنا. والمرجّح أن اختيار هذه الأناجيل الأربعة واستبعاد الباقى قد تم فى منتصف القرن الثانى للميلاد. وهناك كتب كثيرة درست الاختلافات بين الأناجيل الأربعة الواردة فى الكتاب المقدس يضيق المجال حتى عن تلخيصها وسنكتفى بإشارة مختصرة عن كُتَّابها :

١ – إنجيل متى :

ومتى هو الوحيد بين كتبة الأناجيل الذى كان حواريا للمسيح. وهو يذكر لقاءه الأول مع المسيح هكذا (متى ٩:٩): «وفيما يسوع يجتاز من هناك رأى إنسانا جالسا عند مكان الجباية اسمه متى فقال له اتبعنى. فقام وتبعه». كما ذكر اسمه ضمن الاثنى عشر حواريا (متى ١٠:٣) ووصف نفسه بأنه «متى العشار». وكان متى قبل أن يتبع المسيح يهوديا. ويرى

المحللون أن خلفيته الثقافية كانت رومانية هيللينية شرقية. وكان يهاجم بعنف الفريسيين وربانهم. كما أنه كان ضد المسيحية المتحررة من قيود الناموس والتى نادى بها بولس. فهو يركز على قول المسيح: «لا تظنوا أنى جئت لأنقض الناموس أو الأنبياء. بل لأكمل. فإنى الحق أقول لكم إلى أن تزول السماء والأرض لا يزول حرف واحد أو نقطة واحدة من الناموس حتى يكون الكل» (متى ٥:١٨). إلا أن الباحثين المختصين يرون أن متى أسرف فى الاستشهاد بنبوءات العهد القديم وحرص على ربطها بكل ما يتعلق بقصة المسيح منذ ولادته حتى رفعه. كما أنه كان من المؤمنين بتوقع نهاية سريعة للعالم. فهو قد توقع عودة المسيح بعد رفعه بسنوات قليلة قبل أن يكون رسله قد أكملوا التبشير بالإنجيل فى مدن إسرائيل إذ يقول (متى ١٠:٢٣) «فإنى الحق أقول لكم لا تكملون مدن إسرائيل حتى يأتى ابن الإنسان». ومن الجلى أن هذا لم يحدث كما أن خاتمة الإنجيل مشكوك فى صحة نسبتها إلى المسيح إذ هى تقول: (متى ٢٨:١٩) «فاذهبو وتلمذوا جميع الأمم وعمدوهم باسم الآب والإبن والروح القدس». وصيغة التثليث هذه لم ترد أبداً على لسان المسيح. بل ظهرت فى وقت متأخر فى عصر الرسل وأول من نادى بها كان بولس الرسول. ويرجح كتابة إنجيل متى فى الفترة من ٨٥ – ١٠٥ ميلادية مما يتيح لمن يكتب أن يتأثر بالمعتقدات السائدة فى ذلك الوقت وتجئ كتاباته متأثرة بها. وكان هذا هو الحال مع كتبة الأناجيل الأخرى.

٢ – إنجيل مرقس :

ومرقس هو أحد المبشرين السبعين. طاف بكثير من البلاد داعيا للمسيحية ثم استقر بمصر كأسقف لكنيسة الإسكندرية ومات مقتولا. ولم يكن مرقس معاصرا للمسيح ولا تابعا له بل كان تابعا لبطرس وقد كتب إنجيله بالقدر الكافى من الدقة التى سمحت بها ذاكرته عما سمع عن أعمال يسوع وأقواله ولكن دون مراعاة للنظام أو التسلسل التاريخى.

٣ – إنجيل لوقا :

لم يكن لوقا من الحواريين أو تلاميذهم بل كان تلميذا لبولس. ودوّن ما سمعه من بولس الرسول ويعتقد أنه كتب إنجيله حوالى عام ٧٠م. ويبدأ إنجيله بمقدمة يقول فيها: «إذا كان كثيرون قد أخذوا بتأليف قصة من الأمور المتيقنة عندنا كما سلمها إلينا الذين كانوا منذ البدء معاينين وخداما للكلمة. رأيت أنا أيضا. إذ قد تتبعت كل شيئ من الأول بتدقيق أن أكتب على التوالى إليك أيها العزيز ثاوفيلس. لتعرف صحة الكلام الذى علمت به».

ويتضح من هذه المقدمة أن لوقا يكتب إلى صديقه ثاوفيلس – بدافع شخصى – ولم يدّع أنه كتبها بإلهام أو مسوقا من الروح لقدس بل يقرر صراحة أن هذه المعلومات جاءت نتيجة لاجتهاده الشخصى لأنه تتبع كل شيئ من الأول بتدقيق. نقلا عن الذين كانوا معاصرين للمسيح. وأنه يفعل ذلك تقليدا لكثيرين غيره فعلوا نفس الشيئ.

٤ – إنجيل يوحنا :

يرى البعض أن يوحنا كاتب هذا الإنجيل كان أحد تلاميذ المسيح بينما يرى أغلب المؤرخين أنه يوحنا بن زبدى وكان في إفسس ولم ير المسيح ومن المرجّح أنه كتب إنجيله في العشر سنوات الأخيرة من القرن الأول الميلادى أى حوالى عام ٩٠م. ويرى آخرون أنه هو يوحنا مرقس تلميذ بولس الرسول استنادا إلى ماجاء به (يوحنا ٢٠:٢٠): «وأما هذه فقد كتبت لتؤمنوا أن يسوع هو المسيح ابن الله ولكى تكون لكم إذا آمنتم حياة بإسمه». وهذا هو نفس ماكان يقول به بولس.

٥ – إنجيل برنابا :

هذا إنجيل خامس ثار حوله خلاف كبير. ولا تعترف به الكنيسة. وهو ضمن الكتب المنهى عن مطالعتها. وبرنابا هو من الصف الأول من أتباع المسيح كما أنه أحد الرسل السبعين. وأهم ما يميز هذا الإنجيل أنه ينكر ألوهية المسيح أو أنه ابن الله. كما ينفى أن المسيح صُلِب. وقد أصدر البابا جلاسيوس الأول سنة ٤٩٢م أمرا بتحريم قراءته. ويتهم المسيحيون أحد المسلمين بتأليف هذا الإنجيل ونسبته إلى برنابا استنادا إلى مبادئ التوحيد التى جاءت به وإلى ماجاء به من أن من سيأتى فى آخر الزمان ليس هو يسوع بل محمد صلى الله عليه وسلّم.

الصراع بين المسيحية والرومان

ما إن اقترب منتصف القرن الثالث الميلادى حتى كانت الكنيسة الرومانية قد ازدهرت وزاد عدد المسيحيين فى روما وفى إيطاليا كلها. وقد انتشرت المسيحية فى أول أمرها فى الطبقات الدنيا والوسطى وكان المسيحيون الأوائل متقوقعين على أنفُسهم فى خلايا معزولة عن الواقع. ولكن مع ازدياد عدد المسيحيين ومع انضمام كثير من رجالات الفكر والأدب إلى المسيحية فإنهم بدأوا فى المشاركة فى الحياة العامة. ولما كان المسيحيون يرفضون حرق البخور أمام تماثيل الامبراطور فقد اعتُبروا خونه وتشكلت الجماعات المسيحية تحت قيادة الأساقفة مكونة كيانا مستقلا داخل الدولة وحرّموا على أبناء عقيدتهم المشاركة فى الحياة المدنية والعسكرية للإمبراطورية. ولما صادفت الإمبراطورية متاعب سياسية وعسكرية أفقدتها بلاد الغال التى استولى عليها الفرنجة فإنهم فسروا ذلك بغضب آلهة روما القديمة لسماح الرومان بتغلغل الديانة المسيحية فى البلاد وبدأت حملة لاضطهاد المسيحيين على يد الإمبراطور ماكسيمينوس. وبعد موته عام ٢٣٨م أعيدت سياسة حرية العقيدة للجميع وازدهرت المسيحية ثانية. ولكن فى عام ٢٥٠م بدأت فترة ثانية من اضطهاد المسيحيين قادها ديقيوس بإصدار

قراره للناس جميعا بتقديم القرابين علنا لآلهة الدولة وللإمبراطور وجعل الموت عقوبة لمن يرفض ذلك. ثم أصدر ڤاليريانوس عام ٢٥٧م قرارا بحظر تجمعات المسيحيين ومحاكمة أساقفتهم والكهنة والشمامسة إذا ما تمسكوا بالعقيدة المسيحية. ولكن عندما تولى الامبراطور جالليانوس الحكم أوقف هذا الاضطهاد وسمح للمسيحيين بالعودة إلى إقامة شعائرهم الدينية بحرية وعدم إجبارهم على تقديس الإمبراطور.

ثم تولى دقلديانوس الحكم وأعاد للإمبراطورية الرومانية ما كان قد استولى عليه الفرس من أراضى ما بين النهرين وأرمينيا. ويرى المؤرخون أن دقلديانوس لكثرة ما قضى من وقت فى الشرق فإنه تأثر بأفكاره وأُعجب بحياة الترف والتعالى والتأله التى يحياها ملوك الشرق وأيقن أن الهالة المقدسة التى يحيط بها ملوك الشرق أنفسهم تحول دون قيام الثورات ضدهم. ومن ثم أحاط دقلديانوس نفسه بما فى الشرق من بلاط ووصيفات وخدم وحشم ومستشارين وحرس. وأصبح القصر إدارة وقلعة قائمة بذاتها وأحاط نفسه بقداسة وانعزالية وأصبح كل ما يمت له يوصف بالقداسة. وأصدر أمرا بوجوب السجود أمامه عند المثول بين يديه ثم يقبلون أطراف ثيابه. وزيادة فى التألية أضاف دقلديانوس إلى اسمه لقب «چوفيوس» أى «ممثل الرب چوبيتر كبير الأرباب على الأرض». ورأى أنه لاستعادة أمجاد الإمبراطورية القديمة فيجب عليه إحياء العقائد الوثنية التى قامت عليها. وبدأ ينظر إلى المسيحية على أنها دعوة هدامة وخاصة بعد أن انتشرت بين الشعوب بل وتسللت إلى الجنود فى جيشه لهذا قرر تصفية المسيحية وإبادة المسيحيين.

بدأت عملية الاضطهاد عام ٢٩٩ أثناء تقديم الأضاحى لمعبودات الرومان وفحص العرافين لأكباد الحيوانات المذبوحة لاستقراء المستقبل إذ أعلن العرافون أن وجود عناصر غير مؤمنة (بألوهية الإمبراطور) قد أفسد استطلاعاتهم. عند ذلك أصدر دقلديانوس أمرا بتدمير الكنائس المسيحية وحرق الأناجيل وتحريم القيام بأى صلوات أو شعائر مسيحية. وألغى قرارا سابقا كان يسمح للمسيحيين بالدفاع عن أنفسهم فى المحاكم والإلتجاء إلى القضاء الرومانى. ثم حدث أن اشتعلت النار مرتين فى قصر الامبراطور دقلديانوس بطريقة غامضة. وبالطبع وُجِّهت أصابع الاتهام إلى المسيحيين وخاصة أن المسيحيين ارتبطوا بفكر إشعال الحرائق منذ حريق روما الكبير فى عهد نيرون. كما أن بعض المتطرفين منهم راحوا يتحدثون عن النيران التى سوف تأكل العالم بمن فيه ثم بعدها تقوم القيامة. واشتدت أعمال التنكيل بالمسيحيين. فتم إلقاء القبض على الآلاف منهم. ولما امتلأت السجون بهم لم يكن هناك مفر من تخييرهم بين العودة إلى الوثنية أو القتل حرقا. وفى رأينا أن ما حدَّث به القرآن الكريم فى سورة البروج من تعذيب للمؤمنين ينطبق على هذه الفترة.

«والسماء ذات البروج. واليوم الموعود. وشاهد ومشهود. قُتِل أصحاب الأخدود. النار ذات

الوقود، إذ هم عليها قعود، وهم على مايفعلون بالمؤمنين شهود، وما نقموا منهم إلا أن يؤمنوا بالله العزيز الحميد، الذى له ملك السموات والأرض والله على كل شيئ شهيد» (١ - ٩ البروج). وإن كان المفسرون قد قالوا أقوالا كثيرة منها أن ذلك حدث فى اليمن أو فى فارس ورووا حكايات عما حدث أثناء إلقاء المؤمنين فى النار يصعب تصديقها.

وتحمل المسيحيون بصبر كل ما نزل بهم من تعذيب، وخرجت المسيحية من هذه المحنة أقوى من ذى قبل، وأيقن رجال الكنيسة أنها إرادة الله التى مكنت من الصمود، فكان هذا فى حد ذاته سببا فى زيادة المؤمنين بالمسيحية.

اعتناق قسطنطين للمسيحية :

كان هناك صراع مسلح على عرش الامبراطورية بين ماكسنتيوس وقسطنطين، ويُروى أن قسطنطين أتاه هاتف فى ليلة المعركة يطلب منه أن يأمر جنوده بأن يكتبوا على دروعهم الحرفين الأولين من اسم السيد المسيح باليونانية Christos ، وهناك رواية أخرى أن قسطنطين روى أنه شاهد قبل المعركة علامة الصليب تُرسم عبر الشمس ومن تحتها برقت عبارة بالإغريقية تعنى «بهذا سوف تنتصر» فذهب إلى المعركة باسم الصليب واندفعت قواته: الفرسان أولا وفى أثرهم المشاه لتحاصر أعداءه وتُشتِّت شملهم، وفى اليوم التالى دخل قسطنطين روما منتصرا واجتمع السناتو ليعلن مبايعته لقسطنطين امبراطورا أعلى على كافة الولايات، لكن الولايات الشرقية: العراق وسوريا وفلسطين ومصر ظلت على ولائها لليكينيوس (خليفة ماكسنتيوس) وبدا أن صراعا آخر سينشب، وتقابل الخصمان فى سهل تراكيا (فى شمال اليونان) وتعادلا مما جعلهما يعقدان هدنة بمقتضاها تم تقسيم الإمبراطورية الرومانية سلميا إلى الإمبراطورية الرومانية الشرقية وتشمل ولايات آسيا وأفريقيا ويحكمها ليكينيوس، والإمبراطورية الرومانية الغربية وتشمل الولايات فى أوربا ويحكمها قسطنطين، ولكى يقوى قسطنطين من مركزه وليضم إلى جانبه المسيحيين فإنه أعلن أن انتصاره تم بفضل تدخل المسيح إلى جانبه، ثم أصدر أمرا إلى كافة الولاة بوقف اضطهاد المسيحيين فى جميع الولايات، وكذلك أمرا بإصلاح الكنائس التى هدمت وتسهيل تقديم الأموال التى يحتاجها الأساقفة والكهنة للصرف على المعابد وإعفاء الكهنة من الضرائب، وفى عام ٣١٣م أصدر قرار ميلان الشهير الخاص بحرية العبادة والاعتراف بالكنيسة وسلطانها، وأخيرا أعلن قسطنطين أنه قد اعتنق المسيحية ولكنه لم يعلن أن الديانة المسيحية هى الديانة الرسمية للدولة حتى لا يُغضِب الوثنيين الذين كانوا يمثلون السواد الأعظم من شعب الامبراطورية وجنودها وموظفيها وسائر أجهزتها الإدارية، لكنه استعاض عن ذلك بمنح المسيحيين المزيد من الامتيازات والحصانات والإعفاءات، بل إنه شجَّع زعماء كنيسة روما وكنائس الشرق على تقديم ما يرونه

من تشريعات يريدون من الدولة إقرارها وفرضها كقانون. وفى عام ٣١٨م اعترف بشرعية الأحكام التى تصدرها محاكم الأساقفة وعلى الدولة تنفيذها . وفى عام ٣٢١م أصدر قرارا بإقرار الأوقاف التى يهبها الرومان للكنيسة وحق الكنيسة فى وراثة ممتلكات الشهداء بشرط أن لا يكونوا قد أوصوا بخلاف ذلك. وفى نفس العام أعلن أن يوم الأحد هو يوم الرب ويجب أن يكون عطلة للعاملين فى أجهزة الدولة. ويرى المحللون أن اختيار يوم الأحد Sunday الذى هو يوم رب الشمس dies silis كان حلا وسطا لإرضاء عُبّاد رب الشمس من ناحية وإرضاء المسيحيين من ناحية أخرى ليخالفوا اليهود فى يوم السبت. كما يرى آخرون أن عيد الشكر الذى يقام فى ٣ يناير من كل عام هو بعينه عيد تقديم البحّارة لقرابين الشكر للإلهة إيزيس.

وبزوال الاضطهاد بدأت الكنيسة المسيحية تشهد صراعا عقائديا أحدث انقساما شاسعا بين المسيحيين أنفسهم.

خلافات الفرق المسيحية

ظهرت هذه الخلافات كنتيجة للإضطهاد والتعذيب الذى نزل بالمسيحيين أيام حكم دقلديانوس. وكان أول هذه الخلافات فى النصف الغربى من الإمبراطورية فى أفريقيا إذ أعلن كايكيليانوس أسقف قرطاجة المعين من قبل بابا روما عفوه عن جميع الكهنة الذين رضخوا لاضطهاد دقلديانوس ولم يتحملوا ما نزل بهم من تعذيب فسلّموا الأناجيل لسلطانه لكى تحرق وبعضهم تراجع عن اعترافه وإيمانه بالمسيح. فاعترض دوناتوس وهو أحد رجال الكنيسة المتطرفين على هذا العفو وأعلن انشقاقه عن كنيسة أفريقيا. وتجمع حوله بعض مؤيديه وانتخبوه أسقفا بديلا للأسقف المعين من قبل بابا روما نظرا للآلام التى تحملها دوناتوس فى سبيل دفاعه عن عقيدته أيام عهد دقلديانوس. واختار الإمبراطور قسطنطين ثلاثة أساقفة من بلاد الغال (فرنسا) للحكم بين الفريقين وضم إليهم بابا روما ١٥ أسقفا إيطاليا من أتباعه وصدر الحكم بإدانة دوناتوس. ولم يرض أتباع دوناتوس بهذا الحكم فاستأنفوه. ودعا الإمبراطور أساقفة يمثلون جميع ولايات الإمبراطورية. وجاء قرارهم مؤيدا للحكم السابق ضد دوناتوس. وللمرة الثانية رفض أتباع دوناتوس الحكم وطلبوا من الإمبراطور الحكم بنفسه فى الخلاف. وأدرك قسطنطين عدم جدوى اضطهاد دوناتوس وأتباعه فأصدر قرارا بعدم إنزال عقاب ما بالمنشقين «وترك الحكم لله لينتقم بنفسه من دوناتوس وأتباعه». وخرج قسطنطين من هذه القضية وقد أصبح له حق التحكيم فيما ينشأ من منازعات لاهوتية وأصبح يتمتع بحق دعوة مجالس الكنائس إلى الانعقاد. وذلك أضفى عليه مكانة مقدسة إذ أصبح «خادم الكنيسة المختار عند الله والشبيه بالرسل».

وظهر خلاف مماثل فى الشرق - فى مصر هذه المرة - إذ أعلن أسقف كنيسة الإسكندرية العفو عن المسيحيين الذين كفروا إبان اضطهاد دقلديانوس ثم تابوا وعادوا إلى المسيحية.

فاعترض ميليتوس أسقف أسيوط على هذا التسامح وانشق ومعه عدد من مؤيديه على كنيسة الإسكندرية.

المذهب الآريوسى :

كان «آريوس» ناسكا صوفيا نقى السريرة وواعظا مؤثرا يجيد الإقناع الهادئ. ولعله أراد أن يخفف من «جرم» الذين كفروا «بالمسيح» أيام الاضطهاد باعتبار أنهم لم يكفروا «بالله» اعتمادا على اختلاف الطبيعتين. وكانت آراؤه هذه مثل نار سرت فى العالم المسيحى كله وكأنه فجّر بركانا هز الكنيسة فى كل أرجاء الإمبراطورية. وأصبحت آراؤه فى طبيعة المسيح تعرف بالمذهب الآريوسى وبداية انفصال أبدى بين مؤيديه ومعارضيه. وتتلخص آراء آريوس فى أنه ليس من المعقول أن يكون المسيح الابن من نفس طبيعة الله لأنه من صُنْعِهِ وبالتالى هو أقل منه مرتبة. وصحيح أن المسيح خُلِق قبل الكون إلا أنه لابد أن كان هناك وقت لم يكن فيه المسيح مخلوقا وكان فيه الله الخالق وحده. ولهذا فإن المسيح له طبيعة مشابهة لطبيعة الله ولكنه ليس الله فى صورة بشر. كانت آراء آريوس يغلب عليها الطابع التوحيدى فالإله الواحد الأحد هو الأزلى وحده وأن الابن ليس أزليا ولكنه خَلْقٌ من خلق الله. فالله هو الوحيد الذى لم يولد وليس له بداية أو نهاية وليس له معادل أو مكافئ على الإطلاق وجوهره غير مخلوق. أما جوهر الابن فهو كائن مستقل ومختلف عن جوهر الآب. فالابن له طبيعة مغايرة ومشيئة مختلفة. فالابن ليس أزليا. والروح القدس يقف كجوهر ثالث مستقل.

وعارض «اسيكندر» أو «الكسندروس» بطريرك الاسكندرية آراء آريوس وأعلن أن الابن من نفس طبيعة الآب وأن الآب والابن والروح القدس مادة وقوة واحدة تمثل الصفات الثلاث لقوة الله فى الكون. لهذا لا يمكن فصلها واحدا عن الآخر أو تقديم أحدها زمنيا عن الآخر. ثم أصدر قرارا بحرمان آريوس من الكنيسة وطرده من دوقية مصر. وكذلك قام بعزل بعض مشايخ وشمامسة الإسكندرية وبعض المطارنة فى ليبيا.

وسافر آريوس إلى فلسطين ليعرض آراءه على أسقف قيصرية ثم سافر إلى نيقوميديا ليعرض القضية على أسقفها (نيقوميديا مدينة فى آسيا الصغرى على بحر مرمرة جنوب البسفور). وفى نيقوميديا تآلف مجمعٌ أقر آراء آريوس وأدان قرار أسقف الإسكندرية بطرد آريوس. وأمره بنقض قراره وإعادة آريوس إلى وضعه الكهنوتى. ولكن الكسندروس رفض قرارات المجمع المقدس فى نيقوميديا وجمع مؤتمرا من ١٠٠ من الأساقفة المصريين والليبيين ليؤكد طرد آريوس. وأضاف إلى طائفة الطرد اثنين من الأساقفة الليبيين تعاطفا مع آريوس. واشتعل الموقف بين الفريقين.

سبق أن قلنا إن ليكينيوس الذى كان يحكم فى نصف الإمبراطورية الشرقى لم يكن من المؤمنين بالمسيحية فى حين أن قسطنطين الذى يحكم النصف الغربى كان قد اعتنق المسيحية. وكان ليكينيوس ينظر إلى المسيحيين فى نصفه الشرقى على أنهم عملاء لقسطنطين ومن ثم فهم أعداؤه. وانتهز هذه الفرصة وأصدر قرارا بإلغاء الامتيازات الكنسية. وطرد رجال البلاط فى قصره ممن اعتنقوا المسيحية. وطبّق نفس الشيئ على الجيش وعلى أجهزة الدولة المدنية. ولم يميز فى اضطهاده بين أتباع آريوس أو معارضيه بل أمر بسجن زعماء المذهبين ووضعهم فى السجن. وأغضبت هذه القرارات قسطنطين فراح يتحين الفرصة للتخلص من غريمه. فانتهز فرصة مهاجمة قبائل القوط لمقاطعتى ميسيا وتراكيا فى شمال اليونان والتابعتين للإمبراطورية الشرقية فقاد جيوشه وطهر هذه المناطق من المعتدين وضمها إلى حكمه. ثم قاد جيوشه وعبر البسفور وقضى على جيش ليكينيوس الذى استسلم وتم إعدامه وأصبح قسطنطين هو الإمبراطور الأوحد على كافة ولايات الامبراطورية الشرقية والغربية وتوحّدت الإمبراطورية بعد ٤٠ عاماً من الانقسام.

ولكن هذا التوحد السياسى لم يؤثر إيجابيا على حالة الصراع المذهبى والانشقاق العقائدى الذى أحدثته آراء آريوس. وأدرك قسطنطين خطورة تلك الخلافات التى بدأت تمزق الكنيسة المسيحية وحتما ستؤثر على وحدة الامبراطورية. فأرسل خطابا إلى كل من اسكندر وآريوس وصف فيه الصراع بأنه جدل عقيم حول أشياء غير مفهومة وطلب منهما الاتفاق ولكنهما لم يستجيبا لهذا النداء.

وفى عام ٣٢٥م قرر الملك قسطنطين عقد مجمّع فى نيقية حضره ما يزيد عن ٢٠٠٠ من رجال الدين وتبنت الأغلبية آراء آريوس. فأصدر الإمبراطور قرارا بفض الاجتماع ثم أعيد عقده بحضور ٣١٨ فقط ووضع الامبراطور قسطنطين حدا للمجادلات بأن وضع بنفسه الصيغة التى يجب أن يوافق عليها المجتمعون وهى التثليث الذى نادى به اسكندر وأمر بإحراق كتب آريوس.

لم يستسلم آريوس وصمم مؤيدوه على المقاومة حتى استطاعوا فى عام ٣٢٨م جعل الامبراطور يعيد أريوس وأتباعه إلى كنائسهم. وفى ذلك الوقت كان «إثناسيوس» قد تولى كرسى كنيسة الاسكندرية وكان معارضا لآراء آريوس. واشتد الخلاف بين الفريقين وأخيرا اضطر إثناسيوس إلى الهرب خوفا على حياته من أتباع آريوس. وقرر الامبراطور عقد «مجمع نيقية المسكونى الأول» وفيه تقرر خلع إثناسيوس من منصبه ونفيه إلى فرنسا. ولكن بعد وفاة الإمبراطور قسطنطين عاد إثناسيوس إلى الإسكندرية. فثار عليه مؤيدو آراء آريوس. وتم عقد مجمع فى أنطاكية عام ٣٤٠م حكِم فيه بعزل إثناسيوس فهرب إلى روما. ولكن قسطنطينوس أحد أبناء الامبراطور – وكان حاكما لإيطاليا وأفريقيا – أطلق سراح إثناسيوس الذى عاد

إلى الإسكندرية عام ٣٤٦م. ولكن مؤيدى آريوس قاوموا عودته وحدثت اضطرابات عُقد على أثرها مجمع فى مدينة آرلس بفرنسا عام ٣٥٣م ومجمع آخر فى ميلانو عام ٣٥٥م وفيه أيد المجتمعون آراء آريوس. وفى عام ٣٥٧م عقد مجمع فى مدينة سرميوم فى جنوب فرنسا وفى عام ٣٥٩م عقد مجمعين أولهما فى مدينة ريمنى بفرنسا والثانى فى مدينة سلوقيا بسوريا وكلها أيدت آراء آريوس. وفى عام ٣٦١م عقد مجمعٌ فى أنطاكية وُضعت فيه صيغة إيمان جديدة تقول إن الابن مختلف عن أبيه فى الجوهر والمشيئة. ووافق الفريقان على هذه الصيغة وبهذا أصبحت آراء آريوس هى السائدة فى العالم المسيحى شرقه وغربه حتى منتصف القرن الرابع الميلادى.

وفى عام ٣٦١م تولى يوليانوس الحكم فى الامبراطورية. وكان - كما يصفه علماء التايخ - خبيثا يطبق سياسة «فرِّق تسد». فكان غرضه أن يقوم المسيحيون بعضهم على بعض فتنحل عرى الوحدة المسيحية التى تعارض تأليه الأباطرة. فأعاد إثناسيوس إلى كرسى الإسكندرية. ولم يمضى غير قليل حتى أسفر يوليانوس عن كفره. فأغلق الكنائس ونهب أوانيها وسلمها للوثنيين وجاهر بتجديد عبادة الأوثان وقدم بنفسه الضحايا لها (تطورات هامة فى المسيحية. أحمد عبد الوهاب. ص٣١٠).

وفى عام ٣٦٣م خَلَفه يوبيانوس فى حكم الامبراطورية وكان من معتنقى المسيحية وعقيدة التثليث فقام بفرضها فى جميع أنحاء الامبراطورية.

وفى عام ٣٨١م عُقد مجمع فى القسطنطينية تقرر فيه أن الروح القدس إله.

وفى عام ٤٣١م عُقد مجمع فى إفسس وفيه تقرر أن للمسيح طبيعة واحدة ومشيئة واحدة وأن العذراء ولدت إلها وهى لذلك تدعى «والدة الإله».

وفى عام ٤٥١م عقد مجمع فى خلقيدونيه وحضره أساقفة كثيرون وقرر المجتمعون أن للمسيح طبيعتين ومشيئتين. ورفض بابا الإسكندرية الموافقة على هذه القرارات فنفاه الامبراطور بعيدا عن مصر ومات منفيا.

وفى عام ٥٥٣م عقد مجمع القسطنطينية الثانى وأيد قرارات مجمع القسطنطينية الأول وقرارات مجمع خلقيدونية.

وفى عام ٥٨٩م عقد مجمع فى طليطلة تقرر فيه أن الروح القدس منبثق أيضا من الابن.

وفى عام ٦٨٠م عقد مجمع القسطنطينية الثالث وفيه أيَّد المجتمعون أن المسيح طبيعتين ومشيئتين: طبيعة لاهوتية وطبيعة ناسوتية.

وفى عام ٨٦٩م عقد مجمع فى روما وفيه تقرر اعتبار الروح القدس منبثقا من الآب والابن.

وفى عام ٨٧٩م عقد مجمع فى القسطنطينية وفيه تقرر انبثاق الروح القدس من الآب فقط.

كانت المشكلة هي التوفيق بين ألوهية المسيح التى صدر بها قرارات وأصبحت معتقدا أساسيا وراسخا فى الديانة المسيحية وبين الحقيقة الثانية وهى أن المسيح وُلد من مريم العذراء وكان يمشى على الأرض ويأكل كما يأكل الناس. وهذا ما سجله القرآن الكريم:

«ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صِدِّيقة كانا يأكلان الطعام» (٧٥ – المائدة).

ومن هنا ظهرت المذاهب المسيحية المختلفة :

١ – **مذهب النسطوريين** نسبة إلى نسطور الذى كان بطريرك القسطنطينية سنة ٤٣١م. ويقول نسطور شارحا مذهبه: إن مريم لم تلد إلها لأن ما يولد من الجسد ليس إلا جسداً ولأن المخلوق لا يلد خالقا. فمريم ولدت إنسانا. وعلى هذا فمريم لا تسمى «والدة الإلة» بل والدة المسيح الإنسان. ثم جاء اللاهوت لعيسى بعد ولادته أى أن عيسى بعد الولادة اتحد بالأقنوم الثانى اتحادا مجازيا. أو كما شبَّهه البعض باتحاد الماء فى الزيت. فكل واحد منهما باق على جنسه وطبيعته. وبهذا يكون فى المسيح طبيعتان. واحدة بشرية والأخرى إلهية.

٢ – **المذهب اليعقوبى** : نسبة إلى داعية مشهور قام بنشر المذهب كرد فعل لعقيدة نسطور. وأقره مجمع إفسس عام ٤٣١م. وهو يقضى بأن للمسيح طبيعة واحدة ومشيئة واحدة. ففى المسيح أقنوم واحد تم بعد الاتحاد الذى شبهه بعضهم بالماء يلقى على الخمر فيصيران شيئا واحدا. وكان قرار المجمع هو : «إن لسيدنا يسوع المسيح أقنوما واحدا إلهيا اتحد بالطبيعة الإنسانية اتحادا تاما بلا اختلاط أو امتزاج ولا استحاله. فالعذراء هى بحق والدة الإله فمريم لم تلد إنسانا عاديا بل ولدت ابن الله المتجسِّد لذلك حقا هى أم الإله» (تاريخ الأقباط. زكى شنودة. ص ١٦٠). وقد تبنت هذه الآراء الكنائس الشرقية ويسمى أتباعها الأرثوذكس.

٣ – **المذهب الملكانى** : وهو يعتنق ما أقره مجمع خلقيدونية عام ٤٥١م من أن للمسيح طبيعتين ومشيئتين. فالمسيح أقنوم إلهى بحت ولكن له ذاتان وكيانان هما الإله والإنسان. وهو هنا يشابه مذهب النسطوريين ولكنه يختلف عنه فى الاعتقاد بأن مريم ولدت الاثنين معا. فهى قد ولدت يسوع المسيح الذى هو مع أبيه فى الطبيعة الإلهية ومع الناس فى الطبيعة الإنسانية فهو طبيعتان ومشيئتان فى أقنوم واحد. ولذلك فهم يقولون: «نؤمن بالله الآب مالك كل شيئ. صانع كل شيئ. ما يُرى ومالا يُرى. بالرب الواحد يسوع المسيح. بكر الخلائق كلها وليس بمصنوع. إله حق من إله حق من جوهر أبيه الذى خلق كل شيئ من أجل الناس. ومن أجل خلاصنا نزل من السماء وتجسَّد من روح القدس. ونؤمن بروح القدس. بروح الحق الذى هو مشتق من أبيه. روح محبَّة وبمعمودية واحدة لغفران الخطايا وبقيامة أبداننا وبالحياة الدائمة إلى أبد الآبدين».

٤ – المذهب المارونى : نسبة إلى يوحنا مارون الذى دعا سنة ٦٦٧م إلى أن للمسيح طبيعتين ولكن له مشيئة واحدة لالتقاء الطبيعتين فى أقنوم واحد.

خلاف حول من سيحاسب الناس :

يعتقد المسيحيون أن الآب أعطى سلطان الحساب لابنه يسوع لأن الابن بالإضافة إلى ألوهيته وأبديَّته – فهو ابن الإنسان أيضا ولذلك فهو أولى بمحاسبة الإنسان وأنه بعد أن ارتفع إلى السماء جلس بجوار الآب على كرسى استعدادا لاستقبال الناس يوم الحشر. وفى ذلك المعنى وردت فقرات من الكتاب المقدس:

– فى رسالة بولس الثانية إلى أهل كورنثوس يقول : «لابد أننا جميعا نظهر أمام كرسى المسيح لينال كل منا ما كان بالجسد بحسب ما صنع خيرا كان أم شرا».

– فى رسالة بولس إلى أهل رومية يقول: «إننا جميعا سوف نقف أمام كرسى المسيح».

– فى إنجيل يوحنا : «الآب لا يدين أحدا بل قد أعطى كل الدينونة للابن».

ولكن فى ١٩٦٦/٦/١٥ نشرت جريدة التميز اللندنية وثيقة دينية اكتشف مؤخرا جاء بها: تعتقد المسيحية أن عيسى ابن الله المقدَّس بالرغم من أن أكثر أتباعه فى السنوات التالية لوفاته اعتبروه مجرد نبى آخر لبنى إسرائيل. وجاء فى النص منسوبا إلى عيسى: «لن أحاسب الناس على أعمالهم أو أحكم عليهم. الذى أرسلنى هو الذى يصنع ذلك».

ختـــام :

هذه الخلافات الجوهرية حول علاقة المسيح بالله وبالروح القدس ومن سيحاسب الناس يوم القيامة أظهرت أن البشرية قد بعدت عن الطريق الصحيح ويلزمها رسول آخر يأخذ بيدها إلى الطريق المستقيم. فكان خاتم الأنبياء والمرسلين – محمد صلى الله عليه وسلم – وهو موضوع الجزء السابع من هذه السلسلة إن شاء الله.